بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الرابع عشر

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾
[الأنفال ٨/٢٤]

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء الرابع عشر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر

مكية ، وهي تسع وتسعون آية.

تسميتها :

سميت سورة الحجر لذكر قصة أصحاب الحجر فيها ، وهم ثمود ، والحجر : واد بين المدينة والشام.

مناسبتها لما قبلها :

هناك تناسب بين هذه السورة وسورة إبراهيم في البدء والختام والمضمون ، أما البداية : فكلتا السورتين افتتحتا بوصف الكتاب المبين ، وأما المضمون : ففي كليهما وصف السموات والأرض ، وإيراد جزء من قصة إبراهيم عليه السلام وبعض قصص الرسل السابقين ، تسلية لرسول الله ﷺ عما تعرض له من أذى قومه بتذكيره بما تعرض له الأنبياء من قبله ، ونصرة الله لهم ، مع نقاش الكفار والمشركين.

وأما الخاتمة : ففي سورة إبراهيم وصف تعالى أحوال الكفار يوم القيامة بقوله : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ ، سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ ، وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ ثم قال هنا في هذه السورة : ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ، ورأوا عصاة المؤمنين والموحدين قد أخرجوا منها ، تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين. هذا مع اختتام آخر سورة إبراهيم بوصف الكتاب :

﴿هذا بَلاغٌ ..﴾ وافتتاح هذه به ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ وهذا تشابه في الأطراف بداية ونهاية [١].

ما اشتملت عليه السورة :

تتفق هذه السورة مع بيان أهداف التنزيل المكي وهي إثبات الوحدانية والنبوة والبعث والجزاء ، والتذكير بمصارع الطغاة ومكذبي رسل الله الكرام ، لذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد ، والتهويل والتوبيخ : ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ. ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وتضمنت السورة ما يأتي :

١ ـ مناقشة الكفار والمشركين الذين كذبوا بالرسل وبما أتوا به من آيات ، بدءا من أبي البشر الثاني : نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ. وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ [١٠ ـ ١١].

٢ ـ إيراد الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، ومشاهد الرياح اللواقح ، والحياة والموت ، والحشر والنشر :﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ ..﴾ [١٦] ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْناها ..﴾ [١٩] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [٢٦] ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ ..﴾ [٢٢] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ﴾ [٢٣] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٥] وبيان حكمة خلق الموجودات : وهي عبادة الله وإقامة العدل وإرساء دعائم النظام في الحياة.

---

(١) تناسق الدرر في تناسق السور للسيوطي ، طبع دمشق : ٦٢

٣ ـ إثبات صدق الوحي على النبي ﷺ : ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ .. إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [٨ ـ ٩].

٤ ـ الإشارة لنظرية ظلمة السماء : ﴿وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ ، فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقالُوا : إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [١٤ ـ ١٥].

٥ ـ قصة آدم وإبليس المعبّرة عن الطاعة والرفض ، بامتثال الملائكة أمر الله بالسجود لآدم وتعظيمه ، وأمر إبليس بالسجود له وعصيانه الأمر : ﴿فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [٢٩ ـ ٣١].

٦ ـ وصف حال أهل الشقاوة والنار ، وأهل السعادة والتقوى والجنة [٤٢ ـ ٤٨].

٧ ـ تسلية الرسول ﷺ منعا لليأس والقنوط بتذكيره بقصة لوط وشعيب وصالح عليهم السلام مع أقوامهم الذين دمرهم الله [قصة آل لوط : ٥٨ ـ ٧٧] [أصحاب الأيكة : قوم شعيب : ٧٨ ـ ٧٩] [أصحاب الحجر : ثمود : ٨٠ ـ ٨٤].

٨ ـ بيان ما أنعم الله به على نبيه من إنزال القرآن [٨٧] وإهلاك أعدائه المستهزئين [٩٥] وأمره بعدم الافتتان بتمتيع الآخرين بالدنيا ، وأمره بالتواضع للمؤمنين [٨٨] والجهر بالدعوة [٩٤] والصبر والتسبيح والعبادة حتى الموت عند مضايقته باستهزاء المشركين [٩٧ ـ ٩٩].

والخلاصة : تضمنت السورة دلائل التوحيد ، وأحوال القيامة ، وصفة الأشقياء والسعداء ، وبعض قصص الأنبياء ، وأفضال الله على نبيه المصطفى ﷺ.

وصف القرآن وتهديد الكافرين والعصاة

﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (٤) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (٥)﴾

الإعراب :

﴿رُبَما﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد ، فالتشديد على الأصل ، والتخفيف لكثرة الاستعمال. و ﴿رُبَما﴾ فيها كافة عن العمل ، وخرجت بها عن مذهب الحرف ؛ لأن «رب» حرف جر ، وحرف الجر يلزم للأسماء ، فلما دخلت ﴿رُبَما﴾ عليها ، جاز أن يقع بعدها الفعل ، وصارت بمنزلة «طالما وقلّما». ولا يدخل بعد ﴿رُبَما﴾ إلا الماضي ، وإنما جاء هاهنا المضارع بعدها ، على سبيل الحكاية ، ولما كان إخبار الحق تعالى متحققا ، لا شك في وجوده لتحققه ، نزّل المستقبل منزلة الماضي الذي وقع ووجد.

و ﴿رُبَما﴾ معناها التقليل كرب ، وقد يراد بها الكثرة ، على خلاف الأصل.

﴿لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مفعول في موضع نصب ، لأنه مفعول ﴿يَوَدُّ﴾.

﴿يَأْكُلُوا﴾ جواب الأمر أو الطلب.

﴿وَلَها كِتابٌ كِتابٌ﴾ مبتدا مرفوع ﴿وَلَها﴾ خبره ، والجملة : في موضع جرّ ؛ لأنها صفة. ﴿قَرْيَةٍ﴾ ويجوز حذف واو ﴿وَلَها﴾ نحويا لمكان الضمير ، والأصل ألا تدخلها الواو مثل ﴿إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٠٨] ولكن لما شابهت صورتها صورة الحال ، أدخلت عليها ، تأكيدا للصوقها بالموصوف.

البلاغة :

﴿وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ المراد أهلها ، من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحالّ.

المفردات اللغوية :

﴿الر﴾ إشارة لتحدي العرب بإعجاز القرآن البياني ، أي هذا الكتاب كلام الله المنظوم من حروف لغتكم العربية الهجائية : ألف ، ولام ، وميم. ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات ﴿الْكِتابِ﴾ هو السورة ، وكذا القرآن ، أي هذه آيات الكتاب العظيم المتميز بالفصاحة الكاملة والبيان التام ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي وقرآن واضح تام البيان ، لا خلل فيه ، مظهر للحق من الباطل. والكتاب والقرآن المبين : الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمدا ﷺ . وتنكير ﴿وَقُرْآنٍ﴾ للتفخيم ، والمعنى : تلك آيات الكتاب الجامع لكونه كتابا وقرآنا ، فهو كامل في كونه كتابا ، وفي كونه قرآنا مفيدا للبيان.

﴿رُبَما﴾ تدل على أن ما بعدها قليل الحصول ، وقد تستعمل في الكثير ، كما هنا ، فإنه يكثر منهم تمني الإسلام ، وقيل : للتقليل ، فإن الأهوال تدهشهم ، فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك إلا في أحيان قليلة. وما : كفّت دخول «رب» عن الجر ، فجاز دخوله على الفعل ، و «ما» : نكرة موصوفة ، أي رب شيء ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين ﴿ذَرْهُمْ﴾ دعهم واتركهم يا محمد ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ يشغلهم ﴿الْأَمَلُ﴾ بطول العمر وغيره عن الإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم ، وسوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه. والغرض إقناط الرسول ﷺ من ارعوائهم وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان ، وأن نصحهم يعدّ اشتغالا بما لا طائل تحته. وفيه إلزام للحجة ، وتحذير عن إيثار التنعم ، وما يؤدي إليه طول الأمل.

﴿مِنْ قَرْيَةٍ مِنْ﴾ زائدة للتمكين ﴿قَرْيَةٍ﴾ المراد أهلها ﴿كِتابٌ﴾ أجل ﴿مَعْلُومٌ﴾ محدود لإهلاكها ، أي لها أجل مقدر كتب في اللوح المحفوظ ﴿ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي ما يتقدم زمان أجلها ، و ﴿مِنْ﴾ زائدة. ﴿وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يتأخرون عنه ، وتذكير هذا الفعل العائد على ﴿أُمَّةٍ﴾ للحمل على المعنى.

التفسير والبيان :

﴿الر﴾ هذه الحروف المقطعة قصد بها التنبيه وإشعار العرب بإعجاز القرآن البياني ، وتحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه ، لأنه نزل بلغتهم ، وتكوّن من حروفها التي تتركب منها الكلمات ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي تلك الآيات من هذه السورة هي آيات الكتاب الكامل في كل شيء ، وآيات القرآن المبين التام الوضوح والبيان لهذه السورة وغيرها. وتنكير كلمة

﴿قُرْآنٍ﴾ للتفخيم ، وقد جمع بين الوصفين : ﴿الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ للدلالة على أنه الكتاب الجامع للكمال ، والغرابة في البيان ، كما ذكر الزمخشري.

﴿رُبَما يَوَدُّ ..﴾ أي ولكن الكفار سيندمون يوم القيامة على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين. وكلمة ﴿رُبَما﴾ وإن كانت للتقليل ، فهي أبلغ في التهديد. ذكر ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة : أن كفار قريش لما عرضوا على النار ، تمنوا أن لو كانوا مسلمين. قال الزجاج : الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ، ورأى حالا من أحوال المسلم ، ودّ لو كان مسلما.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ ، وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٧].

روى الطبراني عن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا اجتمع أهل النار في النار ، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام ، وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا : كانت لنا ذنوب ، فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة ، فأخرجوا. فلما رأى ذلك من بقي من الكفار ، قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، فنخرج كما خرجوا» قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿الر. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ. رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

ثم هددهم الله وأوعدهم بتهديد شديد ووعيد أكيد ، فقال :

﴿ذَرْهُمْ ..﴾ أي دع يا محمد الكفار في ملاهيهم وتمتعهم بلذات دنياهم ، يأكلون كما تأكل الأنعام ، وتلهيهم الآمال عن التوبة والإنابة أو عن الآخرة والأجل ، فسوف يعلمون عاقبة أعمالهم وأمرهم. كقوله تعالى : ﴿قُلْ : تَمَتَّعُوا ،

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٣٠] وقوله : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً ، إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات ٧٧ / ٤٦] ويلاحظ أن الآيات الثلاث عللت سبب إهمالهم في الدنيا ، إذ لا حظّ لهم في الآخرة.

ثم ذكر تعالى سبب تأخير عذاب الكفار إلى يوم القيامة فقال : ﴿وَما أَهْلَكْنا﴾ أي إن سنة الله تعالى في الأمم واحدة ، وهي أنه لا يهلك أهل قرية إلا بعد قيام الحجة عليهم ، وإبلاغهم طريق الرشد والحق ، وانتهاء أجلهم المقرر والمقدر لهم في اللوح المحفوظ ، وأنه لا يؤخر عذاب أمة حان هلاكهم عن وقته المحدد ، ولا يتقدمون عن مدتهم : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ﴾ [الرعد ١٣ / ٣٨] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٤].

والمقصود بالآيات : أنه لو شاء الله لعجل العذاب للكفار ، ولكن اقتضت حكمته إمهالهم لعلهم يتوبوا ، فإن لكل أمة أجلا معينا ، لا تأخير فيه ولا تقديم ، والله تعالى يمهل ولا يهمل.

وهذا تنبيه لأهل مكة وأمثالهم وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك ، كما قال ابن كثير.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ القرآن الكريم جامع بين صفة الكمال في كل شيء ، والوضوح والبيان ، فلا نقص فيه ولا خلل ، ولا غموض ولا لبس ، وإنما يظهر الحق من الباطل لكل إنسان.

٢ ـ سيندم الكفار يوم القيامة على كفرهم ، ويتمنون أن لو كانوا مسلمين في

أوقات كثيرة ؛ لأن ﴿رُبَمَا﴾ وإن كانت تستعمل في الأصل للقليل ، إلا أنها قد تستعمل في الكثير ، ومن عادة العرب أنهم إذا ذكروا التكثير ، ذكروا لفظا وضع للتقليل ، ثم إن هذا التقليل أبلغ في التهديد.

٣ ـ يهتم الكفار عادة بالماديات ، فتراهم منغمسين في الشهوات والأهواء واللذات ، معتمدين على الآمال المعسولة ، مغترّين بالأماني الزائفة ، منشغلين بالدنيا عن الطاعة والعمل للآخرة. وقد هددهم الله بتركهم في مآكلهم ومتعهم ، وحذرهم من عاقبة صنيعهم.

والآية تدل على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من شأن أخلاق المؤمنين.

وورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة في ذم الأمل مطلقا ، منها ما رواه أحمد والشيخان والنسائي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «يهرم ابن آدم ، ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل» وفي مسند البزار عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا».

وروى أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن شعيب مرفوعا قال : «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل».

٤ ـ لا ظلم في إهلاك الأمم الكافرة المكذّبة للرسل ، وإنما هلاكها بسبب جحودها وكفرها وتكذيبها بآيات الله ورسله.

٥ ـ إن هلاك الأمم ليس عشوائيا ولا كيفيا حسب رغبات الناس ، وإنما هو مقدر بتاريخ معين ، ومقرر في أجل محدد ، لا تأخير فيه ولا تقديم.

بعض مقالات المشركين في النبي ﷺ

والرد القاطع عليها

﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١١) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)﴾

الإعراب :

﴿لَوْ ما﴾ بمعنى هلا ، وهي مركبة من «لو» التي معناها امتناع الشيء لامتناع غيره ، و «ما» التي تسمى المغيّرة ؛ لأنها غيرت معنى «لو» من معنى امتناع الشيء لامتناع غيره ، إلى معنى «هلا». مثل تركيب «لو لا» صارت بمعنى «هلا» في أحد وجهيها ، وبمعنى امتناع الشيء لوجود غيره.

﴿إِذاً﴾ أصلها : إذ أن ومعناه : حينئذ ، فضم إليها أن ، واستثقلوا الهمزة ، فحذفوها.

﴿إِنَّا نَحْنُ .. نَحْنُ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه تأكيد للضمير الذي هو اسم «إن» في ﴿إِنَّا﴾. ويجوز أن يكون في موضع رفع مبتدأ ، و ﴿نَزَّلْنَا﴾ خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر «إن».

﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ محله النصب على الحال.

ولا يجوز أن يكون ﴿نَحْنُ﴾ هنا ضمير فصل لا موضع له من الإعراب ؛ لأنه ليس بعده

معرفة ، ولا ما يقارب المعرفة ؛ لأن ما بعده جملة ، وهي نكرة ، فتكون صفة للنكرة ، وشرط الفصل أن يكون بين معرفتين أو بين معرفة وما يقارب المعرفة. ﴿وَما يَأْتِيهِمْ وَما﴾ للحال ، وهذا على حكاية الحال الماضية.

البلاغة :

﴿الْمُجْرِمِينَ الْأَوَّلِينَ مُنْظَرِينَ﴾ بينها سجع ، وكذلك بين ﴿يَعْرُجُونَ﴾ و ﴿مَسْحُورُونَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالُوا : يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ ..﴾ نادوا به النبي ﷺ على التهكم ﴿الذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي إنك لتقول قول المجانين ، حتى تدّعي أن الله تعالى نزل عليك الذكر أي القرآن ﴿لَوْ ما﴾ أي هلا ، للتحضيض على فعل ما يقع بعدها ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك أو قولك : إنك نبي ، وإن هذا القرآن من عند الله ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ إلا تنزيلا ملتبسا بالحق وملازما له ، أي بالوجه الذي قدره واقتضته حكمته ، ولا حكمة في أن تأتيكم بصورة تشاهدونها ، فإنه لا يزيدكم إلا لبسا وخلطا ، ولا في معاجلتكم بالعقوبة ، فإن بعضكم وبعض ذريتكم سيؤمن ، وقيل: ﴿بِالْحَقِ﴾ أي الوحي أو العذاب ﴿إِذاً﴾ أي حين نزول الملائكة بالعذاب ﴿مُنْظَرِينَ﴾ مؤخرين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القرآن ، وهو رد لإنكارهم واستهزائهم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ من التبديل والتحريف ، والزيادة والنقص ، بأن جعلناه معجزا مباينا لكلام البشر ، بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل العربية ، أو المراد نفي تطرق الخلل إليه أثناء بقائه بضمان الحفظ له. ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا رسلا ﴿فِي شِيَعِ﴾ فرق ، وهي جمع شيعة : وهي الفرقة أو الجماعة المتفقة على رأي واحد ، في العقيدة أو في المذهب ، أو في الرأي. ﴿إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ كاستهزاء قومك بك ، وهذا تسلية له ﷺ. ﴿نَسْلُكُهُ﴾ ندخله ، أي مثل إدخالنا التكذيب في قلوب أولئك ندخله ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كفار مكة ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالنبي ﷺ ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مضت سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم ، وهؤلاء مثلهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء المقترحين ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ في الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون ﴿سُكِّرَتْ أَبْصارُنا﴾ سدّت ومنعت عن الإبصار ﴿مَسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد بذلك ، يخيل إلينا أننا مسحورون ، والإضراب ببل دلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له ، بل هو باطل خيل إليهم بنوع من السحر.

سبب النزول :

قال قتادة : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة من صناديد قريش.

المناسبة :

بعد أن بالغ تعالى في تهديد الكفار ، ذكر شبهتهم في إنكار نبوة محمد ﷺ ، وإساءتهم الأدب بوصفه بالسفاهة والجنون ، ثم ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء على هذا النحو ، فلك يا محمد أسوة بالأنبياء في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن بعض مقالات المشركين وشبهاتهم الصادرة عن كفرهم وعنادهم ، فقالوا استهزاء وتهكما : يا أيها الذي تدعي نزول القرآن عليك ، إنك متصف بالجنون ، حينما تدعونا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا ، فلا نقبل دعوتك.

﴿**لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ ..**﴾ لو كنت ما تدعيه حقا وصدقا ، فهلا تأتينا بالملائكة يشهدون لك بصدقك وصحة ما جئت به ، ويؤيدونك في إنذارك ، كما قال تعالى : ﴿**لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**﴾ [الفرقان ٢٥ / ٧] وقال : ﴿**وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ، أَوْ نَرى رَبَّنا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً**﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢١] وحكى تعالى قول فرعون في شأن موسى : ﴿**فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٣].

فأجابهم تعالى عن المقالة الثانية بقوله : ﴿**ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ**﴾ أي

لا ننزل الملائكة إلا بحق وحكمة ومصلحة نعلمها ، ولا حكمة في أن تأتيكم عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ ؛ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ، وهم من غير جنسكم ولا على صورتكم فيلتبس الأمر عليكم ؛ إذ لكل جنس هاد من جنسه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً ، لَجَعَلْناهُ رَجُلاً ، وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٩].

﴿وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ أي ولو نزلنا الملائكة لكان ذلك إنزالا للهلاك والعذاب ، وما أخر عنهم العذاب ساعة ؛ لأن سنتنا أننا إذا أنزلنا آية كما يقترح الناس ولم يؤمنوا بها ، أتبعنا ذلك بعذاب الاستئصال ، فكان في إنزال الملائكة ضررا محققا لهم ، لا نفعا.

ثم أجابهم الله تعالى عن المقالة الأولى بقوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ..﴾ أي أنه تعالى هو الذي أنزل عليه الذّكر وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، فقولوا : إنه مجنون ، ونقول : نحن منزلوا القرآن وحافظوه. وتلك خصوصية للقرآن ، فإنه تعالى تكفل وحده بحفظه وصونه ، على مدى الدهر ، بخلاف الكتب السابقة التي أمر بحفظها الأحبار والرهبان ، فعبثوا بها وغيروها وبدلوها ، بل إن أصلها قد فقد وضاع ، فلم يعرف لها أثر ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ ، بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ ، وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ﴾ [المائدة ٥ / ٤٤].

ثم قال الله تعالى مسليا لرسوله ﷺ في تكذيب بعض كفار قريش : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ..﴾ أي إنا أرسلنا قبلك رسلا للأمم الماضية وشيعها وطوائفها وفرقها ، ولكن ما أتاهم من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به وكفروا برسالته ، فقوله : ﴿وَما يَأْتِيهِمْ﴾ حكاية حال ماضية ؛ لأن

﴿ما﴾ لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال ، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا ، واستكبروا عن اتباع الهدى ، فإن مثل ذلك التكذيب والكفر الذي أدخل في قلوب المجرمين السابقين ، ندخله في قلوب المجرمين الجدد ، فضمير ﴿نَسْلُكُهُ﴾ عائد إلى الشرك. ويصح عوده إلى الذكر (القرآن) أي مثل ذلك الإدخال ندخل القرآن ونلقيه في قلوبهم مكذبا مستهزءا به غير مقبول ، حالة كونهم غير مؤمنين به أبدا.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مضت السنة المتبعة في الماضين ، وهو أنه تعالى يهلك ويدمر كل من كذّب رسله ، ويعلم بهم ، وينجي الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة ، فلك يا محمد أسوة بالرسل قبلك مع أممهم المكذبة. وبعبارة أخرى : سنفعل بالمجرمين اللاحقين كما فعلنا بالسابقين ، وسننصر الرسل والمؤمنين.

ثم يخبر الله تعالى عن شدة عنادهم وتمكن كفرهم في نفوسهم ومكابرتهم للحق ، فقال : ﴿وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ..﴾ أي لو فتحنا على هؤلاء المعاندين بابا من السماء ، فجعلوا يصعدون فيه أو تصعد فيه الملائكة ، لما صدقوا بذلك ، بل قالوا : إنما منعت وسدت أبصارنا من الإبصار ، وقد شبّه علينا ، واختلطت الأمور في أذهاننا ، وأصبحنا لا نرى إلا أخيلة ، كالقوم المسحورين سحرنا محمد بآياته ، نحو قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ ، فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ، لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام ٦ / ٧].

والمعنى : بلغ من عناد المشركين أنهم لو صعدوا في السماء حقيقة ، ورأوا من العيان ما رأوا ، لقالوا : هذه أوهام وأخيلة ، وقد سحرنا محمد ، كما يفعل عالم السيمياء ، أو المنوم المغناطيسي. وفي الآية دليل على وجود الظلام في الفضاء الخارجي.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات الشريفة على ما يلي :

١ ـ لقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، إلى يوم القيامة ، وهو رد على اتهام المشركين زورا وبهتانا بأن محمدا الذي أنزل عليه هذا القرآن مجنون.

٢ ـ لا فائدة من إنزال الملائكة تشهد للنبي ﷺ بصدقه في دعواه النبوة ، لما فيه من اللبس عليهم ، بل إلحاق الضرر بهم ، وهو الهلاك أو العذاب إذا كفروا بعدئذ ، ولم يمهلوا بنزوله.

٣ ـ إن تكذيب الأنبياء والاستهزاء بهم عادة قديمة وظاهرة شائعة في الأمم ، فكما يفعل المشركون بالنبي ﷺ ، فكذلك فعل من قبلهم بالرسل.

٤ ـ كما أدخل أو سلك الله الضلال والكفر والاستهزاء والشرك في قلوب المجرمين من طوائف الأقدمين ، كذلك يسلكه في قلوب مشركي العرب ، حتى لا يؤمنوا بمحمد ﷺ ، كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم.

وقيل : نسلك القرآن في قلوبهم ، فيكذبون به ، ذكر جماعة أنه قول أكثر المفسرين.

٥ ـ مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء المشركين من الهلاك.

٦ ـ المشركون معاندون ، فلو كشف لهم أن يعاينوا أبوابا من السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل ، لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له.

بعض مظاهر قدرة الله تعالى

من خلق السموات والأرض وإرسال الرياح لواقح والإحياء والإماتة

والعلم الشامل والحشر

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)﴾

الإعراب :

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ مَنِ﴾ مستثنى منصوب ، ولا يجوز أن يكون بدلا من ﴿كُلِّ شَيْطانٍ﴾ لأنه استثناء من موجب.

﴿وَمَنْ لَسْتُمْ .. مَنْ﴾ إما منصوب عطفا على قوله ﴿مَعايِشَ﴾ أي جعلنا لكم فيها المعايش والعبيد ، أو بتقدير فعل ، أي وأعشنا من لستم له برازقين ، أو عطفا على موضع ﴿لَكُمْ﴾ المنصوب بجعلنا ، وإما موضعه الرفع مبتدأ ، وخبره محذوف. ولا يجوز في رأي البصريين خلافا

للكوفيين عطفه على الكاف واللام في ﴿لَكُمْ﴾ لأنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ إن بمعنى «ما» و ﴿مِنْ﴾ زائدة ، و ﴿شَيْءٍ﴾ في موضع رفع مبتدأ ، و ﴿عِنْدَنا﴾ خبر المبتدأ ، و ﴿خَزائِنُهُ﴾ مرفوع بالظرف وهو ﴿عِنْدَنا﴾ لوقوعه خبرا للمبتدأ ، وتقديره : وما شيء إلا عندنا خزائنه. ودخول ﴿إِلَّا﴾ أبطل عمل ﴿إِنْ﴾ على لغة من يعملها.

﴿لَواقِحَ﴾ إما جمع لاقحة ، أي حوامل بالسحاب ؛ لأنها تسوقه ، وإما أصله ملاقح ، لكن أتى به على حذف الزوائد.

البلاغة :

﴿عِنْدَنا خَزائِنُهُ﴾ استعارة تخييلية وتمثيل لكمال قدرته ، شبه قدرته تعالى على كل شيء بالخزائن المودع فيها الأشياء ، ويخرج منها كل شيء على وفق حكمته.

﴿نُحْيِي وَنُمِيتُ الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ و ﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ بين كل طباق.

﴿خَزائِنُهُ﴾ و ﴿بِخازِنِينَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿بُرُوجاً﴾ البروج : القصور والمنازل ، وأصل البروج : الظهور ، يقال : تبرجت المرأة : إذا أظهرت زينتها ، والمراد هنا النجوم العظام ونجوم البروج الاثني عشر المعروفة أي منازل الشمس والقمر والكواكب السيّارة الأخرى ، وهي اثنا عشر برجا مختلفة الهيئات والخواص ، على ما دل عليه الرصد والتجربة ، مع بساطة السماء ، وأسماء هذه البروج : الحمل ، الثور ، الجوزاء ، والسّرطان ، والأسد ، والسّنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدّلو ، والحوت. والعرب تعدّ معرفة مواقع النجوم وأبوابها من أجلّ العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب.

وبرج المريخ : الحمل والعقرب ، والزّهرة : لها الثور والميزان ، وعطارد : له الجوزاء والسّنبلة ، والقمر : له السرطان ، والشمس لها : الأسد ، والمشتري له : القوس والحوت ، وزحل له : الجدي والدلو.

﴿وَزَيَّنَّاها﴾ أي السماء بالكواكب ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ المفكرين المعتبرين ، المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها ﴿وَحَفِظْناها﴾ منعناها بالشهب ﴿رَجِيمٍ﴾ مرجوم بالحجارة ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ﴾ لكن من أخذ الشيء خفية أو خطفة ، شبه خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى بالسرقة. واسترق السمع : تسمّعه بخفة وحذر ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ﴾ كوكب يضيء ويحرقه ، أو شعلة ساطعة

من النار. وأتبعه : لحقه. ﴿مَدَدْناها﴾ بسطناها بحسب مستوى الناظر وبالنسبة للناس القاطنين فيها ﴿رَواسِيَ﴾ جبالا ثوابت لئلا تتحرك بأهلها ﴿مَوْزُونٍ﴾ أي مقدّر بمقدار معين على وفق الحكمة والمصلحة.

﴿مَعايِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس ، جمع معيشة ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ﴾ عطف على معايش أو على محل ﴿لَكُمْ﴾ والمراد به العيال والخدم والمماليك. والقصد من الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين ، مختلفة الأجزاء في الوضع ، مشتملة على أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، على كمال قدرته ، وتناهي حكمته ، وتفرده بالألوهية ، والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه ، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره ، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحتاج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. والخزائن جمع خزانة ، وهي ما تحفظ فيه الأشياء النفيسة أو المهمة.

﴿وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي وما نسمح بإنزاله إلا بقدر معلوم حدّه ، لحكمة وعلى حسب المصالح ﴿لَواقِحَ﴾ حوامل للسحاب ، أو التراب ، أو للقاح الشجر ، كما في قوله : ﴿حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً﴾ [الأعراف ٧ / ٥٧] وفي قولهم : ناقة لاقح أي حامل ، شبه الريح التي جاءت بخير تحمل السحاب الماطر بالحامل ، كما شبّه ما لا يكون كذلك بالعقيم. ﴿مِنَ السَّماءِ﴾ السحاب ﴿السَّماءِ﴾ مطرا ﴿فَأَسْقَيْناكُمُوهُ﴾ أي جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، يقال للماء المعد لشرب الأرض أو الماشية وسقايتها به : أسقيته ، وإذا سقاه ماء أو لبنا : سقيته ﴿وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ﴾ أي ليست خزائنه بأيديكم ﴿الْوارِثُونَ﴾ الباقون ، نرث جميع الخلق ﴿الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ من ماتوا من ذرية آدم ﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ الأحياء الذين تأخروا إلى يوم القيامة ، أي بقوا أحياء ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ يجمعهم لا محالة للجزاء وتوسيط الضمير ﴿هُوَ﴾ للدلالة على أنه القادر المتولي لحشرهم لا غير ، وتصدير الجملة بإن لتحقيق الوعد والتنبيه على صحة الحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمة في صنعه متقن الأفعال ﴿عَلِيمٌ﴾ وسع علمه كل شيء.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى كفر الكافرين وعجز أصنامهم ، ذكر كمال قدرته ، وأدلة وحدانيته السماوية والأرضية ، ففي السماء : البروج ، والكواكب الساطعة ، وفي الأرض الممدودة : الجبال الراسيات ، والنباتات المقدرة بمقادير معلومة موزونة بميزان الحكمة والعلم ، المشتملة على معايش الإنسان والحيوان ، كما

قال تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ، وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ ، فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٢٠ . ٢٣].

والدلائل الأرضية سبعة : بسط الأرض ، الجبال الثوابت ، إنبات النباتات ، الإمداد بالأرزاق من الخزائن ، إرسال الرياح لواقح ، الإحياء والإماتة للحيوانات ، خلق الإنسان.

التفسير والبيان :

ووالله لقد أوجدنا في السماء نجوما عظاما من الكواكب الثوابت والسيارات ، وزيناها لمن تأمل النظر فيها وكرره ، فيما يرى من العجائب الظاهرة ، والآيات الباهرة ، التي يحار الناظر فيها ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ﴾ [الصافات ٣٧ / ٦] وقوله تعالى : ﴿تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٦١].

وقال جماعة : البروج : هي منازل الشمس والقمر.

﴿وَحَفِظْناها ..﴾ أي ومنعنا الاقتراب من السماء كل شيطان رجيم ، كما قال في آية أخرى : ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ﴾ [الصافات ٣٧ / ٧] والرجيم : المرجوم ، أي المقذوف بالشهب ، أو المرمي بالقول القبيح ، أو الملعون المطرود.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ ..﴾ استثناء منقطع ، أي لكن من استرق السمع ، أو أراد استراق شيء من علم الغيب الذي يتحدث به الملائكة ، لحقه وأتبعه بشهاب مبين ، أي بجزء منفصل من الكوكب ، وهو نار مشتعلة ، فأحرقه. والشهاب : شعلة نار ساطع ، ويسمى الكوكب شهابا ، كما قال في آية أخرى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ

﴿مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً﴾ [الجن ٧٢ / ٩] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ ، وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ﴾ [الملك ٦٧ / ٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانت الشياطين لا تحجب عن السموات ، فكانوا يدخلونها ، ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة ، فيلقونها إلى الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه السلام ، منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد رسول الله ﷺ منعوا من السموات كلها ، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع ، رمي بشهاب [1].

والصحيح أن الشهاب يقتل الشياطين قبل إلقائهم الخبر ، فلا تصل أخبار السماء إلى الأرض أبدا إلا بواسطة الأنبياء وملائكة الوحي. ولذلك انقطعت الكهانة ببعثة النبي ﷺ.

ثم أردف الله تعالى بيان الدلائل الأرضية بعد الدلائل السماوية على وحدانيته فقال : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْناها ...﴾ أي وجعلنا الأرض ممدودة الطول والعرض ، ممهدة للانتفاع بها ، في مرأى العين ، وبالنسبة للإنسان الذي يعيش على سطحها ، كما قال تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ﴾ [الذاريات ٥١ / ٤٨] فلا يعني ذلك نفي كروية الأرض ؛ لأن أجزاء الكرة العظيمة تظهر كالسطح المستوي لمن يقف على جزء منها. وهذا دليل واضح على كمال قدرة الله تعالى وعظمته ؛ لأن الإنسان المنتفع بها يراها منبسطة رغم تكويرها ، ثابتة رغم تحركها.

﴿وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ﴾ أي وجعلنا فيها جبالا ثوابت كيلا تضطرب بالإنسان ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ١٦٩ ، الكشاف : ٢ / ١٨٨

﴿بِكُمْ﴾ [النحل ١٦ / ١٥] فدلت الآيات على خلق الله الأرض وبسطها وتوسيعها وجعل الجبال الراسيات والأودية والرمال فيها.

﴿وَأَنْبَتْنا فِيها ..﴾ أي وأنبتنا في الأرض من الزرع والثمار المتناسبة ، المقدرة بميزان معلوم ، وحكمة ومصلحة ، ومقدار معين ، فكل نبات وزنت عناصره ، وقدرت بما يحتاجه. فقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي مقدر بقدر معلوم ، موزون بميزان الحكمة أي على وفق الحكمة والمصلحة ، كما قال سبحانه : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ [الرعد ١٣ / ٨].

﴿وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ ..﴾ أي وأعددنا لكم في الأرض أسباب المعيشة والحياة الملائمة من غذاء ودواء ، ولباس وماء ، ونحوها. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ﴾ أي وجعلنا لكم فيها أيضا الخدم والمماليك والدواب والأنعام التي لستم أنتم لها رازقون ، وهذا يعني أن الله يرزقكم وإياهم.

والمقصود من الآيات أنه تعالى يمتن على الناس بما يسّر لهم في الأرض من أسباب المكاسب والمعيشة ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والخدم الذين يستخدمونهم ، وقد تكفل الله الخالق برزقهم ، فرزقهم على خالقهم ، لا عليهم ، فلهم المنفعة ، وعلى الله التسخير والرزق.

ثم أخبر الله تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل يسير عليه ، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الأصناف ، من نبات ومعادن ومخلوقات لا حصر لها ، فقال : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ ..﴾ أي وما من شيء في هذا الكون ينتفع به الناس إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به ، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم ، نعلم أنه مصلحة له ، فذكر الخزائن أراد به التمثيل لا الحقيقة وهو اقتداره على كل مقدور.

ثم أوضح تعالى أسباب حصول النعم ، فقال : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ ..﴾

أي وأرسلنا الرياح الخيرة تحمل السحب المشبعة بالرطوبة لإنزال الأمطار ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ ، فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٧].

وكذلك جعلنا الرياح واسطة لتلقيح الأشجار ، بنقل طلع الذكور ولقاحها إلى الإناث ، ليتكون الثمر.

كما أننا جعلنا الرياح وسائل إزالة الغبار عن الأشجار ، لينفذ الغذاء إلى مسامّها. قال ابن عباس : الرياح لواقح للشجر وللسحاب.

﴿فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً ..﴾ أي فأنزلنا من السحاب مطرا ، فأسقيناكموه أي يمكنكم أن تشربوا منه ، وأسقينا به زرعكم ومواشيكم ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٣٠] وقال سبحانه : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ، أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٦٨ . ٧٠] وقال : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ ، وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل ١٦ / ١٠].

﴿وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ﴾ أي لستم له بحافظين ، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله ينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أبقاه لكم في طول السنة ، لشرب الناس والزروع والثمار والحيوان ، فالتخزين يكون في السحاب وفي جوف الأرض.

ثم أخبر الله تعالى عن قدرته على بدء الخلق وإعادته فقال : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ..﴾ أي ونحن نحيي الخلق من العدم ، ثم نميتهم ، ثم نبعثهم كلهم ليوم الجمع ، ونحن نرث الأرض ومن عليها ، وإلينا يرجعون : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص ٢٨ / ٨٨].

ثم أنبأنا الله تعالى عن تمام علمه بالمخلوقات أولهم وآخرهم ، فقال : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ..﴾ أي والله لقد علمنا كل من تقدم وهلك من لدن آدم عليه السلام ، ومن هو حي ، ومن سيأتي إلى يوم القيامة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ..﴾ أي وإن ربك هو الذي يجمعهم جميعا ، الأولين والآخرين ، من أطاع ومن عصى ، ويجازي كل نفس بما كسبت ، إنه تعالى حكيم باهر الحكمة في صنعه ، متقن الأفعال ، واسع العلم ، وسع علمه كل شيء ، فهو يفعل بمقتضى الحكمة والعلم الشامل.

فقه الحياة أو الأحكام :

ذكرت الآيات دلائل التوحيد السماوية منها والأرضية ، وبدأ بذكر الأدلة السماوية ، وأردفها بالأدلة الأرضية ، وهي ما يأتي :

١ ـ خلق النجوم العظام والكواكب الثابتة والسيارة ، وخلق بروج ومنازل لها ، وهي اثنا عشر برجا ، معروفة في علم الفلك ، قدمت ذكرها في بيان المفردات.

٢ ـ حفظ السماء من مقاربة الشيطان الرجيم أي المرجوم ، والرجم : الرمي بالحجارة أو باللسان سبا وشتما ، وهو أيضا : اللعن والطرد. قال الكسائي : كل رجيم في القرآن فهو بمعنى الشتم.

ومن حاول اختطاف شيء من علم الغيب ، قذف بجزء منفصل من الكوكب ، مشتعل النار ، فأحرقه وقتله ، قبل إلقاء ما استرقه من السمع إلى غيره.

٣ ـ الأرض مخلوقة ممهدة منبسطة تتناسب مع إمكان الحياة البشرية عليها ، وهي مثبّتة بالجبال الرواسي لئلا تتحرك بأهلها ، وفيها من النباتات المختلفة ذات المقادير المعلومة ، على وفق الحكمة والمصلحة ، وفيها أيضا أصناف المعايش من

مطاعم ومشارب يعيش الناس وغيرهم بها ، وفيها كذلك الدواب والأنعام ذات المنافع المتعددة ، والله هو الذي يرزقها.

٤ ـ الله مالك كل شيء ، يوجده ويكوّنه وينعم به على حسب مشيئته بمقدار معلوم بحسب حاجة الخلق إليه ، فما من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا وعند الله خزائنه ، كالمطر المنزل من السماء ، والذي به نبات كل شيء ، ولكن لا ينزله إلا بمقتضى مشيئته وعلى قدر الحاجة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ﴾ [الشورى ٤٢ / ٢٧].

٥ ـ هيأ الله في الكون أسبابا للرزق والإيجاد ، منها أنه جعل الرياح لواقح للسحاب والأشجار ، فأنزل بها الأمطار لشرب الناس وسقاية الزروع والثمار والأشجار والدواب ، وهو تعالى يخزنها في السحاب وجوف الأرض ، وهو سبحانه المحيي والمميت ووارث الكون ، فلا يبقى فيه أحد.

٦ ـ الله تعالى عالم بجميع المخلوقات المتقدمة والمتأخرة إلى يوم القيامة ، وإنه تعالى سيحشر الناس جميعا للحساب والجزاء.

واستنبط الفقهاء من آية ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ حكمين فقهيين :

الأول ـ فضل أول الوقت في الصلاة ، وفضل الصف الأول في صلاة الجماعة ، قال النبيﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة : «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه ، لاستهموا». وفي الصف الأول مجاورة الإمام ، لكن مجاورة الإمام لا تكون لكل أحد ، وإنما هي لكبار العقول ، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم وأصحاب السنن الأربع عن أبي مسعود : «ليليني منكم أولو الأحلام والنّهى» وهذا حق ثابت لهم بأمر صاحب الشرع.

الثاني ـ فضل الصف الأول في القتال ، لأن المتقدم باع نفسه لله تعالى ، ولم

يكن أحد يتقدم الحرب بين يدي رسول الله ﷺ ؛ لأنه كان أشجع الناس. قال البراء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتقي به ، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به ، يعني النبي ﷺ.

بدء خلق الإنسان وأمر الملائكة بالسجود له وإباء إبليس

وعداؤه البشر

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)﴾

الإعراب :

﴿وَالْجَانَ﴾ منصوب بفعل مقدر ، تقديره : وخلقنا الجانّ خلقناه ، وقدّر الفعل الناصب ليعطف جملة فعلية على جملة فعلية ، هي قوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾.

﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ توكيد للمعرفة بعد توكيد ، وذهب بعض النحويين إلى أن ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أفاد معنى الاجتماع ، أي سجدوا كلهم مجتمعين ، لا متفرقين ، إلا أنه يلزمه على هذا أن ينصبه على الحال.

﴿ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ ما﴾ مبتدأ ، و ﴿لَكَ﴾ خبره ، وتقديره : أي شيء كائن لك ألا تكون ، أي في ألا تكون ، فحذفت (في) وهي متعلقة بالخبر ، فانتصب موضع (أن).

﴿لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مِنْهُمْ﴾ متعلق بالظرف الذي هو ﴿لِكُلِ﴾ ، مثل قولهم : كلّ يوم لك درهم ، فإن كل يوم منصوب ب (لك). و ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ مرفوع بالظرف الذي هو ﴿لِكُلِّ بابٍ﴾ ؛ لأن قوله ﴿لِكُلِّ بابٍ﴾ وصف لقوله : ﴿أَبْوابٍ﴾ أي لها سبعة أبواب ، كائن لكل باب منها جزء مقسوم منهم ، أي من الداخلين ، فحذف منها العائد إلى ﴿أَبْوابٍ﴾ التي هي الموصوف ، وحذف العائد من الصفة إلى الموصوف جائز في كلامهم ، كما في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ ..﴾ [البقرة ٢ / ٤٨ ، ١٢٣] أي ما تجزي فيه.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ آدم أو الجنس ﴿مِنْ صَلْصالٍ﴾ طين يابس ، يسمع له صلصلة ، أي صوت ، إذا نقر. فإذا طبخ فهو فخّار ﴿حَمَإٍ﴾ طين أسود ، أي تغيّر واسود من مجاورة الماء له ﴿مَسْنُونٍ﴾ متغير الرائحة ، والتقدير : أي كائن من حمأ مسنون ﴿وَالْجَانَ﴾ أبا الجن وهو إبليس ، أو هذا الجنس ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل خلق آدم ﴿مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾ هي نار شديدة الحرارة ، لا دخان لها ، تنفذ من المسام وتقتل.

﴿وَإِذْ قالَ ..﴾ واذكر حين قال ﴿بَشَراً﴾ إنسانا ، وسمي بذلك لظهور بشرته أي ظاهر جلده ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح فيه ﴿وَنَفَخْتُ﴾ أجريت من الفم أو غيره ، والمراد : إضافة عنصر الحياة في المادة القابلة لها. ﴿مِنْ رُوحِي﴾ أي فصار حيا ، وإضافة الروح إلى

الله تشريف لآدم ﴿فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ أي فاسقطوا له ساجدين سجود تحية بالانحناء. ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فيه تأكيدان للمبالغة في التعميم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن ، الذي كان بين الملائكة ﴿أَبى﴾ امتنع من أن يسجد له ، والاستثناء إما منقطع متصل بقوله : ﴿أَبى﴾ أي لكن إبليس أبى ، وإما متصل على أنه استئناف ، على أنه جواب سائل قال : هلا سجد.

﴿قالَ﴾ تعالى ﴿يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ ..﴾ أي ما منعك ، أو أي غرض لك في ألا تكون مع الساجدين ﴿قالَ : لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ لا ينبغي لي أن أسجد ، واللام لتأكيد النفي ، أي لا يصح مني ، وينافي حالي ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسماني كثيف ، وأنا ملك روحاني ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أي وهو أخسّ العناصر ، وأنا خلقتني من نار ، وهي أشرف العناصر.

﴿فَاخْرُجْ مِنْها﴾ أي من الجنة أو من السموات أو من زمرة الملائكة ﴿رَجِيمٌ﴾ مطرود من الخير والكرامة ، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته ﴿اللَّعْنَةَ﴾ الطرد والإبعاد ﴿إِلى يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ أمهلني وأخرني ولا تمتني ﴿إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي يوم بعث الناس ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ المسمى فيه أجلك عند الله ، أو وقت انقراض الناس كلهم ، وهو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق ، كما روي عن ابن عباس. ويجوز أن يراد بالأيام الثلاثة : يوم القيامة ، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات كما قال البيضاوي ، فهو يوم الجزاء ، ويوم البعث ، واليوم المعلوم وقوعه عند الله ، والمؤكد حدوثه في علم الناس.

﴿بِما أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بإغوائك لي ، والإغواء : الإضلال ، والباء للقسم ، وما : مصدرية ، وجواب القسم : ﴿لَأُزَيِّنَنَ﴾ والمعنى : أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ أي المؤمنين الذين استخلصهم الله لطاعته وطهرهم من الشوائب ، وقرئ بكسر اللام ، أي الذين أخلصوا لك العبادة من الرياء أو الفساد.

﴿هذا صِراطٌ عَلَيَّ ..﴾ أي هذا حق علي أن أراعيه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ أي لا انحراف فيه ، ولا عدول عنه إلى غيره. والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء : وهو تخلص المخلصين من إغوائه ، أو الإخلاص.

﴿إِنَّ عِبادِي﴾ المؤمنين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ..﴾ تصديق لإبليس فيما استثناه ، والمراد بيان نجاتهم من تأثير الشيطان عليهم. والسلطان : التسلط بالإغواء ﴿الْغاوِينَ﴾ الكافرين ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لموعد الغاوين أو المتبعين ، و ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير ، أو حال ، والعامل فيها : الموعد إن جعل مصدرا على تقدير مضاف ، أما إن جعل اسم مكان فإنه لا يعمل ﴿سَبْعَةُ أَبْوابٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم ، أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة ، وهي جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية. ولعل تخصيص العدد

ليشمل جميع المهلكات ، أو لأن أهلها سبع فرق ﴿لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ﴾ من الأتباع ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ نصيب أو فريق معين مفرز له.

المناسبة :

هذا هو النوع السابع من دلائل وجود الله وقدرته وتوحيده ، فإنه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة ، أردفه بالاستدلال بتخليق الإنسان على هذا المطلوب نفسه.

والدليل هو أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة أنه يمتنع وجود حوادث لا أول لها ، فيجب انتهاء الحوادث إلى حادث أول ، فلا بد من انتهاء الناس إلى إنسان هو أول الناس ، وذلك الإنسان الأول غير مخلوق من الأبوين ، فيكون مخلوقا لا محالة بقدرة الله تعالى.

وبعد أن ذكر الله تعالى خلق الإنسان الأول ، ذكر مقاله للملائكة والجن بشأنه.

التفسير والبيان :

ولقد خلق الله الإنسان الأول آدم أبا البشر من طين أو تراب يابس ، فالحمأ : هو الطين ، والمسنون : الأملس ، والصلصال : التراب اليابس ، وقيل : إنه المنتن المتغير الرائحة في الأصل. وقد بدأ الخلق أولا من تراب ، ثم من طين ، ثم من صلصال ، ليكون أدل على القدرة الإلهية.

وخلقنا جنس الجن من نار السموم ، أي نار الريح الحارة التي لها لفح وتقتل من أصابته. قال ابن مسعود : هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق منها الجانّ ، ثم قرأ : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾ وورد عن عائشة في صحيح مسلم ، وأحمد : «خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم».

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ﴾ [الرحمن ٥٥ / ١٤ ـ ١٥].

وفي هذا إشارة إلى برودة طبع الإنسان ، وحرارة طبيعة الجن. وفي الآية تنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره ، وطهارة محتده ، وذلك كله دليل على قدرة الله تعالى.

ثم أبان الله تعالى تشريفه لآدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له ، وتخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة ، حسدا وكفرا ، وعنادا واستكبارا ، وافتخارا بالباطل ، فقال : ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ ..﴾.

أي واذكر أيها الرسول لقومك حين أمرت الملائكة قبل خلق أبيكم آدم بالسجود له بعد اكتمال خلقه ، وإباء إبليس عدوه من بين سائر الملائكة السجود له ، قائلا : ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر ١٥ / ٣٣] متذرعا بقوله : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص ٣٨ / ٧٦] وقوله : ﴿أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَ﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٢].

وقد تضمن دفاع إبليس وسبب امتناعه عن السجود لآدم : بأنه خير منه ، فإنه خلق من النار ، وآدم من الطين ، وفي النار عنصر الارتفاع والسمو ، وفي التراب عنصر الخمود والركود ، فهي أشرف من الطين ، والأعلى لا يعظم الأدنى.

وذلك قياس فاسد ؛ لأن خيرية المادة لا تعني خيرية العنصر ، بدليل أن الملائكة من نور ، والنور خير من النار. ثم إنه عصيان أمر الخالق ، وجهل بأن آدم امتاز باستعداد علمي وعملي لتلقي التكاليف وتقدم الكون.

لذا عاقبة الله بقوله : ﴿قالَ : فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ...﴾ أي فاخرج

من المنزلة التي كنت فيها من الملأ الأعلى ، فإنك مرجوم ، أي لعين مطرود ، لعنة دائمة ملازمة له إلى يوم القيامة.

وإمعانا في الكيد لآدم وحسدا له ولذريته طلب الإمهال إلى يوم البعث من القبور ، وحشر الخلق لموقف الحساب ، فأرجأه الله إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق.

فلما تحقق إبليس الانتظار لذلك اليوم ﴿قالَ : رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي﴾ أي قال إبليس عاتيا متمردا : رب بسبب إغوائك وإضلالك إياي ، لأزينن في الأرض أي الدنيا لذرية آدم عليه السلام الأهواء ، وأحبّب إليهم المعاصي ، وأرغّبهم فيها ، إلا المخلصين الذين أخلصوا لك في الطاعة والعبادة. واستثنى المخلصين ؛ لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ، ولا يقبلون منه.

فهدده تعالى وتوعده بقوله : ﴿قالَ : هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الطريق في العبودية أو الإخلاص طريق مستقيم ، مرجعه إلي ، فأجازي كل واحد بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾ [الفجر ٨٩ / ١٤]. فقوله : ﴿هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الإخلاص طريق علي وإلي ، يؤدي إلى كرامتي وثوابي ، أو هذا الطريق في العبودية طريق علي مستقيم ، أو هذا طريق عليّ تقريره وتأكيده ، وهو مستقيم : حق وصدق. ومؤدى الكلام : ألا مهرب لأحد مني ، كما يقال لمن يتوعده ويتهدده : طريقك علي. وقوله : مستقيم أي لا عوج فيه ولا انحراف. وهو رد لما جاء في كلام إبليس : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ ، وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٦ - ١٧].

﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ..﴾ أي إن عبادي المؤمنين

المخلصين أو غير المخلصين ، أو الذين قدرت لهم الهداية ، لا سلطان لك على أحد منهم ، ولا سبيل لك عليهم ، ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ ..﴾ استثناء منقطع ، أي لكن الذين اتبعوك من الضالين المشركين باختيارهم ، فلك عليهم سلطان ، بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنهي ، والدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل ١٦ / ١٠٠].

ونظير الآية : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٩٩ . ١٠٠].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود ١١ / ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ ..﴾ أي لجهنم سبعة أبواب ، قد خصص لكل باب منها جزء مقسوم وعدد معلوم من أتباع إبليس ، يدخلونه ، لا محيد لهم عنه ، وكلّ يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بقدر عمله.

وفي تفسير الأبواب السبعة قولان :

قول : إنها سبع طبقات : بعضها فوق بعض ، وتسمى تلك الطبقات بالدركات ، بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء ٤ / ١٤٥] والسبب : أن مراتب الكفر مختلفة بالشدة والخفة ، فاختلفت مراتب العذاب.

وقول آخر : إنها سبعة أقسام ، ولكل قسم باب ، أولها كما ذكر ابن جريج : جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية. الأولى

كما ذكر الضحاك : للعصاة الموحدين ، والثانية : لليهود ، والثالثة : للنصارى ، والرابعة : للصابئين ، والخامسة : للمجوس ، والسادسة : للمشركين ، والسابعة : للمنافقين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أفادت الآيات ما يأتي :

١ ـ خلق الله آدم عليه السلام الإنسان الأول من طين يابس ، مما يدل على القدرة الإلهية.

وخلق الجانّ من قبل خلق آدم من نار جهنم أو من الريح الحارة التي تقتل ، أو من نار لا دخان لها. ورد في صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ، وينظر ما هو ، فلما رآه أجوف ، عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك» [(١)].

٢ ـ كرم الله الأصل الإنساني ، فأمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وتكريم ، لا سجود عبادة ، ولله أن يفضل من يريد ، ففضل الأنبياء على الملائكة ، وامتحنهم الله بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل.

٣ ـ سجد الملائكة له كلهم أجمعون إلا إبليس رفض وأبى ، وإبليس ليس من جملة الملائكة: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِ﴾ [الكهف ١٨ / ٥٠].

وهذا الاستثناء دليل للشافعي في جواز استثناء غير الجنس من الجنس ، مثل : لفلان علي دينار إلا ثوبا أو عشرة أثواب إلا رطل حنطة ، سواء المكيلات والموزونات والقيميات. وأجاز مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما استثناء المكيل

---

(١) أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات ، أو لا يملك دفع الوسواس عنه.

من الموزون ، والموزون من المكيل ، كاستثناء الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم ، ولم يجيزا استثناء القيميات من المكيلات أو الموزونات ، كالمثالين المذكورين في بيان مذهب الشافعي ، ويلزم المقرّ جميع المبلغ.

٤ ـ سئل إبليس عن سبب امتناعه من السجود ، فأجاب بأنه مخلوق من عنصر وهو النار أشرف من التراب.

٥ ـ كان عقاب إبليس الطرد من السموات أو من جنة عدن أو من جملة الملائكة ، وملازمة اللعنة له إلى يوم القيامة.

٦ ـ سأل إبليس تأخير عذابه ، زيادة في بلائه ، كالآيس من السلامة ، وأراد الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده ، فأجله الله تعالى إلى الوقت المعلوم : وهو النفخة الأولى ، حين تموت الخلائق.

٧ ـ صمم إبليس على مدى الحياة إغواء بني آدم وإضلالهم عن طريق الهدى ، إلا المؤمنين سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين ، فلا سلطان له عليهم في أن يلقيهم في ذنب يمنعهم عفو الله ، وهم الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم.

٨ ـ قول الله : ﴿هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ على سبيل الوعيد والتهديد ، كقولك لمن تهدده : طريقك علي ، ومصيرك إلي ، ومعنى الكلام : هذا أي طريق العبودية طريق مرجعه إلي ، فأجازي كلا بعمله.

٩ ـ استثناء ﴿إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ و ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ دليل على جواز استثناء القليل من الكثير ، والكثير من القليل ، مثل : علي عشرة إلا درهما ، أو عشرة إلا تسعة. وقال ابن حنبل : لا يجوز أن يستثني إلا قدر النصف فما دونه ، وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح.

١٠ ـ إن جهنم موعد إبليس ومن اتبعه. ولجهنم سبعة أطباق ، طبق فوق طبق ، لكل طبقة حظ معلوم. وجهنم أعلى الدركات ، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ . والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

جزاء المتقين يوم القيامة

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (٤٨)﴾

الإعراب :

﴿إِخْواناً﴾ حال من ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أو من واو ﴿ادْخُلُوها﴾ أو من الضمير في ﴿آمِنِينَ﴾.
﴿عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ حال أيضا.

البلاغة :

﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي يقال لهم : ادخلوها.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جارية ﴿بِسَلامٍ﴾ أي سالمين من المخاوف والآفات ﴿آمِنِينَ﴾ من كل فزع ﴿غِلٍ﴾ حقد وحسد دفين في القلب ﴿سُرُرٍ﴾ جمع سرير ، وهو المجلس العالي عن الأرض ﴿مُتَقابِلِينَ﴾ لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم ﴿نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدا.

سبب النزول :

نزول الآية (٤٥):

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ : أخرج الثعلبي عن سلمان الفارسي أنه لما سمع قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فرّ ثلاثة أيام هاربا من الخوف ، لا يعقل ، فجيء به للنبي ﷺ ، فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فو الذي بعثك بالحق ، لقد قطّعت قلبي ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

نزول الآية (٤٧):

﴿وَنَزَعْنا ..﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر : ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ﴾ قيل : وأي غل؟ قال : غل الجاهلية ، إن بني تميم ، وبني عدي ، وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة ، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابّوا ، فأخذت أبا بكر الخاصرة ، فجعل علي يسخن يده ، فيكمد بها خاصرة أبي بكر ، فنزلت هذه الآية.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم ، أتبعه ببيان حال السعداء من أهل النعيم المقيم الذين لا سلطان لإبليس عليهم ، وهم المتقون.

التفسير والبيان :

إن المتقين الذين اتقوا عذاب الله ومعاصيه ، وأطاعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، فلم يتأثروا بسلطان إبليس ووساوسه ، هم في جنات أي بساتين ذات ثمار دائمة وظلال وارفة ، وتتفجر من حولهم عيون هي أنهار أربعة : من ماء ، ولبن ، وخمر غير مسكرة ، وعسل مصفى ، خاصة بهم أو عامة ، دون تنافس أو نزاع

عليها ، كما قال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ..﴾ [محمد ٤٧ / ١٥].

﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ يقال لهم : ادخلوها سالمين من الآفات ، مسلّما عليكم ، آمنين من كل خوف وفزع. ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ..﴾ ونزع الله كل ما في صدورهم في الدنيا من حقد وعداوة ، وضغينة وحسد ، حالة كونهم إخوانا متحابين متصافين ، جالسين على سرر متقابلين ، لا ينظر الواحد منهم إلا لوجه أخيه ، ولا ينظر إلى ظهره ، فهم في رفعة وكرامة.

والمراد : أن الله طهر قلوبهم من معكّرات الدنيا ، فلا تحاسد ، ولا تباغض ، ولا تدابر ، ولا غيبة ولا نميمة ، ولا تنازع ، وألقي فيها التوادّ والتحابّ والتصافي ؛ لأن خصائص المادة زالت بالموت في الدنيا.

جاء في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : «يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذّبوا ونقّوا ، أذن لهم في دخول الجنة».

وروى ابن جرير وابن المنذر عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال : دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه ، بعد ما فرغ من أصحاب الجمل ، فرحّب به وقال : إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله : ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً ، عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ فقال رجلان إلى ناحية البساط : الله أعدل من ذلك ، تقتلهم بالأمس ، وتكونون إخوانا؟! فقال علي رضي الله عنه : قوما أبعد أرض وأسحقها ، فمن هم إذن ، إن لم أكن أنا وطلحة؟.

﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ ...﴾ أي لا يصيبهم في تلك الجنات تعب ولا مشقة ولا أذى ، إذ لا حاجة لهم إلى السعي والكدح ، لتيسير كل ما يشتهون أمامهم دون جهد. جاء في الصحيحين : «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ، ولا نصب».

﴿وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾ أي وهم ماكثون فيها ، خالدون فيها أبدا ، لا يخرجون منها ولا يحوّلون عنها. جاء في الحديث الثابت : «يقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تصحّوا فلا تمرضوا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تقيموا فلا تطغوا أبدا». وقال الله تعالى : ﴿خالِدِينَ فِيها ، لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً﴾ [الكهف ١٨ / ١٠٨].

والخلاصة : إن مقومات النعيم والثواب والمنافع ثلاثة : الاقتران بالاطمئنان والاحترام ، وهو قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ والصفاء من شوائب الضرر والمعكرات الروحية كالحقد والحسد ، والجسمية كالإعياء والمشقة ، وهو قوله تعالى : ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ﴾ والدوام والخلود بلا زوال ، وهو قوله تعالى : ﴿وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾[1].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن جزاء المتقين الذين اتقوا الفواحش والشرك جنات أي بساتين وعيون هي الأنهار الأربعة : ماء وخمر ولبن وعسل. ويقال لهم : ادخلوها بسلامة من كل داء وآفة ، آمنين من الموت والعذاب ، والعزل والزوال ، فهم في احترام

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ١٩٣

وتعظيم. والقول الحق الصحيح وهو قول جمهور الصحابة والتابعين أن المراد بالمتقين : الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به. وقال المعتزلة : هم الذين اتقوا جميع المعاصي.

٢ ـ لا يتعرض أهل الجنة لشيء من الأضرار والمؤذيات ، فهم في خلوص من شوائبها الروحانية كالحقد وغيره ، والجسمانية كالتعب والمرض ، وهم في نعمة وكرامة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ، تواصلا وتحابا.

٣ ـ إن نعيم الجنة دائم لا يزول ، وإن أهلها باقون : ﴿وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها﴾ [الرعد ١٣ / ٣٥] ﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ﴾ [ص ٣٨ / ٥٤].

٤ ـ الجنات أربع والعيون أربع ، أما عدد الجنات فلقوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٤٦] ثم قال : ﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٦٢]. وأما العيون فهي أربعة أيضا وهي المذكورة في الآية المتقدمة : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ..﴾.

المغفرة والعذاب

﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾

البلاغة :

﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾ يوجد مقابلة بين العذاب والمغفرة ، وبين الرحمة والعذاب.

المفردات اللغوية :

﴿نَبِّئْ﴾ أخبر يا محمد. ﴿الْغَفُورُ﴾ للمؤمنين. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم. ﴿وَأَنَّ عَذابِي﴾ للعصاة. ﴿الْأَلِيمُ﴾ المؤلم.

قال البيضاوي : وفي ذكره المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها ، وفي توصيف ذاته بالمغفرة والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده.

سبب النزول :

أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال : مرّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون ، فقال : «أتضحكون ، وذكر الجنة والنار بين أيديكم ، فنزلت هذه الآية : ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾.

وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ، فقال : «لا أراكم تضحكون ، ثم أدبر ثم رجع القهقرى ، فقال : إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر ، جاء جبريل ، فقال : يا محمد ، إن الله يقول : لم تقنط عبادي : ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾». وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في قوله : ﴿نَبِّئْ عِبادِي﴾ الآية : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورّع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه».

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة ، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية ، فقال : ﴿نَبِّئْ عِبادِي﴾ وهو إخبار عن سنة الله في عباده

أنه غفار لذنوب التائبين المنيبين إلى ربهم ، ومعذّب بعذاب مؤلم من أصروا على المعاصي ولم يتوبوا منها.

التفسير والبيان :

أخبر يا محمد عبادي أني ذو مغفرة ورحمة ، وذو عذاب أليم. وهذا دال على مقامي الرجاء والخوف. فالله تعالى يستر ذنوب من تاب وأناب ، فلا يفضحهم ولا يعاقبهم ، ويرحمهم فلا يعذبهم بعد توبتهم. وهذا يشمل المؤمن الطائع والعاصي.

وأخبرهم أيضا بأن عذابي لمن أصرّ على الكفر والمعاصي ولم يتب منها هو العذاب المؤلم الشديد الوجع. وهذا تهديد وتحذير من اقتراف المعاصي.

ففي الآية كغيرها من الآيات الكثيرة جمع بين التبشير والتحذير ، والترغيب والترهيب ، ليكون الناس بين حالي الرجاء والخوف.

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن قتادة أنه قال في قوله تعالى : ﴿**نَبِّئْ عِبادِي**﴾ الآية : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «لو يعلم العبد قدر عفو الله ، لما تورّع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله ، لبخع نفسه».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذي عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار».

ورواية مسلم هي : «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ، ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنط من رحمته أحد».

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآية دليل على آخر على وسطية الإسلام ، فينبغي للإنسان أن يذكّر نفسه وغيره ، فيخوّف ويرجّي ، ويكون الخوف في حال الصحة أغلب عليه منه في حال المرض ، فهو في حال دائمة بين الخوف والرجاء ؛ لأن القنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوسطها.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء ، وهو كثير المغفرة لمن تاب وأناب ، ولكنه أيضا لتحقيق التوازن وقمع الفاحشة والمنكر والشرك شديد العذاب لمن أصرّ على معصيته ، ومات قبل التوبة والإنابة ، وذلك هو العدل المطلق.

وكل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفورا رحيما ، ومن أنكر ذلك ، كان مستوجبا للعقاب الأليم ؛ لأنه كما يقول الأصوليون : ترتيب الحكم على الوصف يشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم أو «تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق». فقد وصفهم بكونهم عبادا له ، ثم ذكر عقيب هذا الوصف : الحكم بكونه غفورا رحيما.

قال الرازي : وفي الآية لطائف :

إحداها ـ أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله : ﴿عِبادِي﴾ وهذا تشريف عظيم.

وثانيها ـ لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة هي : ﴿أَنِّي﴾ و ﴿أَنَا﴾ وإدخال الألف واللام على قوله : ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ولما ذكر العذاب لم يقل : إني أنا المعذب ، وما وصف نفسه بذلك ، بل قال : ﴿وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾.

وثالثها ـ أنه أمر رسوله بأن يبلغهم هذا المعنى ، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة.

ورابعها ـ أنه لما قال : ﴿نَبِّئْ عِبادِي﴾ كان معناه : نبئ كل من كان معترفا بعبوديتي ، وهذا يدخل فيه المؤمن المطيع والمؤمن العاصي. وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى [١].

قصة ضيف إبراهيم وإخبارهم بإهلاك قوم لوط

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (٥٥) قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ

---

(١) تفسير الفخر الرازي : ١٩ / ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٧٠) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾

الإعراب :

﴿فَبِمَ﴾ هي ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب ، أي فبأي أعجوبة تبشروني؟

﴿تُبَشِّرُونَ﴾ فتحت النون ؛ لأنها نون الجمع ، قياسا على فتحها في جمع الاسم ، نحو الزيدون ، كما كسرت النون بعد ضمير الفاعل إذا كان مثنى في نحو تفعلان قياسا على كسرها في تثنية الاسم ، نحو «الزيدان» حملا للفرع على الأصل. و ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ هنا فعل متعد ، والمفعول محذوف.

وقرئ : ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ بنون خفيفة مكسورة ، وأصله : تبشرونني ، فاجتمع حرفان متحركان من جنس واحد ، وهما نون الوقاية ونون الإعراب ، فحذف إحداهما تخفيفا ، وحذفت ياء الإضافة وبقيت الكسرة قبلها تدل عليها.

وقرئ ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ بنون مشددة مكسورة ، ولما استثقل اجتماع النونين المتحركتين ، سكّن النون الأولى ، وأدغمها في الثانية ، قياسا على كل حرفين متحركين من جنس واحد في كلمة واحدة. ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة قبلها تدل عليها.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ منصوب ؛ لأنه استثناء منقطع ؛ لأن (أتباع لوط) ليسوا من القوم المجرمين. و ﴿امْرَأَتَهُ﴾ منصوب على الاستثناء من آل لوط. وهذا الاستثناء يدل على أن الاستثناء من الإيجاب نفي ومن النفي إيجاب ؛ لأنه استثنى آل لوط من المجرمين ، فلم يدخلوا في الإهلاك ، ثم استثنى من آل لوط ﴿امْرَأَتَهُ﴾ فدخلت في الهلاك.

﴿إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ لما دخلت اللام علقت الفعل عن العمل ، مثل : ﴿قالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ [المنافقون ٦٣ / ١].

﴿أَنَّ دابِرَ ..﴾ منصوب على البدل من موضع ﴿ذلِكَ﴾ إن جعل الأمر عطف بيان ، أو بدل من ﴿الْأَمْرَ﴾ إن كان ﴿الْأَمْرَ﴾ بدلا من ﴿ذلِكَ﴾. و ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال من ﴿هؤُلاءِ﴾. وعامل الحال معنى الإضافة : ﴿دابِرَ هؤُلاءِ﴾ من المضامّة والممازجة.

﴿عَنِ الْعالَمِينَ﴾ أي عن ضيافة العالمين ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ﴾ مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي لعمرك قسمي.

البلاغة :

﴿قَدَّرْنا إِنَّا لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ أسند فعل التقدير إلى الملائكة مجازا وهو لله وحده ، لما لهم من القرب.

﴿أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ كناية عن عذاب الاستئصال.

﴿عالِيَها سافِلَها﴾ بينهما طباق.

﴿الْقانِطِينَ الْغابِرِينَ أَجْمَعِينَ مُصْبِحِينَ مُشْرِقِينَ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ فيها سجع ، وكذا في ﴿الضَّالُّونَ الْمُرْسَلُونَ لَصادِقُونَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أخبرهم وهو معطوف على ما سبق وهو : ﴿نَبِّئْ عِبادِي﴾ وفي العطف تحقيق لهما ﴿ضَيْفِ إِبْراهِيمَ﴾ هم ملائكة اثنا عشر أو عشرة أو ثلاثة ، منهم جبريل ، بشروه بالولد ، وبهلاك قوم لوط. وكلمة ضيف تستعمل بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع والمؤنث والمذكر. ﴿فَقالُوا : سَلاماً﴾ أي نسلم عليك سلاما ، أو سلمنا سلاما. ﴿وَجِلُونَ﴾ خائفون فزعون. ﴿لا تَوْجَلْ﴾ لا تخف. ﴿إِنَّا﴾ رسل ربك. ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل. ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ أي ذي علم كثير إذا بلغ ، هو إسحاق ، لقوله تعالى : ﴿فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ﴾ [هود ١١ / ٧١].

﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد. ﴿عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ حال ، أي مع مسّه إياي. ﴿فَبِمَ﴾ فبأي شيء. ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجب. ﴿بِالْحَقِ﴾ أي بالأمر المحقق الذي لا شك فيه ، أي بالصدق أو باليقين. ﴿الْقانِطِينَ﴾ الآيسين من الولد للكبر. ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ أي لا يقنط. ﴿الضَّالُّونَ﴾ الكافرون الذي لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، أو البعيدون عن الحق. ﴿فَما خَطْبُكُمْ﴾ ما شأنكم وحالكم؟ والخطب : الأمر الخطير. ﴿مُجْرِمِينَ﴾ كافرين ، هم قوم لوط ، وأرسلنا لإهلاكهم. ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ لمخلّصوهم مما هم فيه ؛ لإيمانهم. ﴿قَدَّرْنا﴾ قضينا وكتبنا ، والتقدير :

جعل الشيء على مقدار معين ، وأسند الملائكة التقدير لأنفسهم مع أنه هو فعل الله تعالى ، لما لهم من القرب والاختصاص به.

﴿الْغابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ، أي بقيت امرأته في العذاب لكفرها. ﴿فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ﴾ أي لوطا. ﴿قالَ﴾ لوط لهم. ﴿مُنْكَرُونَ﴾ أي لا أعرفكم. ﴿بِما كانُوا فِيهِ﴾ أي قومك. ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكّون ، وهو العذاب. ﴿لَصادِقُونَ﴾ في قولنا.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ اذهب بهم ليلا. ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ بجزء أو طائفة من الليل. ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ﴾ امش خلفهم أو على إثرهم. ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم ، أو يطلع على أحوالهم ، فيرى من الهول ما لا يطيقه ، أو فيصيبه ما أصابهم. ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله ، وهو الشام أو مصر ، ففيه تعدية الفعل : ﴿وَامْضُوا﴾ إلى حيث ، وتعدية : ﴿تُؤْمَرُونَ﴾ إلى ضميره المحذوف. ﴿وَقَضَيْنا إِلَيْهِ﴾ أوحينا إلى لوط. ﴿أَنَّ دابِرَ﴾ آخر. ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مهلك مستأصل. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال ، أي يتم استئصالهم في الصباح ، أي عند طلوع الصبح.

﴿وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ مدينة سدوم ، وهي مدينة قوم لوط ، أي جاء قوم لوط لما أخبروا أن في بيت لوط مردا حسانا وهم الملائكة. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حال ، طمعا في فعل الفاحشة بهم ، والاستبشار : إظهار السرور. ﴿فَلا تَفْضَحُونِ﴾ في ضيفي ، والفضيحة : إظهار ما يوجب العار ، فإن من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ في اقتراف الفاحشة. ﴿وَلا تُخْزُونِ﴾ ولا تذلون بسببهم ، والخزي : الذل والهوان أي لا تلحقوا بي ذلا بقصدكم إياهم ، بفعل الفاحشة بهم ، أو لا تخجلوني فيهم ، من الخزاية وهو الحياء.

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ أي عن إضافتهم أو إجارة أحد منهم ، أو لم نمنع بيننا وبينهم ، فإنهم كانوا يتعرضون لكل غريب ، وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعه. ﴿هؤُلاءِ بَناتِي﴾ يعني نساء القوم ، فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم ، أو هؤلاء بناتي فتزوجوهن. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ أي قضاء الوطر. ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يكون بفتح العين حال القسم ، وهو قسم من الله تعالى بحياة المخاطب وهو النبي ﷺ ، أي وحياتك ، والعمر : بفتح العين وضمها : الحياة. ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ غوايتهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون. ﴿الصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل ، وهي الصاعقة ، قال ابن جرير : وكل شيء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وقت شروق الشمس ، أي داخلين في وقت الشروق.

﴿عالِيَها﴾ أي قراهم. ﴿سافِلَها﴾ بأن رفعها جبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض ، فصارت منقلبة بهم. ﴿سِجِّيلٍ﴾ طين متحجر ، طبخ بالنار ، وهو لفظ معرّب. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَآياتٍ﴾ دلالات على وحدانية الله. ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للناظرين المتفكرين

المعتبرين. ﴿وَإِنَّهَا﴾ قرى قوم لوط. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ على طريق قومك قريش إلى الشام ، بنحو واضح لم تندرس آثارها ، يمر بها الناس ويرون آثارها ، أفلا يعتبرون بها. ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسله.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى دلائل التوحيد ، وأحوال القيامة ، وصفة الأشقياء والسعداء ، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومحذرا عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء. وكان ذكر هذه القصص تفصيلا للوعد والوعيد ، فبدأ أولا بقصة إبراهيم عليه السلام للبشارة بغلام عليم ، ثم ذكر إهلاك قوم لوط ، لاقترافهم جريمة فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين.

التفسير والبيان :

وأخبرهم يا محمد عن ضيوف إبراهيم المكرّمين ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، فقالوا حين دخلوا عليه : سلاما ، أي سلاما من الآفات والآلام والمخاوف. وكان إبراهيم عليه السلام يكنى : أبا الضيفان.

فقال إبراهيم للضيوف : إنا خائفون منكم ؛ لدخولهم عليه بلا إذن ، أو لما رأى أيديهم لا تمتد إلى ما قربه إليهم من الضيافة ، وهو العجل السمين الحنيذ (المشوي بالحجارة المحماة). وهذا يعني أنهم يبيتون شرا ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ ، نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود ١١ / ٧٠].

فأجابوه بقولهم : ﴿لا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ، وفي سورة هود : ﴿لا تَخَفْ ، إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [٧٠] فهذا تعليل النهي عن الوجل في تلك السورة ، وأما هنا فعللوا ذلك بقولهم : ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ أي أتينا لبشارتك بميلاد غلام ذي علم وفطنة وفهم لدين الله ؛ لأنه سيكون نبيا ، وهو إسحاق عليه

السلام ، كما تقدم في سورة هود [٧١] وفي سورة الصافات : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١١٢].

﴿قَالَ : أَبَشَّرْتُمُونِي ..﴾ أجاب إبراهيم متعجبا من مجيء ولد حال كبره وكبر زوجته ، ومتحققا من الوعد ، أبشرتموني بذلك بعد أن أصابني الكبر ، فبأي أعجوبة تبشروني ، أو إنكم تبشرونني بما هو غير متصور في العادة ، فبأي شيء تبشرون؟ يعني لا تبشرونني في الحقيقة بشيء ؛ لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء.

فأجابوه مؤكدين لما بشروه به : ﴿قَالُوا : بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ..﴾ أي قال ضيوف إبراهيم له : بشرناك بما هو حق ثابت ؛ إذ هو صنع الله ووعده الذي لا يتخلف ، فلا تكن من القانطين اليائسين ، فالذي أوجد الإنسان من التراب من غير أب وأم قادر على إيجاده من أي شيء ، كأبوين عجوزين ، أي أن إبراهيم استعظم نعمة الله عليه في وقت غير مألوف عادة ، لا أنه استبعد ما هو داخل في نطاق القدرة الإلهية.

فأجابهم ﴿قَالَ : وَمَنْ يَقْنَطُ ..﴾ أي أجاب إبراهيم الضيوف بأنه ليس يقنط ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك ، ولا ييأس من رحمة الله إلا الضالون : أي المخطئون طريق الصواب ، كما قال يعقوب : ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف ١٢ / ٨٧].

ثم بعد تأكد إبراهيم الخليل عليه السلام من هذه البشرى وعلمه أنهم ملائكة ، وذهاب الروع عنه ، سألهم عن أمرهم بسبب مجيئهم مختفين : ﴿قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ ..﴾ أي قال لهم : فما شأنكم وما الأمر الذي أرسلتم به غير البشرى أيها الملائكة المرسلون؟ كأنه فهم من قرائن الأحوال أن لهم مهمة أصلية غير البشرى ؛ لأن البشرى كما حدث لزكريا ومريم يكفيها واحد.

فأجابوه : ﴿قالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنا ..﴾ أي قالوا له : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين مشركين هم قوم لوط ، الذين يتعاطون المنكر ، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء ، لنهلكهم.

ثم أخبروه أنهم سينجّون آل لوط جميعهم من بينهم إلا امرأته التي كانت متواطئة مع قومها ، فإنها من الغابرين ، أي الباقين مع الكفرة الهالكين ، فإنا مخلصوهم أجمعين من ذلك العذاب : عذاب الاستئصال ، إلا امرأة لوط ، قضى الله عليها أن تكون مع المهلكين ، لإعانتهم على مقاصدهم الخبيثة.

وقد أضاف الملائكة التقدير في قولهم : ﴿قَدَّرْنا﴾ إلى أنفسهم ، مع أنه لله تعالى ، لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى ، كما يقول خاصة الملك : دبّرنا كذا وأمرنا بكذا ، والآمر هو الملك ، وليس هم.

ثم بدأت قصة الدمار والعذاب ومجيئهم إلى لوط عليه السلام ﴿فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ..﴾ أي لما انتهت مهمة الملائكة مع إبراهيم فبشروه بالولد ، وأخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين ، ذهبوا بعدئذ إلى لوط وآله في صورة شباب حسان الوجوه ، في بلدهم (سدوم) ولم يعرف لوط وقومه أنهم ملائكة الله ، كما لم يعرفهم إبراهيم بادئ ذي بدء ، فقال لهم لوط : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي إنكم قوم غير معروفين لدي ، تنكركم نفسي ، وأخاف أن تباغتوني بشر ، فمن أي الأقوام أنتم؟! كما جاء في آية أخرى : ﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً ، سِيءَ بِهِمْ ، وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ [هود ١١ / ٧٧]. وقيل : أنكر حالتهم ، وخاف عليهم من إساءة قومه ، لما رآهم شبانا مردا حسان الوجوه.

فأجابوه ﴿بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي قالت الملائكة له : جئناك بما يسرّك ، وهو عذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، ويكذبونك فيه قبل مجيئه.

ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم : ﴿وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِ﴾ أي بالأمر المحقق واليقين والأمر الثابت الذي لا شك فيه ، وهو عذاب قوم لوط ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ﴾ [الحجر ١٥ / ٨].

﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ وهذا تأكيد آخر ، أي وإنا لصادقون فيما أخبرناك به ، من هلاكهم ونجاتك مع أتباعك المؤمنين.

وإنما وصفوا مهمتهم بهذا الوصف ، ولم يصرحوا بعذابهم ، لإفادة تحقق عذابهم ، وإثبات صدقه عليه السلام فيما دعاهم إليه.

ثم جاءت مرحلة التنفيذ وبيان خطة النجاة للوط وأتباعه ، فقالوا له : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي فسر بأهلك بعد مضي جزء من الليل ، وأهله : ابنتاه فقط ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ﴾ أي وامش وراء أهلك ليكون أحفظ لهم.

﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم ، فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما أصابهم من العذاب والنكال ، حتى لا يرق قلبه لهم.

وأكدوا النهي بقوله : ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي سيروا بأمر ربكم غير ملتفتين إلى ما وراءكم ، إلى الشام ، كما قال ابن عباس ، أو حيث يوجهكم جبريل الذي أمرهم أن يمضوا إلى قرية معينة ، لم يعمل أهلها مثل عمل قوم لوط.

وأوحى الله إليه أن التنفيذ سريع الحصول فقال : ﴿وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي وأوحينا إليه أو تقدمنا إليه أن أمر هلاكهم مقضي قضاء مبرما ، وأن آخر هؤلاء وأولهم مستأصل وقت الصباح ، كقوله في الآية الأخرى : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود ١١ / ٨١]. فقوله : ﴿دابِرَ هؤُلاءِ﴾ يعني آخرهم ، أي يستأصلون عن آخرهم ، حتى لا يبقى منهم أحد.

ثم ذكر الله تعالى في ثنايا القصة ما عزم عليه قوم لوط من الإساءة لهؤلاء

الضيوف ، فقال : ﴿وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي جاء قوم لوط أهل سدوم ، حين علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، مستبشرين بهم فرحين ، أملا في ارتكاب الفاحشة معهم. وهذا جرم فظيع ، وأمر مستهجن ، ينافي الأعراف والأذواق السليمة من إكرام الغريب والإحسان إليه.

قيل : إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن ، اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط. وقيل : إن امرأة لوط أخبرتهم بذلك. وعلى أي حال قال القوم : نزل بلوط ثلاثة من المرد ، ما رأينا قط أصبح وجها ، ولا أحسن شكلا منهم ، فذهبوا إلى دار لوط.

فقال لهم لوط جملتين مؤثّرتين ، الأولى : ﴿إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ﴾ أي هؤلاء ضيوف ، فلا تفضحوني فيهم ، أي بارتكاب ما يؤدي إلى العار معهم ، والضيف يجب إكرامه ، فإذا قصدتموهم بالسوء ، كان ذلك إهانة لي.

والثانية مؤكدة للأولى : ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ﴾ أي وخافوا عذاب الله ، ولا تخزون أي ولا تذلوني بإذلال ضيفي ، ولا توقعوني في الخزي (أي الهوان) والعار ، بالإساءة لهم.

فأجابوه : و ﴿قالُوا : أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ أي ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة ، ونهيناك أن تضيف أحدا.

فأجابهم ﴿قالَ : هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ أي قال لوط لقومه مرشدا لهم : تزوجوا النساء اللاتي أباحهن الله لكم ، وتجنبوا إتيان الرجال ، إن كنتم فاعلين ما آمركم به ، منتهين إلى أمري. والمراد ببناته : نساء قومه ؛ لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم ، كما قال تعالى في حق نبينا ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦] وفي قراءة أبيّ: وهو أب لهم. وقيل : المراد بناته من صلبه ، أي التزوج بهن.

وهذا كله ، وهم غافلون عما يراد بهم ، ويحيط بهم من البلاء ، وما ذا يصبحهم من العذاب المستقر ، لهذا قال تعالى لمحمد ﷺ أو قالت الملائكة للوط : ﴿لَعَمْرُكَ ، إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي أقسم بحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا أيها الرسول . وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع . إنهم في غوايتهم يتحيرون ، فلا يلتفتون إلى نصيحتك ، ولا يميزون بين الخطأ والصواب. و ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ ضلالتهم ، و ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون أو يلعبون.

قال ابن عباس : ما خلق الله وما ذرأ ، وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره.

ثم أخبر الله تعالى عن نوع عذابهم فقال : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي فنزل فيهم صيحة جبريل عليه السلام : وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها ، فقوله ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس. وكان ابتداؤها من الصبح وانتهاؤها حين الشروق ، لذا قال أولا ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ثم قال هنا ﴿مُشْرِقِينَ﴾.

وأخذ الصيحة : قهرها لهم وتمكنها منهم ، وقد أدت بهم إلى رفع بلادهم إلى عنان السماء ، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم. والصيحة : صوت شديد مهلك من السماء.

وهذا ما تضمنه قوله تعالى : ﴿فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي جعلنا عالي المدينة وهو ما على وجه الأرض سافلها أي في أعماقها ، فانقلبت عليهم ، وأنزل تعالى عليهم حجارة من طين متحجر طبخ بالنار.

يظهر مما سبق أن الآية ذكرت أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب هي :

١ ـ الصيحة الهائلة المنكرة.

٢ ـ أنه جعل عاليها سافلها.

٣ ـ أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل.

ثم ذكر تعالى العبرة من تلك القصة ، فقال : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي إن في ذلك العذاب الواقع بقوم لوط لدلالات للمتأملين المتفرّسين ، الذين يتعظون بالأحداث ، ويتفهمون ما يكون لأهل الكفر والفواحش من عقاب أليم.

وبالمناسبة : روى البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير ، وابن أبي حاتم وأبو نعيم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ النبي ﷺ : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

ثم وجّه تعالى أنظار أهل مكة وأمثالهم إلى الاعتبار بما حدث فقال : ﴿وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي وإن مدينة سدوم التي أصابها هذا العذاب لبطريق واضح ، لا تخفى على المسافرين المارّين بها ، فآثارها ما تزال باقية إلى اليوم ، في الطريق من الحجاز إلى الشام ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٣٧ ـ ١٣٨]. فقوله : ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي بطريق واضح.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجاءنا لوطا وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله ، أي إن المنتفعين حقا من مغزى القصة هم المؤمنون الذين يدركون أن العذاب انتقام من الله لأنبيائه. أما غير المؤمنين بالله ، فينسبون الدمار للطبيعة والشؤون الأرضية.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت القصة إلى ما يأتي :

١ ـ تعليم أدب الضيف بالتحية والسلام حين القدوم على الآخرين.

٢ ـ وصف أحاسيس المضيف ومخاوفه حين تقديم الطعام لضيفه وامتناعهم عن الأكل.

٣ ـ كانت بشارة الملائكة لإبراهيم بولادة إسحاق سببا في طرد مخاوفه وإشعاره بالأمن والسلامة.

٤ ـ كان استفهام إبراهيم الخليل استفهام تعجب من مخالفة العادة ، وحصول الولد حال الشيخوخة التامة من الأبوين معا ، ولم يكن استفهامه استبعاد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر ؛ لأن إنكار قدرة الله تعالى حينئذ كفر.

٥ ـ أكد الملائكة البشارة ، وأنها حق ثابت لا خلف فيه ، وأن الولد لا بد منه ، ثم نهوه عن القنوط واليأس. ويلاحظ أن نهي الإنسان عن الشيء لا يدل على كون المنهي فاعلا للمنهي عنه ، كما في قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٤٨].

وقد نفى إبراهيم القنوط عن نفسه قائلا ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب. وهذا يعني أنه استبعد الولد لكبر سنه ، لا أنه قنط من رحمة الله تعالى.

٦ ـ لا خلاف في اللغة العربية في أن الاستثناء من النفي إثبات ، ومن الإثبات نفي ، فقوله تعالى : ﴿إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثنى آل لوط من القوم المجرمين ، فهم ناجون ، ثم استثنى امرأته من آل لوط ، فهي هالكة.

٧ ـ لم يعرف لوط وآله أن الضيوف ملائكة ، كما لم يكن إبراهيم قد عرفهم. وقيل : كانوا شبابا ، ورأى جمالا ، فخاف عليهم من فتنة قومه ، فهذا هو الإنكار في قوله ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

٨ ـ ليس محمودا إطالة المكث أو النظر إلى آثار القوم الذين دمرهم الله ، ويسن الإسراع حين المرور في تلك الديار ؛ لأنها أماكن غضب ولعنة.

٩ ـ نهى الله تعالى لوطا وأتباعه عن الالتفات أثناء نزول العذاب بقوم لوط ، حتى لا تأخذهم الشفقة عليهم ، وليجدّوا في السير ، ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح.

١٠ ـ كان تصميم قوم لوط على ارتكاب الفاحشة مع هؤلاء الضيوف دليلا ماديا آخر على فحشهم وكفرهم وضلالهم.

١١ ـ قول لوط عليه السلام : ﴿هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ سواء كنّ بناته الصلبيات أو نساء قومه : إرشاد إلى الشيء المباح غير الحرام ، أي فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام. ويكفر من فهم غير ذلك ؛ لأن الزنى حرام في كل الملل والأديان ، ولا يقره نبي قط ولو للضرورة.

١٢ ـ قوله تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ﴾ : قال القاضي عياض وابن العربي فيه : أجمع أهل التفسير في هذا : أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ ، تشريفا له ، وأن قومه من قريش في سكرتهم أي في ضلالتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى قوم لوط ، أنهم كانوا في سكرتهم يعمهون ، وأن الملائكة قالت له ﴿لَعَمْرُكَ ..﴾.

ويكره لدى كثير من العلماء أن يقول الإنسان : لعمري ؛ لأن معناه :

وحياتي ، فهو حلف بحياة نفسه ، وذلك من كلام ضعفة الرجال. وقال الإمام أحمد : من أقسم بالنبي ﷺ لزمته الكفارة.

١٣ ـ كان عقاب قوم لوط بالصيحة وقلب بلدهم عاليها سافلها ، وإمطار حجارة من سجيل أي طين متحجر مطبوخ بالنار عليهم.

١٤ ـ إن في هذه القصة لعبرة وعظة للمؤمنين الصادقين. والآثار المادية لديار قوم لوط في طريق الشام خير شاهد وأصدق دليل للمتعظين. هذا .. ولم يجز المالكية القضاء بالتوسم والتفرس ، فذلك دليل غير متيقن ، فلا يترتب عليه حكم.

قصة أصحاب الأيكة (قوم شعيب) وأصحاب الحجر (ثمود)

﴿وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٨١) وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦)﴾

الإعراب :

﴿وَإِنْ كانَ إِنْ﴾ هنا : مخففة من الثقيلة ، ومعنى إن ولام ﴿لَظالِمِينَ﴾ للتوكيد.

البلاغة :

﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿أَصْحابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة : الغيضة : وهي الشجر الكثير الملتف بعضه على بعض ، وهي بقرب مدين. ﴿لَظالِمِينَ﴾ بتكذيبهم شعيبا. ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ﴾ بأن أهلكناهم بشدة الحر. ﴿وَإِنَّهُما﴾ قرى قوم لوط والأيكة. ﴿لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾ أي لبطريق واضح. والإمام : ما يؤتم به ، سمي به الطريق ؛ لأنه يؤتم ويتّبع.

﴿أَصْحابُ الْحِجْرِ﴾ هم ثمود ، والحجر : واد بين المدينة والشام ، كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجرا ، ومنه حجر الكعبة. ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذب أصحاب الحجر صالحا ، وعبر بالجمع عن المفرد ؛ لأنه تكذيب لباقي الرسل ، لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد.

﴿آياتِنا﴾ هي الناقة التي فيها آيات كثيرة ، كعظم خلقها ، وكثرة لبنها ، وكثرة شربها ، أو المراد آيات الكتاب المنزل على نبيهم. ﴿مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكرون فيها. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح. ﴿أَغْنى﴾ دفع. ﴿عَنْهُمْ﴾ العذاب. ﴿ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة والحصون وجمع الأموال. ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ أي خلقا ملتبسا بالحق ، ملازما له ، لا يلائم استمرار الفساد ، ودوام الشرور ﴿لَآتِيَةٌ﴾ لا محالة ، فيجازي كل أحد بعمله. ﴿فَاصْفَحِ﴾ يا محمد عن قومك. ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أعرض عنهم إعراضا لا جزع فيه ، أو لا تعجل بالانتقام منهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. ﴿الْخَلَّاقُ﴾ لكل شيء ، خلقك وخلقهم ، وبيده أمرك وأمرهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم فهو حقيق بأن تكل إليه الأمر.

المناسبة :

هذه هي القصة الثالثة والرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، فأولها : قصة آدم وإبليس ، وثانيها : قصة إبراهيم ولوط ، وثالثها : هذه القصة . قصة أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، كانوا أصحاب غياض (أشجار متشابكة كثيرة) فكذبوا شعيبا ، فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة ، أي الصيحة وقت الصباح ، لشركهم بالله ، ونقصهم المكاييل والموازين.

ورابعها : قصة صالح مع قومه ، كان في الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها ، وظهور نتاجها عند خروجها ، وكثرة لبنها.

والهدف من إيراد هذه القصص كما بينا الترغيب في الطاعة الموجبة للفوز بالجنان ، والتحذير من المعصية المؤدية لعذاب النيران ، وتسلية النبي ﷺ بها عن تكذيب قومه له.

وأما مناسبة قوله تعالى : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ ..﴾ فهو أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار ، فكأنه قيل : الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم؟ فأجاب عنه بأني إنما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة ، فاذا تركوها وأعرضوا عنها ، وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير وجه الأرض منهم. أو أن المراد من هذه الآية تصبير الله تعالى محمدا عليه السلام على سفاهة قومه ، فإنه إذا عرف أن الأنبياء السابقين عاملتهم أممهم بمثل هذه المعاملات الفاسدة ، سهل عليه تحمل السفاهات من قومه.

التفسير والبيان :

أي إن أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب ظالمون ، بسبب شركهم بالله ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريبي الزمان من قوم لوط بعدهم ، ومجاورين لهم في المكان ، لذا لما أنذر شعيب قومه قال : ﴿وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود ١١ / ٨٩].

والأيكة : الشجر الملتف.

روى ابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إن مدين وأصحاب الأيكة أمّتان بعث الله إليهما شعيبا».

﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ ..﴾ أي فعاقبناهم جزاء كفرهم ومعاصيهم ، عاقبنا أهل الأيكة بيوم الظلة : وهو إصابتهم بحر شديد سبعة أيام ، لا ظل فيه ، ثم أرسلت عليهم سحابة ، فجلسوا تحتها ، فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم. وعاقبنا أهل مدين بالصيحة.

﴿وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾ أي وإن كلا من قرى قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة لبطريق واضح يسلكه الناس في سفرهم من الحجاز إلى الشام. والإمام : ما يؤتم به ، وجعل الطريق إماما لأنه يؤمّ ويتّبع حتى يصل إلى الموضع الذي يريده.

ثم ذكر تعالى قصة أصحاب الحجر وهم ثمود ، فقال : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ ..﴾ أي ولقد كذبت ثمود صالحا نبيهم عليه السلام ، ومن كذب رسولا فقد كذب بجميع المرسلين ، لاتفاق أصول دعوتهم في التوحيد وعبادة الله وأمهات الفضائل ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

﴿وَآتَيْناهُمْ آياتِنا ..﴾ أي وآتيناهم وأعطيناهم من الآيات والدلائل ما يدلهم على صدق نبوة صالح عليه السلام ، كالناقة التي أخرجها الله من صخرة صماء بدعاء صالح ، فأعرضوا عنها وعقروها ولم يعتبروا بها ، فكانت تسرح في بلادهم ، لها شرب يوم من نهر صغير ولهم شرب يوم آخر ، ولبنها كثير كان يكفي القبيلة.

﴿وَكانُوا يَنْحِتُونَ ..﴾ أي وكانت لهم بيوت نحتوها في الجبال وأصبحوا بها آمنين من الأعداء ، من غير خوف ، لقوة إحكامها ، وهي ما تزال مشاهدة بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ذاهب إلى تبوك ، فقنّع رأسه ، وأسرع دابته ، وقال لأصحابه ـ فيما رواه البخاري وغيره عن ابن عمر ـ : «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، خشية أن يصيبكم ما أصابهم».

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي لما عتوا وبغوا وعقروا الناقة ، أخذتهم صيحة الهلاك في وقت الصباح من اليوم الرابع من موعد العذاب ، كما قال تعالى : ﴿فَقَالَ : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود ١١ / ٦٥].

﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ ..﴾ أي فما نفعتهم تلك الأموال لما جاء أمر ربك ، وما دفعت عنهم ذلك العذاب ، ولم يستفيدوا من مكاسبهم وهي ما كانوا ينحتونه من البيوت في الجبال ، وما كانوا يستغلونه من الزروع والثمار ، التي ضنوا بمائها عن الناقة ، حتى عقروها ، لئلا تضيق عليهم في المياه ، بل أصبحوا هلكى جاثمين.

ولما أخبر الله تعالى عن إهلاك الكفار ، فكأن شخصا تساءل ، كيف يليق التعذيب والإهلاك بالرحيم الكريم؟ فأجاب تعالى عنه بقوله : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ..﴾ أي وما خلقنا هذه المخلوقات في السماء والأرض وما بينهما إلا بالحق ، أي بالعدل والحكمة ، لا ظلما ، ولا باطلا ولا عبثا ، ليكون الخلق مشتغلين بالعبادة والطاعة ، فإذا تركوها وأعرضوا عنها ، وجب في مقتضى العدل والحكمة إهلاكهم وتطهير الأرض منهم. وفي هذا إشارة إلى أن تعذيب المكذبين للنبي ﷺ في الآخرة هو حق وعدل وحكمة ومصلحة للبشر أنفسهم.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي وإن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، وفي هذا تهديد للعصاة ، وترغيب للطائعين.

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أي فأعرض يا محمد عن المشركين ، واحتمل ما تلقى منهم من أذى إعراضا جميلا بحلم وإغضاء ، وهذا مخالقة للناس بخلق حسن ، فهو غير منسوخ. والشائع أن هذا الصفح قبل الأمر بالقتال ، فهو منسوخ.

قال الرازي : كون الصفح منسوخا بآية السيف بعيد ؛ لأن المقصود من ذلك

أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح ، فكيف يصير منسوخا [١]؟!

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي إن ربك كثير الخلق ، خلق كل شيء ، واسع العلم ، عليم بكل شيء ، وهذا تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تبدد من الأجساد ، وتفرق في سائر أنحاء الأرض ، فالجميع صائرون إليه ، محاسبون بين يديه.

فقه الحياة أو الأحكام :

هاتان قصتان من قصص الأمم البائدة الظالمة المكذّبة لرسلها ، تهزّ أعماق البشر ، وتحرّك مشاعرهم ، وتوقظ ضرورة الصحوة والمبادرة إلى ساحة الإيمان وصلاح الأعمال.

فلقد كذب أصحاب الأيكة (قوم شعيب) رسولهم شعيبا ، مع أنهم كانوا يرفلون بالنعم والخيرات الكثيرة المغدقة ، فكانوا أصحاب غياض [٢] ورياض وشجر مثمر.

وظلت بحكمة الله تعالى آثار مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة ماثلة مشاهدة قائمة ، ليعتبر بهما من يمرّ عليهما.

وكذلك كذّب أصحاب الحجر (ديار ثمود بين المدينة وتبوك) نبيهم صالحا ، فلم يؤمنوا برسالته ، ومن كذب نبيا فقد كذب الأنبياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد في الأصول ، فلا يجوز التفريق بينهم.

وكان عقاب هؤلاء المكذبين وهو التدمير والإبادة والهلاك التام عبرة للمعتبرين ، ومثار تفكير وعظة للمتفكرين ، فما أغنت عنهم الأموال والحصون في

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ٢٠٦

(٢) الأيكة : الغيضة ، وهي جماعة الشجر ، والجمع : الأيك.

الجبال وقوة الأجسام. والله الخالق للسموات والأرض قادر على البعث والمعاد والقيامة لإقامة العدل بين الخلائق وحساب الناس أجمعين.

وقد استنبط العلماء من الآيات في ضوء السنة ما يأتي :

١ ـ كراهة دخول مواطن العذاب ، ومثلها دخول مقابر الكفار ، فإن دخل الإنسان إلى تلك المواضع والمقابر ، فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي ﷺ مما ذكر سابقا من الاعتبار والخوف والإسراع ، وقد قال رسول الله ﷺ : لا تدخلوا أرض بابل ، فإنها ملعونة.

وهناك روايات أخرى لحديث ابن عمر عند البخاري وهي : أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ، ولا يستقوا منها ، فقالوا : قد عجنّا واستقينا ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا الماء ، وأن يطرحوا ذلك العجين.

وفي لفظ آخر : أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر ـ أرض ثمود ، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ، ويعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تردها الناقة.

٢ ـ عدم جواز الانتفاع بماء السخط ، فرارا من سخط الله ؛ لأن النبي ﷺ أمر بإهراق ماء بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به ، وتقديمه علفا للإبل. وهذا ينطبق على الماء النجس وما يعجن به.

٣ ـ قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها. وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلفه النحل.

٤ ـ أمر رسول الله ﷺ بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل ، ولم يأمر بطرحه ،

كما أمر في لحوم الحمر الإنسية يوم خيبر ، فدل على أن لحم الحمير أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس.

٥ ـ يجوز للرجل حمل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها ؛ لأمره ﷺ بعلف الإبل العجين.

٦ ـ جواز التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم ؛ لأمره ﷺ أن يستقوا من بئر الناقة.

٧ ـ منع بعض العلماء الصلاة في موضع العذاب ، وقال : لا تجوز الصلاة فيها ؛ لأنها دار سخط ، وبقعة غضب. فلا يجوز التيمم بترابها ، ولا الوضوء من مائها ، ولا الصلاة فيها. وقد روى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن : في المزبلة ، والمجزرة ، والمقبرة ، وقارعة الطريق ، وفي الحمام ، وفي معاطن الإبل ، وفوق بيت الله».

وزاد المالكية : الدار المغصوبة ، والكنيسة والبيعة ، والبيت الذي فيه تماثيل ، والأرض المغصوبة ، أو موضعا تستقبل فيه نائما أو وجه إنسان ، أو جدارا عليه نجاسة.

لكن أجمع العلماء على جواز التيمم في الموضع الطاهر من مقبرة المشركين ، وجواز الصلاة في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر. وقال مالك : لا يصلى على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة.

والممنوع مما ذكر مستثنى من قوله ﷺ فيما رواه الشيخان والنسائي عن جابر : «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا».

٨ ـ لا يصلى في البستان (الحائط) الذي يلقى فيه النتن والعذرة لإصلاحه ، حتى يسقى ثلاث مرات ، لما رواه الدار قطني عن ابن عباس عن النبي

ﷺ في الحائط يلقى فيه العذرة والنتن ، قال : «إذا سقي ثلاث مرات فصلّ فيه».

أفضال الله تعالى على نبيه المصطفى ﷺ

﴿وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾

الإعراب :

﴿كَما أَنْزَلْنا ..﴾ الكاف متعلقة بقوله : ﴿آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ، أو متعلقة بقوله : ﴿أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ ، أي أنذركم من العذاب ﴿كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ وهم الذين اقتسموا طرق مكة وعقابها ، يمنعون الناس عن استماع كلام النبي ﷺ .

﴿عِضِينَ﴾ أي جعلوه أعضاء ، حين آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، و ﴿عِضِينَ﴾ جمع عضة.

﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ﴾ ما : إما اسم موصول بمعنى الذي ، و ﴿تُؤْمَرُ﴾ صلته ، وعائده محذوف

تقديره : فاصدع بالذي تؤمر به ، كما حذف من قوله تعالى : ﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٤١] أي بعثه الله ، ومثل : أمرتك الخير أي أمرتك بالخير ، وإما أن تكون «ما» مصدرية ، أي فاصدع بالأمر. ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ﴾ : صفة ، وقيل : مبتدأ ، ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره وهو ﴿فَسَوْفَ﴾.

البلاغة :

﴿سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ عطف عام وهو القرآن على خاص وهو الفاتحة.

﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه استعارة تبعية ، شبّه خفض الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقة في كل ، وأستعير اسم المشبّه به للمشبّه.

المفردات اللغوية :

﴿الْمَثانِي﴾ جمع مثنى ، من التثنية وهو التكرير والإعادة ، والسبع المثاني : هي الفاتحة ، كما قال ﷺ في حديث رواه الشيخان ؛ لأنها تثنى في كل ركعة ، وآياتها سبع ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك إلى ما عند غيرك من حطام الدنيا. ﴿أَزْواجاً﴾ أصنافا. ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ﴾ ألن جانبك ، والمراد به : التواضع واللين ، مأخوذ من خفض الطائر جناحه على فرخه : إذا غطاه وضمه إليه. ﴿النَّذِيرُ﴾ من عذاب الله أن ينزل عليكم و ﴿النَّذِيرُ﴾ المخوّف بعقاب الله من لم يؤمن به. ﴿الْمُبِينُ﴾ البيّن الإنذار ، أي أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَما أَنْزَلْنا﴾ العذاب. ﴿عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ هم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم ، لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر. وقيل : هم أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

﴿الْقُرْآنَ﴾ حيث قال المشركون عنادا : بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما ، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين. وإذا كان المراد أهل الكتاب فالقرآن : كتبهم المنزلة عليهم ، آمنوا ببعض كتبهم ، وكفروا ببعض ، فيكون ذلك تسلية للنبي ﷺ.

﴿عِضِينَ﴾ أجزاء ، جمع عضة بمعنى الكذب ، أي جعلوه مفترى ، أو آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سؤال توبيخ عن التقسيم أو النسبة إلى السحر ، فيجازيهم عليه ، أو هو عام في كل ما فعلوا من الكفر والمعاصي. فليس المقصود بالسؤال سؤال استخبار واستعلام ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ ، فيقول لهم : لم عصيتم

القرآن ، وما حجتكم فيه؟ هذا قول ابن عباس. وقال عكرمة : إن القيامة مواطن ، فمرة يكون هناك سؤال وكلام كما في هذه الآية ، ومرة لا يكون هناك سؤال وكلام ، كما في قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٣٩].

﴿فَاصْدَعْ﴾ يا محمد. ﴿بِما تُؤْمَرُ﴾ به أي اجهر وأمضه ، من صدع بالحجة : إذا تكلم بها جهارا. ﴿إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بك ، بإهلاكنا كلا منهم بآفة ، وهم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس ، والأسود بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يغوث. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين. ﴿وَلَقَدْ﴾ للتحقيق. ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي ينقبض حسرة وحزنا. ﴿بِما يَقُولُونَ﴾ من الاستهزاء والتكذيب. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قل : سبحانه وبحمده ، أي التسبيح مقترنا بالحمد. ﴿السَّاجِدِينَ﴾ المصلين. ﴿الْيَقِينُ﴾ الموت. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

سبب النزول :

نزول الآية (٩٥):

﴿إِنَّا كَفَيْناكَ﴾ : أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال : مر النبي ﷺ على أناس بمكة ، فجعلوا يغمزون في قفاه ، ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي ، ومعه جبريل ، فغمز جبريل بأصبعه ، فوقع مثل الظفر في أجسادهم ، فصارت قروحا حتى نتنوا ، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم ، فأنزل الله : ﴿إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

المناسبة :

لما صبّر الله تعالى محمدا على أذى قومه ، وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى محمدا ﷺ بها ؛ لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز.

التفسير والبيان :

وتالله لقد أعطيناك وأنزلنا عليك أيها الرسول السبع المثاني والقرآن العظيم ،

والسبع المثاني : هي سورة الفاتحة ، ذات الآيات السبع ، التي تثنى وتكرر في كل ركعات الصلاة ، والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها. روى البخاري حديثين في تفسير السبع المثاني ، الأول عن أبي سعيد بن المعلى ، والثاني عن أبي هريرة.

أما حديث أبي سعيد فقال : «مرّ بي النبي ﷺ ، وأنا أصلّي ، فدعاني ، فلم آته حتى صليت ، فأتيته فقال : ما منعك أن تأتيني؟ فقلت : كنت أصلي ، فقال : ألم يقل الله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ﴾ [الأنفال ٨ / ٢٤] ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج ، فذكّرته فقال : الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وأما حديث أبي هريرة فقال : قال رسول الله ﷺ : «أم القرآن : هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم».

وقيل : السبع المثاني : هي السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ؛ لتكرار القصص والأحكام والحدود وتثنيتها فيها.

وقيل : المراد بالسبع المثاني : جميع القرآن ، ويكون العطف من باب الترادف ، كما قال تعالى : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٣] فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه.

والراجح أن تفسير البخاري نص في أن الفاتحة : السبع المثاني. ولا مانع ـ كما قال ابن كثير ـ من وصف غيرها بذلك ، لما فيها من هذه الصفة ، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضا ، والآية نزلت في مسجد قباء ، فلا تنافي ، فإن

ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة [١].

ثم رتب تعالى على هذا العطاء العظيم قوله : ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ..﴾ أي لا تطمح أيها الرسول ـ والخطاب لأمته ـ إلى ما متعنا به الأغنياء من زينة الحياة الدنيا ، فمن وراء ذلك عقاب شديد ، واستغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. والمقصود : فاخر بما أوحي إليك ، وقدّر عظمة نعمته عليك ، ولا تنظر إلى الدنيا وزينتها ، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية ، لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم بما هم فيه ، ولا تتحسر عليهم في تكذيبهم لك ، ومخالفتهم دينك ، وإذا كنت في نعمة عظمي ، هانت أمامها بقية النعم وكانت حقيرة. وهذا دليل على أن القرآن ثروة كبري وخير وفلاح. ونظير الآية : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه ٢٠ / ١٣١].

قال أبو بكر ﷺ : من أوتي القرآن ، فرأى أن أحدا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي ، فقد صغّر عظيما ، وعظّم صغيرا.

﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ولا تتأسف على المشركين إذا لم يؤمنوا ، ليتقوى بهم الإسلام ، ويعتز بهم المسلمون. وقيل : المعنى : لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا ، فلك في الآخرة أفضل منه.

وبعد النهي عن الالتفات لأغنياء الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال : ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ألن جانبك وتواضع للمؤمنين ، ولا تجافهم ولا تقس عليهم ، كما قال تعالى : ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٥٧

﴿فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ..﴾ [آل عمران ٣ / ١٥٩].

ثم وجهه تعالى لوظيفته ، وهي الإنذار فقال : ﴿وَقُلْ : إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ ..﴾ أي وقل يا محمد للناس : إني منذر ومخوف من عذاب أليم ، بسبب التكذيب والتمادي في الغي ، كما حل بالأمم المتقدمة المكذبة لرسلها ، وما أحاط بهم من انتقام وعذاب.

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قومه ، فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنّجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا ، وكذّبه طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتّبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذّب ما جئت به من الحق».

﴿كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ هناك رأيان في تعلق قوله : ﴿كَما أَنْزَلْنا﴾[1].

أحدهما ـ أن يتعلق بقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْناكَ﴾ أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا التوراة والإنجيل على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من قبلك ، وهم المقتسمون الذين اقتسموا القرآن إلى أجزاء ، فآمنوا ببعضه الموافق للتوراة والإنجيل ، وكفروا ببعضه المخالف لهما ، فاقتسموه إلى حق وباطل. وهذا مروي عند البخاري وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس.

والثاني ـ أن يتعلق بقوله : ﴿وَقُلْ : إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي وأنذر

---

(١) الكشاف : ٢ / ١٩٥

قريشا بالعذاب مثل ما أنزلنا من العذاب على المتسمين . يعني اليهود . وهو ما جرى على قريظة والنضير ، فجعل المتوقع بمنزلة الواقع ، وهو من الإعجاز ؛ لأنه إخبار بما سيكون ، وقد كان.

فكل من هذين الرأيين جعل المقتسمين من أهل الكتاب ، والمقتسم هو القرآن. ويجوز أن يراد بالقرآن كتبهم التي يقرءونها ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، ويكون هذا من باب التسلية للنبي ﷺ حيث قال قومه عن القرآن ؛ إنه سحر ، أو شعر ، أو كهانة.

وهناك وجه ثالث مروي أيضا عن ابن عباس ، جعله الرازي هو القول الأول ، حيث قال ابن عباس : هم الذين اقتسموا طرق مكة ، يصدون الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ ، ويقرب عددهم من أربعين. وقال مقاتل بن سليمان : كانوا ستة عشر رجلا ، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها : لا تغتروا بالخارج منا ، والمدعي للنبوة ، فإنه مجنون ، وكانوا ينفرون الناس عنه ، بأنه ساحر ، أو كاهن. أو شاعر ، فأنزل الله تعالى بهم خزيا ، فماتوا شر ميتة ، والمعنى : أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين [١].

فالمقتسمون : هم القرشيون.

وبعد هذا الإنذار أقسم الله تعالى بذاته العلية على وقوع الحساب على الأعمال ، فقال : ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ..﴾ أي فو الله لنسألن جميع الكفار سؤال توبيخ وتأنيب لهم عن أقوالهم وأعمالهم ، وسنجازيهم عليها الجزاء الأوفى. فسر أبو العالية الآية فقال : يسأل العباد كلهم عن خلّتين يوم القيامة : عما كانوا يعبدون ، وعما ذا أجابوا المرسلين.

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ٢١١ وما بعدها.

وروى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معاذ ، إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألفينّك يوم القيامة ، وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك».

وإذا كانت هذه مهمتك أيها النبي وهو الإنذار وأن الحساب محقق ، فما عليك إلا الجهر بدعوتك ، فقد انتهت مرحلة الإسرار في الدعوة ، فقال : ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ ..﴾ أي فاجهر بتبليغ دعوتك للجميع ، وواجه بها المشركين ، ولا تأبه بهم ، فإن الله عاصمك وحافظك منهم ، وأعرض عن المشركين ، أي بلغ ما أنزل إليك من ربك ، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله.

﴿إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ هذا تأمين رباني وعصمة وصون ، أي إنا كفيناك شر المستهزئين بك ، المجاهدين في عداوتك ، الساخرين منك ومن القرآن ، وهم جماعة ذو وقوة وشوكة من المشركين ، وهم خمسة نفر : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والحارث بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث.

قال جبريل لرسول الله ﷺ : أمرت أن أكفيكهم ، فأومأ إلى عقب الوليد ، فتعلق بثوبه سهم ، فأبى تعظما نزعه ، فأصاب عرقا في عقبه فمات. وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل ، فمات بشوكة دخلت فيه ، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي ، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحا فمات ، وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث ، وهو قاعد في أصل شجرة ، فأصيب بداء ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات [1].

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ٢١٥ ، تفسير القرطبي : ١٠ / ٦٢ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٥٩

وكان هؤلاء المستهزئون مشركين ، لذا وصفهم الله بقوله : ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ أي الذين يتخذون إلها آخر مع الله ، فيشركون به من لا يضر ولا ينفع.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم ومآل شركهم ونتيجة كفرهم. وهذا تهديد ووعيد لهم بسوء المصير ، لعلهم يرتدعون ويؤمنون.

ثم سلّى الله نبيه عما يصيبه من أذى المشركين فقال : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ..﴾ أي وإنا لنعلم يا محمد أنك تتأذى من سخرية المشركين وشركهم ، ويحصل لك ضيق صدر وانقباض ، فلا يثنينك ذلك عن إبلاغ رسالة الله ، وتوكل عليه ، فإنه كافيك وناصرك عليهم ، والجأ إليه لإزالة الانقباض والجزع. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

أي فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ، وداوم على ذلك حتى يأتيك اليقين ، أي الموت ، وسمي الموت باليقين ؛ لأنه أمر متيقن ، والدليل لهذا التأويل : قوله تعالى حكاية عن أهل النار : ﴿قالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر ٧٤ / ٤٣ . ٤٧] أي الموت.

وهذا دليل على أن علاج ضيق الصدر هو التسبيح والتقديس والتحميد والإكثار من الصلاة ، وأن العبادة كالصلاة واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا ، فيصلي بحسب حاله ، كما

ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «صلّ قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب».

وهو دليل أيضا على تخطئة بعض الملاحدة القائلين بأن المراد باليقين : المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة ، سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا ـ كما

قال ابن كثير ـ كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد الناس ، وأكثرهم عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة.

وكان ﷺ إذا حزبه أمر ، واشتد عليه خطب ، فزع إلى الصلاة. روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : يا ابن آدم ، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار ، أكفك آخره».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ القرآن العظيم هو النعمة العظمى على النبي ﷺ وعلى المسلمين لا يقاس بها أي شيء آخر من مال أو ثروة أو غير ذلك.

٢ ـ الفاتحة سورة من القرآن خصصت بالذكر لفضلها ومزيتها ، لاشتمالها على أصول الإسلام ، بل هي أفضل سور القرآن لسببين :

الأول ـ إفرادها بالذكر مع كونها جزءا من القرآن ، مما يدل على مزيد الشرف والفضيلة.

الثاني ـ أنه تعالى لما أنزلها مرتين ، دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها. وإنها نزلت مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن ، ومرة بالمدينة.

٣ ـ لا يطمح بصر المؤمن إلى زخارف الدنيا ، وعنده معارف المولى عزوجل ، قال ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة : «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن» أي من لم يستغن به.

٤ ـ قال بعضهم : هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوّف إلى متاع الدنيا على

الدوام ، وإقبال العبد على مولاه. والحق أنه ليس في دين محمد الرهبانية ، والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية ، كما كان في دين عيسى ، وإنما الإسلام دين الحنيفية السمحة ودين الفطرة ودين الوسطية الذي يجمع بين الروح والمادة ، والاشتغال للحياتين معا الدنيا والآخرة ، واستيفاء حظوظ الجسد المباحة مع الرجوع إلى الله بقلب سليم.

٥ ـ على المؤمن أن يكون بعيدا من المشركين ، ولا يحزن إن لم يؤمنوا ، قريبا من المؤمنين ، متواضعا لهم ، محبا لهم ، ولو كانوا فقراء.

٦ ـ مهمة النبي ﷺ وكل مؤمن عالم بعده التبليغ لرسالة الله لجميع الخلق ، والإنذار بالعذاب من الكفر والعصيان. وقد كانت دعوة النبي ﷺ في بادئ الأمر سرّية ، ثم صارت جهرية بهذه الآية : ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٧ ـ العذاب مقرر على المقتسمين لكتاب الله ، بأن يؤمنوا ببعض ويكفروا بالبعض الآخر ، سواء أكانوا من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أم من مشركي قريش.

٨ ـ الآية : ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بعمومها تدل على سؤال الجميع من الناس ، كافرهم ومؤمنهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب. والظاهر أن الكافر يسأل ، لقوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ [الصّافّات ٣٧ / ٢٤] وقوله : ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ [الغاشية ٨٨ / ٢٥ ـ ٢٦].

وأما قوله تعالى : ﴿وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٧٨] وقوله : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٣٩] وقوله : ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ [البقرة ٢ / ١٧٤] وقوله : ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين ٨٣ / ١٥] فذلك في أحوال خاصة بيوم القيامة ؛ لأن للقيامة مواطن ،

فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه. قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها.

وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام ، هل عملتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ ، فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟[١].

٩ ـ تكفلت عناية الله ورعايته بصون النبي ﷺ وحمايته من أذى المشركين بقوله تعالى : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم ، فقد برأك الله عما يقولون.

قال بعضهم : هذا منسوخ بآية القتال ، قال الرازي : وهو ضعيف ؛ لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم ، فلا يكون منسوخا [٢].

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ..﴾ أي اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله ؛ فان الله كافيك من آذاك ، كما كفاك المستهزئين. وصفة المستهزئين : الشرك ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾.

١٠ ـ التسبيح والتحميد والصلاة علاج الهموم والأحزان ، وطريق الخروج من الأزمات والمآزق والكروب. وغاية القرب من الله تعالى حال السجود ، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة : «أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، فأخلصوا الدعاء»

لذا خص السجود هنا بالذكر بقوله : ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

١١ ـ المسلم مطالب على سبيل الفرضية بالعبادة التي هي الصلاة على الدوام حتى يأتيه الموت ، ما لم يغلب الغشيان أو فقد الذاكرة على عقله ، والإسلام سمح

---

(١) تفسير القرطبي : ١٠ / ٦١

(٢) تفسير الرازي : ١٩ / ٢١٥

سهل ، فعليه أداء الصلاة بأي كيفية يستطيعها ، ولا تسقط عنه أصلا إلا في حال لغيبوبة ، ويحاسب على كل فريضة تركها أو أهملها عمدا ، كما قال العبد الصالح عيسى عليه السلام : ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٣١].

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة النحل

مكية ، وهي مائة وثمان وعشرون آية.

تسميتها :

سميت سورة النحل ، لاشتمالها في الآيتين [٦٨ ـ ٦٩] : ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ على قصة النحل التي ألهمها الله امتصاص الأزهار والثمار ، وتكوين العسل الذي فيه شفاء للناس ، وتلك قصة عجيبة مثيرة للتفكير والتأمل في عجيب صنع الله تعالى ، والاستدلال بهذا الصنع على وجود الله سبحانه.

وسميت أيضا سورة «النّعم» لتعداد نعم الله الكثيرة فيها على العباد [١].

ارتباطها بالسورة التي قبلها :

إن آخر سورة الحجر شديد الارتباط بأول هذه السورة ، فإن قوله تعالى في آخر السورة السابقة : ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يدل على إثبات الحشر يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ يدل على ذكر الموت ، وكل من هاتين الآيتين ظاهر المناسبة لقوله هنا في أول السورة : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ إلا أنه في الحجر أتى بقوله : ﴿يَأْتِيَكَ﴾ بلفظ المضارع ، وهنا ﴿أَتى﴾ بلفظ الماضي ؛ لأن المراد بالماضي هنا : أنه بمنزلة الآتي الواقع ، وإن كان منتظرا ، لقرب وقوعه وتحقق مجيئه.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٠ / ٦٥

وكذلك ترتبط هذه السورة بسورة إبراهيم ؛ لأنه تعالى ذكر هناك فتنة الميت ، وما يحصل عندها من الثبات أو الإضلال ، وذكر هنا ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [٢٨ ، ٣٢] وما يحصل عقب ذلك من النعيم أو العذاب. وذكر أيضا النعيم في سورة إبراهيم ، وقال بعده : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ [٣٤] وكررت الآية نفسها هنا [١٨] وذكر هنا أنواع النّعم المختلفة.

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة الكلام على أصول العقيدة وهي الألوهية والوحدانية ، والبعث والحشر والنشور ، فبدأت بإثبات الحشر والبعث واقتراب الساعة ودنوها ، معبرا تعالى بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع قطعا ، مثل قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١] وقوله : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر ٥٤ / ١] وكل ذلك يدل على أن إخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آت لا محالة.

ثم أثبتت الوحي الذي كان ينكره المشركون كما أنكروا البعث ، وأنهم كانوا يستعجلون الرسول ﷺ أن يأتيهم العذاب الذي هددهم به.

ثم تحدثت السورة عن أدلة القدرة الإلهية في هذا الكون الدالة على وحدانية الله من خلق السموات والأرض ، وما فيهما من كواكب ونجوم ، وجبال وبحار ، وسهول ووديان ، ومياه وأنهار ، ونباتات وحيوانات ، وأسماك ولآلئ بحرية وبواخر تجري في البحر ، ورياح لواقح ومسيرة للفلك ، ودعت إلى التأمل في منافع المطر والأنعام وثمرات النخيل والأعناب ، ومهمة النحل ، وخلق الإنسان ثم إماتته ، والمفاضلة بين الناس في الرزق ، وطيران الطيور ، وتهيئة المساكن ، وغير ذلك.

وأوضحت السورة نعم الله تعالى الكثيرة المتتابعة ، وذكّرت الناس بنتيجة

الكفر بها ، وعدم القيام بشكرها ، وإعداد أبواب جهنم للكفار خالدين فيها ، وإعداد جنات عدن للمتقين الذين أحسنوا العمل في الدنيا. وأبانت فضل الله سبحانه بإرسال الرسل في كل الأمم ، وحصرت مهمتهم الموحدة بالأمر بعبادة الله واجتناب الطاغوت.

وأبانت السورة مهمة خطيرة للأنبياء في عالم القيامة وهي الشهادة على الأمم بإبلاغهم الدعوة الحقة إلى دين الله ، وعدم الإذن للكافرين في الكلام ، ورفض قبول أعذارهم.

ثم ذكر تعالى أجمع آية في القرآن وهي قوله : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ ..﴾ [٩٠] وأعقبها بالأمر بالوفاء بالعهود والوعود ، وتحريم نقضها ، وتعظيم شروطها وبنودها ، وعدم اتخاذ الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق وسيلة للخداع والمكر.

ثم أمر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن ، والتصريح بانعدام سلطانه وتأثيره على المؤمنين المتقين المتوكلين على ربهم ، وبيان أن سلطانه على المشركين.

وأوضح سبحانه أن هذا القرآن نزل به روح القدس على قلب النبي ﷺ ، فهو كلام الله ، لا كلام بشر عربي أو أعجمي.

وفي السورة ضرب الأمثال لإثبات التوحيد ودحض الشرك والأنداد من دون الله والكفر بأنعم الله ، ورفع الحرج عمن نطق بالكفر كرها ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، وإعطاء كل نفس حق الدفاع عن نفسها يوم القيامة ، وجزاء كل إنسان بما عمل.

وفي أواخر السورة عقب الحديث عن الأنعام بيان ما حرمه الله منها ، وزجر

العلماء عن الإفتاء بالتحريم أو بالتحليل دون دليل ، ومقارنة ذلك بما حرمه تعالى على اليهود بسبب ظلمهم.

ثم ختمت السورة بمدح إبراهيم بسبب ثباته على التوحيد الخالص ، وأمر النبي ﷺ باتباع ملته ، ثم أمره بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقصره العقاب على المثل دون تجاوز ذلك ، والأمر بالصبر على المصائب والأحزان ، والاعتماد على عون الله للمتقين المحسنين.

إثبات البعث والوحي

﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾

الإعراب :

﴿أَتى﴾ بمعنى يأتي ، أقام الماضي مقام المستقبل ، لتحقيق إثبات الأمر وصدقه. وقد يقام المستقبل مقام الماضي ، مثل قول الشاعر :

وإذا مررت بقبره فانحر له ... كوم الهجان وكل طرف سابح

وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أخا دم وذبائح

أي فلقد كان. ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الضمير إما أن يعود على الله وإما أن يعود على العذاب ، وكلاهما متلازم.

﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ إما بدل من قوله ﴿بِالرُّوحِ﴾ وإما منصوب بتقدير حذف حرف الجر ، أي بأن أنذروا ، فحذف الباء ، فاتصل الفعل به.

البلاغة :

﴿فَاتَّقُونِ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى خطاب المستعجلين.

المفردات اللغوية :

﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ قرب ودنا ، أي أن الأمر الموعود به بمنزلة الأتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع ، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم عنه وإنه واقع لا محالة. ويقال في العادة لما يجب وقوعه : قد أتى ، وقد وقع. و ﴿أَمْرُ اللهِ﴾ تعذيبه الكافرين وعقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله ﴿سُبْحانَهُ﴾ تنزيها له عن الشريك. ﴿الْمَلائِكَةَ﴾ أي جبريل ﴿بِالرُّوحِ﴾ الوحي أو القرآن ، فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل ، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بأمره وإرادته ﴿أَنْ﴾ مفسرة ﴿أَنْذِرُوا﴾ خوّفوا بالعذاب ﴿فَاتَّقُونِ﴾ خافوا عقابي ، لمخالفة أمري وعبادة غيري.

سبب النزول :

كان المشركون يستعجلون ما أوعدهم الرسول ﷺ من قيام الساعة ، أو إهلاك الله تعالى إياهم ، كما فعل يوم بدر استهزاء وتكذيبا ، ويقولون : إن صح ما يقوله فالأصنام نشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوايد الزهد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال لما نزلت : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ قاموا ، فنزلت : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

فموضوع الآية الأولى إعلان أن الأمر الموعود به وهو قيام الساعة متحقق حادث لا محالة ، وأنه تعالى منزه عن الشريك والولد. وموضوع الآية الثانية الإخبار بأن نزول الوحي بواسطة الملائكة ، والتنبيه على التوحيد الذي هو

منتهى كمال القوة العلمية ، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية ، وأن النبوة عطائية. والمراد من قوله : ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ معرفة الحق لذاته ، وأما المراد من قوله : ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فهو معرفة الخير لأجل العمل به.

التفسير والبيان :

كان الكفار يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم استهزاء وتكذيبا بالوعد ، فقيل لهم : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾.

فلما أكثر ﷺ من تهديد الكفار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، ولم يروا شيئا ، نسبوه إلى الكذب ، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي قد حصل أمر الله وحكمه ووجد من الأزل إلى الأبد ، وتحقق بنزول العذاب ، إلا أن المأمور به والمحكوم به إنما لم يحصل ولم ينفّذ ؛ لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين ، فلا تستعجلوه ، ولا تطلبوا حصوله قبل مجيء ذلك الوقت ، أي أن الحكم صدر مع وقف التنفيذ في أمد معين.

وكذلك لما أكثر ﷺ من تهديدهم بقيام الساعة أجيبوا بأنه قد اقتربت الساعة ودنت ، معبرا عن المستقبل بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة ، كقوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر ٥٤ / ١] وقوله سبحانه : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١] أي أن أمر الله بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرا ، فلا تستعجلوه قبل حضور الوقت المقدّر في علمه تعالى ، أي قرب ما تباعد ، فلا تتعجلوا وقوعه.

وهذا تهديد للكفار وإعلام لهم بقرب عذابهم وهلاكهم.

﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى ..﴾ تبرأ الله تعالى وتنزه وتقدس عما ينسبون له من الشريك والولد وعبادتهم ما سواه من الأوثان والأنداد. وهذا إبطال لما عقدوا عليه الآمال من شفاعة الأصنام.

ولما كان استعجال العذاب وقيام القيامة تكذيبا للنبي واستهزاء به وبوعده ، وهو كفر ، قرن تعالى النهي عن الاستعجال بإثبات التنزيه له عن الشرك والشركاء ، وهو رأس الكفر.

ثم أجاب الله تعالى عن شبهة ثالثة تتعلق بتكذيب النبوة والنبي ، فقال : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي ينزل تعالى الملائكة بالوحي على من يريد من عباده الذين اصطفاهم واختارهم للرسالة. وعبر عن الوحي بالروح ؛ لأنه يحيي موات القلوب كما تحيي الروح موات الأبدان ، كما قال تعالى : ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ ، وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ ، لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٢]. واستعمال الروح بمعنى الوحي شائع في القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ، ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ ، وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾ [الشورى ٤٢ / ٥٢].

وقوله : ﴿عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ هم الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤] وقال : ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٥] وقال : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ [غافر ٤٠ / ١٥]. وهذا رد لقولهم : ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣١].

وقوله : ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ يعني أن التنزيل والنزول للوحي لا يكونان إلا بأمره تعالى ، كما حكى عن الملائكة : ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم ١٩ / ٦٤] فلا يستطيع الملائكة فعل شيء إلا بأمر الله تعالى وإذنه.

ودلت الآية على أن الوحي من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بوساطة الملائكة.

ثم بيّن تعالى مهمة الرسل فقال : ﴿أَنْ أَنْذِرُوا ..﴾ أي لينذروا الناس الكفرة ويعلموهم أنه لا إله إلا الله ، فاتقوا عقابي لمن خالف أمري وعبد غيري.

فقه الحياة أو الأحكام :

أجابت الآيات عن شبهات ثلاث للمشركين : قيام الساعة ونزول العذاب ، والشرك والشركاء ، والنبوة والوحي.

أما الموضوع الأول : فقد أعلن تعالى أن قيام الساعة ونزول العذاب والهلاك متحقق كائن لا محالة ، ولكنه مرتبط بوقت معين مقدر في علم الله تعالى ، وهو أمر قريب ، فلا داعي للاستعجال بوقوعه ، والتعجيل بحدوثه.

وأما الموضوع الثاني : فقد نزه الله تعالى نفسه عن الشرك والإشراك ، وعن الشريك والولد وعن الأوثان والأنداد ، وعما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، لقولهم : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق. والتنزيه يتضمن إثبات القدرة المطلقة لله ، والوحدانية التامة ، واستحقاق العبادة المستقلة به المخلصة له ، وإبطال ما زعموه من شفاعة الأصنام.

وأما الموضوع الثالث : فقد أبان تعالى أنه الذي ينزل بالروح ، أي بالوحي وهو النبوة ، على من اختارهم الله للنبوة ، من طريق الملائكة ، ولا يحدث شيء من تنزل الوحي إلا بأمره وإذنه تعالى ، وختمت الآية بالتحذير من عبادة الأوثان ، والإنذار بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فليتقوا عقاب الله إذا خالفوا أمره وعبدوا غيره.

وأفادت الآية كما لا حظنا أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يكون إلا بالملائكة ، كما قال تعالى في آخر سورة البقرة : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ

﴿بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [٢٨٥] فبدأ بذكر الله سبحانه ، ثم أتبعه بذكر الملائكة ؛ لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير واسطة ، وذلك الوحي هو الكتب ، والملائكة يوصلون الوحي إلى الأنبياء والرسل ، فكان الترتيب متناسبا متدرجا موضحا رتبة الملائكة والأنبياء[١].

أدلة وجود الله ووحدانيته

﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)﴾

الإعراب :

﴿بالِغِيهِ﴾ الهاء في موضع جر بالإضافة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ﴾ هذه الأسماء كلها معطوفة بالنصب على قوله : ﴿وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ﴾ وتقديره : وخلق الخيل والبغال والحمير.

﴿وَزِينَةً﴾ إما منصوب بفعل مقدر ، أي وجعلها زينة ، وإما منصوب على أنه مفعول لأجله ، أي لزينة.

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ٢٢٠

البلاغة :

﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ صيغة مبالغة.

﴿وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ قدم الظرف مراعاة للفاصلة آخر الآيات.

﴿تُرِيحُونَ تَسْرَحُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿بِالْحَقِ﴾ أي أوجد السموات والأرض محقا على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة ، وقدّرها وخصصها بحكمته ﴿تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاظم عما يشركون به من الأصنام ، وهذا يدل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام المادية ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ المراد مادة التلقيح التي تكون سببا للحمل ﴿خَصِيمٌ﴾ مناظر مجادل شديد الخصومة ﴿مُبِينٌ﴾ مظهر للحجة قائل : من يحيي العظام وهي رميم؟ روي أن أبيّ بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم رميم ، وقال : يا محمد ، أترى أن الله تعالى يحيي هذا بعد ما قد رمّ؟ فنزلت. ﴿دِفْءٌ﴾ ما تستدفئون به من الكساء والرداء من أشعارها وأصوافها ﴿وَمَنافِعُ﴾ من النسل والدر والركوب.

﴿جَمالٌ﴾ زينة في أعين الناس ، والمراد جمال الصورة وتركيب الخلقة ﴿تُرِيحُونَ﴾ تردونها بالعشي من المرعى إلى مراحها (حظيرتها) ﴿تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة (صباحا) إلى المرعى ﴿أَثْقالَكُمْ﴾ أحمالكم ﴿لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ لم تكونوا واصلين إليه على غير الإبل إلا بجهد الأنفس أو بالمشقة الزائدة ﴿لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ بكم حيث خلقها لكم. ﴿وَزِينَةً﴾ أي لتتزينوا بها زينة ﴿وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ من الأشياء العجيبة الغريبة.

﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي بيان الطريق المستقيم ﴿جائِرٌ﴾ حائد أو مائل عن الاستقامة ﴿وَلَوْ شاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَداكُمْ﴾ إلى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتداء ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فتهتدون إليه باختيار منكم.

سبب النزول :

نزول الآية (٤):

﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ﴾ : نزلت الآية في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بعظم رميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، أترى الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟ ونظير

الآية قوله تعالى في سورة يس : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ إلى آخر السورة.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أنه منزّه عن الشريك والولد ، وأنه الإله الواحد ، وأمر بإخلاص العبادة له ، ذكر أدلة وجود الإله الصانع الواحد وكمال قدرته وحكمته ، وهي خمسة : خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وخلق الأنعام ، وخلق النبات ، وخلق العناصر الأربعة. والأخيران هما موضوع الآيات التالية.

التفسير والبيان :

خلق الله تعالى وأبدع العالم العلوي وهو السموات ، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت ، وذلك مخلوق بالحق ، أي على أساس من الحكمة والتقدير المحكم ، لا عبثا ، وانفرد بخلقه ذلك ، فتنزه الله عن المعين والشريك ، لعجز ما سواه عن خلق شيء ، فلا يستحق العبادة إلا هو ، فقوله ﴿تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، فهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فيستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

ثم ذكر الله تعالى خلق جنس الإنسان من نطفة ، أي مهينة ضعيفة ، فقال : ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ ..﴾ أي خلق الإنسان من ماء مهين ضعيف ، فلما استقل وكبر ، إذا هو يخاصم ربه تعالى ، ويكذبه وهو إنما خلق ليكون عبدا ، لا ضدا ، وخلق من شيء ضعيف ، فتراه يجادل ويقول : ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس ٣٦ / ٧٨]. ونظير الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً ، فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ، وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً. وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ ، وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٥٤ ـ ٥٥].

روي أن المراد بالآية أبيّ بن خلف الجمحي ، جاء إلى النبي ﷺ بعظم

رميم ، فقال : أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رمّ؟ وفي هذا أيضا نزل ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس ٣٦ / ٧٧].

ثم امتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، فقال : ﴿وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ ..﴾ أي وخلق الله لكم الأنعام ذات المصالح والمنافع المختلفة لكم ، من أصواف وأوبار وأشعار للبس والأثاث (أو الفراش) ومن ألبان للشرب ، ونسل للأكل.

ولكم في هذه الأنعام جمال ، أي زينة حين الرواح : وهو وقت رجوعها عشاء من المراعي ، ووقت السّروح : وهو وقت الغدوة والذهاب من مراحها إلى مسارحها أو المرعى. وخص تعالى هذين الوقتين بالذكر لاهتمام الرعاة بهما حين الذهاب والإياب ، وفي ذلك مفاخرة بالقطيع ، وقدم الرّواح على السّروح ؛ لأن الفائدة فيه أتم ، لمجيئها شبعانة ، فتدر الحليب ، وتملأ النفس سرورا ، والعين متعة ، فهي عنصر للغذاء وأداة إنتاج في الاقتصاد.

وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة والتركيب والصورة.

وكذلك هي أداة عمل وركوب وحمل أمتعة ، فقال تعالى : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ ..﴾ أي وهي أيضا تحمل أمتعتكم الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها من بلد إلى آخر لا تبلغونه إلا بمشقة شديدة ، مثل الحج والعمرة والجهاد والتجارة ونحو ذلك من أنواع الاستعمال ركوبا وتحميلا ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها ، وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ ، وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٢١ ـ ٢٢] وقال سبحانه : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها ، وَمِنْها تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ، وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر ٤٠ / ٧٩ ـ ٨٠].

وتظل الأنعام ثروة اقتصادية في كل زمان ومكان ، ونعمة كبري ، لذا ختم

تعالى الآية بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كثير الرأفة والرحمة بعباده ، فقد جعلها لهم مصدر رزق وخير كبير ، وأداة منافع وجلب مصالح ، كما قال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً ، فَهُمْ لَها مالِكُونَ. وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٧١ ـ ٧٢].

وامتن الله تعالى على الناس بثروة حيوانية أخرى هي : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ ..﴾ وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضا ، وجعلها للركوب والزينة بها أي تتزينون بها ، مع منافع أخرى.

ثم جاء دور الامتنان بوسائل النقل والمواصلات الحديثة : ﴿وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ أي ويخلق لكم غير هذه الحيوانات من وسائل النقل كالقطارات والسيارات والسفن والطائرات وغيرها.

ثم في هذا العالم السماوي والأرضي والحيواني ، يرشد تعالى إلى الطريق السوي من الطرق المعنوية الدينية والحياتية فقال : ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ..﴾ أي وعلى الله فضلا وتكرما بيان الطريق الواضح الموصل إلى الحق والخير ، بإقامة الأدلة وإنزال الكتب وإرسال الرسل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٣] وقال سبحانه : ﴿قالَ : هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر ١٥ / ٤١].

وكثيرا ـ كما قال ابن كثير ـ ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية ، كقوله تعالى في الحج : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى﴾ [البقرة ٢ / ١٩٧] وقوله سبحانه : ﴿يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٦].

ثم قال سبحانه محذرا من متاهات الطرق : ﴿وَمِنْها جائِرٌ﴾ أي ومن

الطرق أو السبل طريق جائر حائد عن الاستقامة ، مؤد إلى الضلال والزيغ عن الحق. وسبيل الاستقامة هو الإسلام ، والجائر منها غيره من الأديان ، لنسخها بالإسلام ، ولأن الإسلام دين التوحيد والفطرة الذي ارتضاه لعباده ، كما قال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٣٠].

ثم أخبر الله تعالى أن الهداية بقدرته ومشيئته تعالى فقال : ﴿وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال المعتزلة : ولو شاء لهداكم جميعا جبرا وقسرا وإلجاء. وقال أهل السنة : الله قادر على هداية جميع الناس ، ما في ذلك أدنى شك ، وإنما المراد بالآية : أنه تعالى بيّن السبيل القاصد المستقيم والجائر ، وهدى قوما يستحقون الهداية ، وقد اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم. والهداية نوعان : هداية دلالة وإرشاد ، كما في قوله تعالى : ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ٩٠ / ١٠] وهداية توفيق ورعاية كما في قوله سبحانه : ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ١ / ٦] وقوله هنا : ﴿وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس ١٠ / ٩٩] وقوله عزّ وجلّ : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ، وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود ١١ / ١١٨ ـ ١١٩].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان دليل واضح على قدرة الله تعالى ووجوده ووحدانيته.

لكن تعدى الإنسان طوره ، وتجاوز حدوده ، فناكد وجادل ، وكذب ربه وخاصمه في قدرته.

٢ ـ وكذلك خلق الأنعام بما فيها من منافع امتن الله بها على الإنسان دليل آخر على قدرة الله وتوحيده.

ودل قوله ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ على مشروعية لباس الصوف ، وقد لبسه رسول الله ﷺ والأنبياء قبله ، كموسى وغيره.

ومنافع الأنعام كثيرة لا نكاد نجد لها شبيها ، ففيها منفعة الأجسام ذاتها بأكل لحومها ، ومنفعة نتاجها بالدر واللبن والنسل ، ومنفعة ما تستر به من أوبار وأصواف وأشعار ، ومنفعة ظهورها للركوب وحمل الأثقال والنقل من بلد إلى آخر ، ومنفعة قواها بالحرث ، فالبقرة لا يحمل عليها ولا تركب ، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل واللبن ، فحق على الإنسان شكر هذه النعمة ، ومقابلتها بالعبادة لله تعالى الذي خلقها وسخرها للناس.

ودلت هذه الآية على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها ، ولكن بقدر المعتاد وقدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل ، مع الرفق في السير. وقد أمر النبي ﷺ بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها. روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا سافرتم في الخصب ، فأعطوا الإبل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها نقيها [1]».

وهذا دليل الرفق بالحيوان.

٣ ـ كذلك الدواب الأخرى التي خلقها الله وهي الخيل والبغال والحمير دليل

---

(١) السنة : القحط ويبس نبات الأرض ، والنّقي : المخ ، والمعنى : أسرعوا في السير بالإبل ، لتصلوا إلى المقصد ، وفيها بقية من قوتها ، لعدم وجود ما يقويها على السير في الأرض الجدبة.

آخر على القدرة الإلهية ، ومزيد فضل الله تعالى ، قال العلماء : ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا ، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها ، رحمة منه تعالى لنا ، وما ملكه الإنسان وجاز له تسخيره من الحيوان ، فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم.

واختلف العلماء فيمن اكترى دابة بأجر معلوم إلى موضع معين ، فتعدي وتجاوز ذلك المكان ، ثم رجع إلى المكان المأذون له فيه ، فقال أبو حنيفة : لصاحبها الأجرة المسماة ، ولا أجر له فيما لم يسمّ ؛ لأنه خالف فهو ضامن إذا هلكت الدابة.

وقال الشافعي وفقهاء المدينة السبعة : على المستأجر الكراء المسمى ، وكراء المثل فيما جاوز ذلك ، ولو عطبت لزمته قيمتها.

وقال أحمد : عليه الكراء والضمان.

وقال ابن القاسم تلميذ مالك : إذا عطبت الدابة في حال التجاوز ، فلصاحبها كراؤه الأول ، وله الخيار في أخذ كراء الزائد بالغا ما بلغ ، أو قيمة الدابة يوم التعدي.

واستدل بالآية مالك وأبو حنيفة وغيرهما على تحريم لحوم الخيل ؛ لأنه تعالى قال : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾ فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل ، ولا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة ، دل على أن ما عداه بخلافه. أما في الأنعام فقال : ﴿وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها.

ويؤيده حديث أحمد وأبي داود والنسائي والدار قطني وغيرهم عن خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطير. وهو لفظ الدار قطني.

قال القرطبي المالكي : الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل ، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة ؛ أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل ؛ إذ لو دلت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحمر ، والسورة مكية ، وأي حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحمر عام خيبر ، وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي. وأيضا لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها ، وهو حمل الأثقال والأكل ، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحا به ، وقد تركب ويحرث بها.

وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها ، وثبت ذلك في السنة ، روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل. وقال النّسائي عن جابر : أطعمنا رسول الله ﷺ يوم خيبر لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر [١].

واستدل جمهور العلماء بالآية أيضا على أن الخيل لا زكاة فيها ؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحه منها وكرمنا به من منافعها ، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل.

وقال أبو حنيفة : إن كانت إناثا كلها ، أو ذكورا وإناثا ، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة ، وإن شاء قوّمها ، فأخرج عن كل مائتي درهم خمسة دراهم. واحتج بأثر عن النبي ﷺ أنه قال : «في الخيل السائمة في كل فرس دينار» لكنه كما قال الدار قطني : تفرد به ضعيف جدا ، ومن دونه ضعفاء.

٤ ـ لم ينقطع فضل الله وكرمه ، فقد خلق لنا غير الأنعام والدواب فقال : ﴿**وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ**﴾ وهذا يشمل كل وسائل النقل والركوب الحديثة.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٠ / ٧٦ ـ ٧٧

٥ ـ على الله تفضلا وكرما بيان السبيل المستقيم وهو الإسلام ، وحذر من اتباع السبل الجائرة الحائدة عن الحق من الملل والأهواء الأخرى. والهداية بمشيئة الله تعالى ، والتوفيق للهداية مقرون باختيار الإنسان لها.

أدلة أخرى لإثبات الألوهية والوحدانية

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾

الإعراب :

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بالنصب عطفا على ما قبله ، ومن قرأ بالرفع فهو مبتدأ ، و ﴿مُسَخَّراتٌ﴾ خبره.

﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ﴾ مبتدأ وخبر ، ومن قرأ بالنصب فهو حال.

﴿وَما ذَرَأَ لَكُمْ﴾ معطوف بالجر على ﴿ذلِكَ﴾ في قوله : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ أي إن في ذلك وما ذرأ لكم ، أو معطوف على ﴿اللَّيْلَ﴾ أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات. ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ مُخْتَلِفاً﴾ حال.

﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في موضع نصب على أنه مفعول لأجله ، أي كراهة أن تميد بكم ، أو لئلا تميد بكم ، والوجه الأول أوجه ؛ لأن حذف المضاف أكثر من حذف «لا».

﴿وَعَلاماتٍ﴾ منصوب بالعطف على قوله ﴿سَخَّرَ﴾ أي سخر الليل والنهار وعلامات ، أو منصوب بتقدير : خلق ، أي وخلق لكم علامات.

المفردات اللغوية :

﴿تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون دوابكم ، والسوم : الرعي ، ومنه الإبل السائمة ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ﴾ أي إن في ذلك المذكور لعلامة دالة على وحدانيته تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنعه ، فيؤمنون ، ويستدلون على وجود الصانع وحكمته ، فإن من تأمل الحبة تقع في الأرض ، ثم يخرج منها الزرع أو الشجر ، ثم ينمو منها الأوراق والأزهار والثمار ذات الأجسام والأشكال المختلفة ، مع اتحاد المواد ، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدّس عن منازعة الأضداد والأنداد والشركاء.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ..﴾ بأن هيأها لمنافعكم ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإرادته ﴿يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون ﴿ذَرَأَ﴾ خلق ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوان ونبات وغير ذلك ﴿أَلْوانُهُ﴾ أشكاله وأصنافه ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون ﴿سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ ذلله للركوب والاصطياد والغوص فيه ﴿لَحْماً طَرِيًّا﴾ هو السمك ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ هي اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى﴾ تبصر ﴿الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿مَواخِرَ فِيهِ﴾ تمخر الماء ، أي تشقه بجريها فيه ، مقبلة مدبرة بريح واحدة ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ تطلبوا ، معطوف على ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ تعالى بالتجارة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون نعم الله ، فتقومون بحقها.

﴿رَواسِيَ﴾ جبالا ثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تتحرك بكم ، أو خوف أن تضطرب يمينا وشمالا بكم ، والميد : الحركة والاضطراب يمينا وشمالا ﴿وَسُبُلاً﴾ طرقا ﴿تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلاماتٍ﴾ أمارات ومعالم تستدلون بها على الطرق نهارا ، كالجبال والسهول. ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ أي النجوم ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الطرق والقبلة ليلا.

المناسبة :

هذه الآيات تتمة لأدلة إثبات وجود الله وتوحيده ، ذكر منها هنا خلق النبات وأحواله ، وأحوال العناصر الأربعة (الماء والتراب والنار والهواء) أما الماء

فيشمل المطر والبحر والأنهار ، وأما التراب فيفهم من كلمة الأرض ، وأما الحرارة فمن الشمس ، وأما الهواء فهو أساس حياة الإنسان والحيوان والنبات ، وكان واسطة تسيير الفلك في البحار.

التفسير والبيان :

تتابع الآيات التنبيه إلى أدلة أخرى لإثبات الذات الإلهية من حركة الكون وعالم النبات ، والبحار ، والجبال ، وبدأ بعالم النبات الذي يتسبب بإنزال المطر من السماء ، فقال سبحانه : ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ..**﴾ أي إن الذي خلق السموات والأرض والإنسان والأنعام والدواب ، هو الذي هيّأ ظروف الحياة للإنسان بإنزال المطر من السماء ، فجعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحا أجاجا ، وأخرج به شجرا ترعون فيه أنعامكم ، وأنبت به لكم زرعا وزيتونا ونخيلا وأعنابا ، ومن كل الثمرات على اختلاف أصنافها وألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ، رزقا لكم تستطيعون به تحقيق قوام الحياة ، والمراد بالشجر هنا : النبات مطلقا ، سواء كان له ساق أم لا ، كما نقل عن الزجاج ، وهو حقيقة في الأول ويستعمل في الثاني بمعنى الكلأ ؛ لأنه الذي يعلف.

﴿**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ..**﴾ أي في ذلك المذكور كله من إنزال الماء والإنبات لدلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله ، لقوم يتعظون ويتفكرون في تلك الأدلة ؛ لأنه لا مبدع ولا موجد لها غير الله الخالق الأحد ، المستحق للتمجيد والعبادة ، كما قال تعالى : ﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ، ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها؟ أَإِلهٌ مَعَ اللهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾ [النمل ٢٧ / ٦٠].

ثم نبّه الله تعالى على آياته الكونية العظام ، ممتنا بنعمه عليكم ، فقال : ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ..**﴾ أي وصير لكم ما ينفعكم من تعاقب الليل والنهار للنوم والاستراحة والسعي وكسب المنافع وقضاء المصالح ، ودوران الشمس والقمر للإنارة وانتفاع الإنسان والحيوان والنبات بالحرارة والضوء ومعرفة عدد السنين

والشهور ، وتزيين السماء بالنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات ، نورا وضياء ، ليهتدى بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه بنظام دقيق وحركة مقدرة ، لا زيادة فيها ولا نقص ، وكل ذلك خاضع لسلطان الله وقهره ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ، يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٤].

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ ..﴾ إن في المذكور كله دلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم ، لقوم يعقلون عن الله كلامه ، ويفهمون حججه.

والسبب في ختم الآية السابقة بقوله : ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وختم هذه الآية بقوله : ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأن دلالة الأدلة السماوية العلوية على قدرة الله ووحدانيته ظاهرة لا تحتاج إلا لمجرّد العقل دون تأمل ، وأما الأدلة الأرضية من الزرع والنخيل وغيرها فتحتاج في دلالتها على إثبات وجود الله إلى تفكر وتأمل وتدبر.

وبعد أن نبّه الله تعالى على معالم السماء ، نبّه على ما خلق في الأرض من عجائب فقال : ﴿وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ..﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من أشياء مختلفة الألوان والأشكال والمنافع والخواص من نباتات ومعادن وجمادات وحيوانات.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ..﴾ أي إن في المذكور جميعه لدلالات على قدرة الله ، لقوم يذكّرون آلاء الله ونعمه ، فيشكرونه عليها ، وختمت هذه الآية الثالثة بالتذكر بعد ختم الأولى بالتفكر والثانية بالتعقل ؛ للتنبيه على أن المؤثر فيما وجد في الأرض هو الفاعل المختار الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن احتجّ تعالى على إثبات الإله أولا بأجرام السموات ، وثانيا ببدن الإنسان ونفسه ، وثالثا بعجائب خلقة الحيوانات ، ورابعا بعجائب طبائع

النباتات ، ذكر خامسا الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر ، مبتدئا بعنصر الماء ، فقال :

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ..﴾ أي والله تعالى يمتن على عباده أيضا بتذليله البحر لهم ، وتيسيره للركوب فيه ، وإباحته السّمك حيّا وميتا ، في الحلّ والإحرام ، وخلقه اللآلئ والجواهر النفيسة فيه ، وتيسير استخراج العباد له من قراره ، حلية يلبسونها ، وكذا الاستفادة من المرجان الذي ينبت في قيعانه : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٢] ، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره ، أي تشقه وتجتازه في بلد إلى آخر ، ولتبتغوا من فضله ، أي ولتطلبوا فضل الله ورزقه بالتجارة فيه ، ولتشكروا نعمه وإحسانه عليكم بما يسّره لكم في البحار.

وفي وصف اللحم بالطراوة بيان قدرة الله في إخراج العذب من المالح ، ويدل أيضا على أنه يطلب أكله بسرعة ؛ لأنه يتسارع إليه الفساد.

ثم ذكر الله تعالى بعض النعم التي خلقها في الأرض فقال : ﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ ..﴾ وهي نعم ثلاث :

الأولى ـ تثبيت الأرض بالجبال الرواسي ، أي الثوابت لتقرّ ولا تضطرب أثناء دورانها بما عليها من كائنات حيّة ، كما قال تعالى : ﴿وَالْجِبالَ أَرْساها﴾ [النازعات ٧٩ / ٣٢].

الثانية ـ إجراء الأنهار على وجه الأرض ، ففيها حياة الأنفس والنبات والحيوان. وذكرها بعد الجبال ؛ لأن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها من الجبال. وتلك الأنهار كثيرة في العالم ، منها القصير والغزير والطويل ومنها غير ذلك ، وتتجه يمينا أو يسارا ، أو جنوبا أو شمالا ، أو شرقا أو غربا. والأودية التي تحدث أحيانا ترفد تلك الأنهار.

الثالثة ـ إيجاد السبل وهي الطرق والمسالك التي تسهل العبور والانتقال من أرض إلى أخرى ، ومن بلد إلى بلد غيره ، بل ومن جبل إلى سهل ، كما قال تعالى في صفة الجبال : ﴿وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ، وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٣١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لتهتدوا بتلك السّبل إلى مآربكم ومقاصدكم.

﴿وَعَلاماتٍ﴾ أي وأظهر في الأرض علامات مخصوصة ومعالم معينة تؤدي إلى المقصود ، فالعلامات : هي معالم الطرق ، وهي الأشياء التي بها يهتدى ، وهي الجبال والرياح ونحوها يستدل بها المسافرون برّا وبحرا ، ومن كثرت أسفاره لطلب المال أو غيره مثل قريش ، كان علمه بمنافع الاهتداء بالنجوم أوفى وأتمّ.

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي والناس يهتدون في ظلام الليل بالنّجوم. وهذا يومئ إلى علم النّجوم أو الفلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

أفادتنا الآيات فوائد عديدة هي :

١ ـ الله تعالى هو منزل المطر بقدرته وحكمته ، والمطر : ماء عذب صالح للشرب ، ينبت الله به أشجارا وعروشا وكروما ونباتا ومراعي للأنعام ، والماء سبب الحياة البشرية : ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٣٠]. وفي ذلك الإنزال والإنبات دلالة على قدرة الله ووجوده ووحدانيته لقوم يتأملون ويتفكرون.

٢ ـ والله سبحانه سخّر لعباده الليل والنهار للسكون والأعمال ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾

[القصص ٢٨ / ٧٣] ، وسخّر أيضا الشمس والقمر والنّجوم مذللات لمعرفة الأوقات ، ونضج الثمار والزروع ، والاهتداء بالنجوم في الظلمات.

٣ ـ والله عَزَّوَجَلَّ سخّر ما ذرأ (خلق) في الأرض لكم ، فما ذرأه الله سبحانه مسخّر مذلّل كالدّواب والأنعام والأشجار وغيرها. هذا مع العلم بأن بعض المخلوقات غير مذلل لنا ، بدليل ما رواه مالك في الموطأ عن كعب الأحبار قال : لو لا كلمات أقولهن لجعلتني يهود حمارا ، فقيل له : وما هنّ؟ فقال : أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى كلّها ما علمت منها وما لم أعلم ، من شرّ ما خلق وبرأ وذرأ.

٤ ـ إن في اختلاف ألوان المخلوقات لعبرة لقوم يذكّرون أي يتّعظون ويعلمون أن في تسخير هذه الكائنات لعلامات على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره.

٥ ـ والله سبحانه أنعم علينا بتسخير البحر لتناول اللحوم (الأسماك) واستخراج اللؤلؤ والمرجان ، وللركوب ، والتجارة ، وللدفاع عن البلاد من أذى محتل وعدوان مستعمر. وتسخير البحر : هو تمكين البشر من التّصرف فيه وتذليله بالرّكوب والتّجارة وغير ذلك.

ويلاحظ أن الحنفية لا يجيزون أكل السمك الطافي على سطح ما البحر أو النهر ، لقوله تعالى : ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ**﴾ [المائدة ٥ / ٣] ، ولحديث ضعيف أخرجه أبو داود وابن ماجه عن جابر عن النّبي ﷺ : «ما نضب عنه الماء فكلوا ، وما لفظه فكلوا ، وما طفا فلا تأكلوا».

وأباح الجمهور أكل الطافي ، لقوله تعالى : ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ، مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ**﴾ [المائدة ٥ / ٩٦] ، ولحديث أبي هريرة عند أحمد ومالك

وأصحاب السنن الأربعة وابن أبي شيبة عن البحر «هو الطّهور ماؤه ، الحلّ ميتته».

وقال أبو حنيفة ﵀ : لو حلف لا يأكل اللحم ، فأكل لحم السّمك ، لا يحنث ؛ لأنه ليس بلحم عرفا. وقال الجمهور : إنه يحنث ؛ لأنه تعالى نصّ على كونه لحما في هذه الآية ، وليس فوق بيان الله بيان.

وبما أن الله تعالى امتنّ على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرّم الله تعالى على الرّجال الذهب والحرير ، روي في صحيح الشيخين عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تلبسوا الحرير ، فإنه من لبسه في الدّنيا ، لم يلبسه في الآخرة».

وجمهور العلماء على تحريم اتّخاذ الرجال خاتم الذهب ، ويجوز لهم التّختم بخاتم الفضة ؛ لأنه ﷺ اتّخذ خاتما من فضة ، فاتّخذ الناس خواتيم الفضة ، وقال : «إني اتّخذت خاتما من ورق ، ونقشت فيه : محمد رسول الله ، فلا ينقشن أحد على نقشه». وهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه.

ومن حلف ألا يلبس حليّا ، فلبس لؤلؤا لم يحنث عند أبي حنيفة ، عملا بالعرف والعادة ، والأيمان تختص بالعرف.

٦ ـ والله تعالى جعل في الأرض نعما ثلاثا تستحق الشكر هي إلقاء الجبال الرواسي فيها لئلا تميد وتضطرب ، وإجراء الأنهار ، وجعل السّبل والطّرق منافذ عبور وانتقال بأمان. قال القرطبي : وفي هذه الآية : أدل دليل على استعمال الأسباب ، وقد كان الله قادرا على تسكينها دون الجبال.

وجعل تعالى في الأرض علامات ، أي معالم الطرق بالنهار ، وجعل النّجوم وسائل اهتداء إلى المقاصد.

خواص الألوهية

الخلق وعلم السّر والعلن والحياة الأبديّة

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾

الإعراب :

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ خبر ثان ، أي هم مخلوقون أموات. ويجوز أن ترفع ﴿أَمْواتٌ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم أموات. ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ استفهام عن الزمان بمعنى (متى) ، و ﴿أَيَّانَ﴾ : مبني لتضمنه معنى الحرف ، وهو همزة الاستفهام ، وبني على حركة لالتقاء الساكنين ، وهي الفتحة ؛ لأنها أخف الحركات.

البلاغة :

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ بينهما طباق السلب. ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ صيغة مبالغة.

﴿تُسِرُّونَ﴾ و ﴿تُعْلِنُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ و ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فيهما إطناب تأكيدا لسفاهة من عبد الأصنام.

﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بينهما جناس ناقص.

المفردات اللغوية :

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ هو الله سبحانه وتعالى. ﴿كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ كلّ ما عبد من دون الله تعالى من الملائكة وعيسى والأصنام. وغلّب فيه أولو العلم منهم ، وأجريت الأصنام مجرى أولي العلم ؛ لأنهم سمّوها آلهة ، ومن حقّ الإله أن يعلم. ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون ، فتعرفوا فساد ذلك ، فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يستحضره بأدنى تذكّر والتفات. والمراد بالآية إنكار التسوية بين الخالق والمخلوق ، بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرة الله تعالى وتناهي حكمته وتفرده بالخلق.

﴿لا تُحْصُوها﴾ لا تضبطوها ، فضلا عن أن تطيقوا شكرها. ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث ينعم عليكم مع تقصيركم وعصيانكم. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ من عقائدكم وأعمالكم ، وهو وعيد وتزييف للشرك باعتبار العلم.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وهم الأصنام. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ينحتون ويصورون من الحجارة وغيرها ، فهي مفتقرة الوجود إلى التخليق ، والإله ينبغي أن يكون واجب الوجود. ﴿أَمْواتٌ﴾ لا روح فيهم. ﴿غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ تأكيد. ﴿وَما يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون ، أي الأصنام. ﴿أَيَّانَ﴾ وقت. ﴿يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يشعرون بزمان بعثهم أو بعث عبدتهم الخلق ، فكيف يعبدون؟ إذ لا يكون إلها إلا الخالق الحيّ العالم بالغيب ، المقدّر للثواب والعقاب ، وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف.

﴿إِلهُكُمْ﴾ المستحقّ للعبادة منكم ﴿إِلهٌ واحِدٌ﴾ لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ، وهو الله. تعالى ، وهذا تكرير للمدّعى بعد إقامة الحجج. ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ جاحدة للوحدانية.

﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ متكبّرون عن الإيمان بها. ﴿لا جَرَمَ﴾ حقّا. ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم بذلك. ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي يعاقبهم.

المناسبة :

بعد ذكر الدلائل الدّالة على وجود الإله القادر الحكيم ، مع بيان أنواع نعم الله تعالى ، ذكر الله تعالى خواص الألوهية : وهي الخلق والإبداع ، وعلم السّرّ والعلن ، والحياة الدائمة ، مما يدلّ على أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم ، ويدلّ على إبطال عبادة غير الله تعالى ، ثم ذكر تعالى أسباب الإشراك : وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد ، فبقي أصحابه على الجهل والضّلال ، علما بأن أشدّ

القبح عبادة تلك الأصنام الجمادات المحضة ، التي ليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار.

التفسير والبيان :

نبّه الله تعالى في هذه الآيات على عظمته ، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له ، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئا ، بل هي مخلوقة ، فقال : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ ..﴾ أي أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها ، كمن لا يخلق ، بل لا يقدر على شيء من الخلق أصلا ، أفلا تذكّرون أي تعتبرون وتتعظون؟! فإن معرفة ذلك لا تحتاج إلى تدبّر وتفكّر ونظر. والاستفهام إنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير. ونظير الآية : ﴿هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان ٣١ / ١١].

ثم نبههم تعالى على كثرة نعمه وإحسانه إليهم ليرشدهم إلى أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم ، فقال : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ ..﴾ أي وإن أردتم حساب نعم الله وضبطها ، لا تستطيعوا إحصاءها وضبط عددها ، فنعم الله كثيرة دائمة ، والعقل عاجز عن الإحاطة بها.

﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ ..﴾ أي إنه تعالى كثير المغفرة يتجاوز عنكم وعن تقصيركم في الشّكر ، رحيم بكم فينعم عليكم مع استحقاقكم للحرمان بسبب الإشراك والكفر ، فلو طالبكم بشكر جميع نعمه ، لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو عذّبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازي على اليسير ، ومهما عمل الإنسان من الطاعات فلن يقابل نعمة واحدة من نعم الله تعالى.

والخلاصة : إنه تعالى بعد أن بيّن بالآية المتقدّمة : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ ..﴾ أن

الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ ، بيّن بهذه الآية : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ أن العبد لا يمكنه الإتيان بعبادة الله وشكر نعمه على وجه أتم.

وبعد أن أبطل عبادة الأصنام لعجزها عن الخلق والإنعام ، أبطل عبادتها بوجه آخر وهو كونها جمادات لا تعلم شيئا ، فقال : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ ..﴾ أي والله يعلم الضمائر والسرائر ، كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة ، إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشرّ ، فهو عالم الغيب والشّهادة ، والظّاهر والباطن.

ثم وصف تعالى الأصنام بما يجردها عن أهلية العبادة ، ليدلّ على غباء المشركين صراحة ، فقال ذاكرا ثلاثة أوصاف :

١ . ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ ..﴾ أي إن الأوثان والأصنام لا يخلقون شيئا ، بل هي مخلوقة ، كما قال تعالى : ﴿أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ؟ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾؟ [الصافات ٣٧ / ٩٥ . ٩٦].

٢ . ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها ولا حياة لها أصلا ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، فلا تفيدكم شيئا.

فقوله تعالى : ﴿غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ لبيان أنه لا يعقب موتها حياة ، وذلك أعرق في موتها ، فهي ليست كبعض المواد التي يمكن طروء الحياة عليها ، كالنّطف التي ينشئها الله حيوانا ، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها.

أما الإله فهو الحيّ الذي لا يطرأ عليه موت أصلا ، فبان الفرق بينهما وهو أن الإله دائم الحياة ، والأصنام دائمة الموت.

٣ . ﴿وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وتلك الأصنام لا يدرون متى يبعث عبدتها ومتى تقوم الساعة؟ فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما

يرجى ذلك من الذي يعلم كلّ شيء ، وهو خالق كلّ شيء. وعبّر عن الأصنام كما يعبّر عن الآدميين لزعمهم أنها تعقل عنهم وتشفع لهم عند الله تعالى ، فجرى خطابهم على حسب زعمهم.

وهذا إيماء إلى أن البعث من لوازم التكليف ، للجزاء على العمل من خير أو شرّ ، وتصريح بأن من لوازم الألوهية معرفة يوم القيامة ، وهو تهكّم بالمشركين الذين لا يحسنون الفهم والتّقدير.

وبعد هدم عبادة الأصنام ، صرّح تعالى بالمطلوب فقال : ﴿إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ أي إن إلهكم أيها الناس إله واحد ، لا إله إلا هو ، ومعبودكم الذي يستحقّ العبادة والطاعة بحقّ هو الإله المعبود الواحد. ثم ذكر سبب شركهم وإنكارهم التوحيد ، فقال تعالى :

﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ..﴾ أي فالذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها ولا يصدّقون بها ، ولا يؤمنون بالوحدانية قلوبهم منكرة للتّوحيد ، وهم مستكبرون عن الإقرار بالوحدانية وعن عبادة الله ، فلا يرغبون في حصول الثواب ، ولا يرهبون من الوقوع في العقاب.

والمعنى أن الكافرين تنكر قلوبهم الوحدانية ، كما قال تعالى واصفا تعجبهم منها : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ [ص ٣٨ / ٥]. وقال تعالى : ﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٤٥].

ثم هددهم تعالى وأوعدهم على أعمالهم ، فقال : ﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ..﴾ أي حقّا ، إنّ ربّك يعلم ما يسرّ هؤلاء المشركون وما يعلنون ، ويعلم إصرارهم على كفرهم ، وسيجزيهم على ذلك أتمّ الجزاء ، إنه لا يحبّ المستكبرين عن التوحيد وهم

المشركون ، بل وكلّ مستكبر ، أي يعاقبهم ويجازيهم. وهذا الوعيد يتناول كلّ المتكبّرين.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات مناقشة حادّة مع المشركين ، فيها إنكار لعبادتهم الأصنام ، وتهكّم بهم ، وبيان فساد تفكيرهم وسوء تقديرهم ، وسوء صنيعهم ، وصدودهم عن الحقّ ، وإعلان تصميمهم على الكفر والشّرك.

وأول فساد في تفكيرهم أن الأصنام مخلوقة وعاجزة عن خلق غيرها ، فهي لا تضرّ ولا تنفع ، فكيف تتخذ آلهة؟!

ومن كان قادرا على خلق الأشياء ، كان بالعبادة أحقّ ممن هو مخلوق لا يضرّ ولا ينفع.

والفساد الثاني أنهم ينكرون نعم الله وإحسانه لهم ، وأبسط مبادئ التدين والأخلاق مقابلة النعمة وشكرها ، وهم لم يشكروها.

والفساد الثالث أن الأصنام جمادات لا تعلم شيئا ، فكيف توصف بالألوهية؟ والإله ينبغي أن يكون عالما بالسّرائر والظواهر ، محيطا بأحوال العابدين ، حتى يلبي مطلبهم ، ويجازي مقصرهم ومسيئهم.

ثم صرّح تعالى بأوصاف الأصنام الثلاثة المناقضة تماما لمن يستحقّ وصفه بالألوهية والعبادة والطاعة ، وهي العجز عن خلق شيء ، وكونهم أمواتا غير أحياء ، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر ، أي هي جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة ، وكونهم ـ أي الأصنام ـ يجهلون وقت البعث وقيام الساعة للحساب والجزاء على الأعمال.

والألوهية الحقّة بعد بيان استحالة الإشراك بالله تعالى هي ألوهية الله الواحد

الأحد الفرد الصّمد ، المعبود الواحد الذي لا ربّ غيره ، ولا معبود سواه.

أما المشركون الذين لا يؤمنون بالآخرة فلا يقبلون الوعظ ولا التّذكير ، ولو آمنوا بالآخرة حقّا لآمنوا بوحدانية الله ، ولكنهم قوم متكبّرون متعظمون عن قبول الحقّ.

والله حقّا يعلم ما يسرّون من القول والعمل وما يعلنون ، فيجازيهم على أفعالهم ، إنه لا يحبّ المستكبرين أبدا ، أي لا يثيبهم ولا يثني عليهم.

صفات المستكبرين

إنكار المشركين الوحي المنزّل والنّبوة وجزاؤهم

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

الإعراب :

﴿ما ذا أَنْزَلَ .. ما﴾ اسم استفهام مبتدأ ، و ﴿إذا﴾ خبره ، و ﴿أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ : صلته ، والعائد محذوف تقديره : أنزله ، فحذف تخفيفا. ولما كان السؤال مرفوعا رفع ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ على تقدير مبتدأ محذوف ، أي هو أساطير الأولين. وأما قوله الآتي : ﴿ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا : خَيْراً﴾ فالجواب منصوب ؛ لأن السؤال منصوب ، لأن ﴿ما ذا﴾ بمنزلة كلمة واحدة ، أي أيّ شيء أنزل ربّكم ، وهي في موضع نصب ب ﴿أَنْزَلَ﴾. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال. ﴿ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حال أيضا.

البلاغة :

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ استعارة تمثيلية ، شبّه حال الماكرين بحال قوم بنوا بنيانا ثم انهدم عليهم وأهلكهم ، ووجه الشّبه أنّ ما ظنّوه سببا لحمايتهم ، كان سببا في فنائهم.

المفردات اللغوية :

﴿أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على محمد. ﴿أَساطِيرُ﴾ أكاذيب وأباطيل وترّهات. ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ الغابرين القدماء ، قالوا ذلك إضلالا للناس ، وقد نزلت الآية في النّضر بن الحارث ، ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ في عاقبة أمرهم. ﴿أَوْزارَهُمْ﴾ ذنوبهم. ﴿كامِلَةً﴾ لم يكفّر منها شيء. ﴿وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ أي وبعض أوزار من يضلونهم ؛ لأنهم دعوهم إلى الضلال فاتّبعوهم ، فاشتركوا في الإثم ؛ لتسببهم في إضلالهم ، والأصح أن ﴿مِنْ﴾ للجنس لا للتبعيض ، أي فعليهم مثل أوزار تابعيهم. ﴿ساءَ﴾ بئس. ﴿ما يَزِرُونَ﴾ يحملونه حملهم هذا.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول ، أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال ، أو حال من الفاعل أي وهم جاهلون. ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ اللام لام الصيرورة ؛ لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين ، لأجل أن يحملوا الأوزار ، ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهو نمروذ بن كنعان ، بنى صرحا طويلا ببابل ، سمكه خمسة آلاف ذراع ، ليصعد منه إلى السماء ، ليقاتل أهلها. والمكر : صرف غيرك عما يريده بحيلة ، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات. والمقصود بالآية : المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار. ﴿فَأَتَى اللهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ﴾ أهلكه وأفناه ، فأرسل عليه الريح والزلزلة ، فهدمته من الأساس ، كما يقال : أتى عليه الدهر ، و ﴿فَأَتَى﴾ : قصد ، و ﴿الْقَواعِدِ﴾ : الدعائم ، جمع قاعدة. ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي وهم تحته ، و ﴿فَخَرَّ﴾ : سقط. ﴿وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ من جهة لا تخطر ببالهم ، أي من جهة لا يحتسبون ولا يتوقّعون. وقيل : هذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرّسل.

﴿يُخْزِيهِمْ﴾ يذلّهم أو يعذّبهم بالنار ؛ لقوله تعالى : ﴿رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٢]. ﴿وَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكائِيَ﴾ أي ويقول الله لهم على لسان الملائكة توبيخا : أين شركائي بزعمكم؟ ﴿تُشَاقُّونَ﴾ تعادون المؤمنين وتنازعون الأنبياء في شأنهم. ﴿قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي ويقول الأنبياء والمؤمنون العلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد ، فيشاقونهم ويتكبرون عليهم ، أو يقول الملائكة : ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ الذلّة والعذاب على الكافرين ، وفائدة قولهم : إظهار الشماتة بهم وزيادة الإهانة ، وإيراده بقصد وعظ من سمعه.

﴿ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بالكفر. ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ : ﴿السَّلَمَ﴾ : الاستسلام والخضوع ، والمعنى : انقادوا واستسلموا عند الموت ، وأقرّوا لله بالرّبوبية ، أو سالموا حين عاينوا الموت. ﴿ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي قائلين : ما كنّا نعمل من كفران أو شرك ، وعدوان. ﴿بَلى﴾ نعم ، أي فتجيبهم الملائكة ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه. ﴿فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ﴾ أي ليدخل كلّ صنف بابه المعدّ له. وقيل : ﴿أَبْوابَ جَهَنَّمَ﴾ أصناف عذابها. ﴿مَثْوَى﴾ مأوى ، والمثوى : مكان الإقامة.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أدلّة التوحيد وأدلة بطلان عبادة الأصنام ، أعقب ذلك ببيان شبهات منكري النّبوة ، وأولها الطعن في القرآن الذي احتج النّبي ﷺ على صحة نبوّته بأنه معجزة ، فقالوا : أساطير الأولين ، وليس هو من جنس المعجزات ، فأهلكهم الله في الدّنيا ، وسيعاقبهم في الآخرة بما فعلوا ، فيقولون مستسلمين حين رؤية العذاب : ما كنّا نعمل من سوء ، أي كفر وشرك وعدوان.

التفسير والبيان :

تذكر هذه الآيات شبهات منكري النّبوة التي هي صفات المكذّبين المستكبرين.

الشّبهة الأولى [١] . طعنهم في القرآن بأنه أساطير الأولين : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ

---

(١) الشبهة الثانية ستأتي في الآية (٣٣) ، والشبهة الثالثة في الآية (٣٥) ، والشبهة الرابعة في الآية (٣٨).

ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ..﴾ لما احتجّ رسول الله ﷺ على صحّة نبوّته بكون القرآن معجزة ، طعنوا في القرآن ، وقالوا : إنه أساطير الأولين ، وليس هو من جنس المعجزات.

ومعنى الآية : وإذا قيل لهؤلاء المستكبرين المكذّبين الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين : أي شيء أنزل ربّكم؟ قالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئا ، إنما هذا الكلام الذي يتلى علينا أساطير أي أكاذيب وخرافات مأخوذة من كتب المتقدمين ، كما حكى تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿**وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [الفرقان ٢٥ / ٥] أي يفترون على الرّسول بأقوال متضادّة مختلفة باطلة.

والسائل : إما واحد من المسلمين أو من كلام بعضهم لبعض أو النّضر بن الحارث أو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ، ينفّرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحجيج عما أنزل على محمد ﷺ.

هذا عن القرآن ، أما عن النّبي ﷺ فكانوا يقولون : ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ، ثم استقرّ أمرهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي ، الذي حكى عنه القرآن قراره : ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقالَ : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**﴾ [المدثر ٧٤ / ١٨ ـ ٢٤] ، أي ينقل ويحكى ، فتفرقوا متفقين على قوله.

ثم أبان تعالى مصير قولهم : ﴿**لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً ..﴾** هذه لام العاقبة أو الصيرورة ، مثل : ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً**﴾ [القصص ٢٨ / ٨].

والمعنى : إنما قالوا ذلك ليتحملوا أوزارهم وآثامهم كاملة يوم القيامة وأوزار الذين يتبعونهم جهلا بغير علم فلا يعلمون أنهم ضلّال ، واقتداء بهم في الضّلال ، أي

ليصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم ، واقتدائهم بهم. والمراد بقوله تعالى : ﴿كامِلَةً﴾ أنه لا ينقص منها شيء. وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على رأي الزّمخشري : حال من المفعول ، أي يضلّون من لا يعلم أنهم ضلال ، وعلى رأي الرّازي : حال من الفاعل ، أي إن هؤلاء الرؤساء يضلّون غيرهم جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال.

﴿أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ﴾ أي بئس شيئا يحملونه من الذنب ذلك الذي يفعلون.

ونظير الآية : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ١٣].

وأوضحت السّنة سبب تحملهم آثام من قلّدوهم ، فقال ﷺ ـ فيما رواه أحمد ومسلم وأصحاب السّنن الأربعة عن أبي هريرة ـ : «من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا».

ثم أبان الله تعالى وجود الشّبه بين الكفار القدامى والجدد في الجرم والعقاب فقال : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..﴾ أي قد كاد لدين الله ورسله من تقدّمهم من الأمم ، واحتالوا بمختلف الوسائل لإطفاء نور الله فأهلكهم الله تعالى في الدّنيا ، بأن دمّر مبانيهم من قواعدها ، وسقط عليهم السّقف من فوقهم ، وأبطل كيدهم ، وأحبط أعمالهم ، وأطبق عليهم العذاب من كلّ جانب ، ومن حيث لا يحسّون بمجيئه ولا يتوقّعون ، فاعتبروا يا أهل مكة وأمثالكم. وهذا كله تمثيل لصورة العذاب ، ومضمونه إهلاكهم من الله تعالى.

وسبب قوله : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ مع أن السّقف لا يكون إلا من فوق هو

تأكيد سقوط السقف ، وشدّة إطباق العذاب وسقوطه عليهم وهم تحته.

ومعنى إتيان الله : إتيان أمره. وقوله تعالى : ﴿مِنَ الْقَواعِدِ﴾ أي من جهة القواعد أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم ، وهذا مقابل لقوله تعالى : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ليفيد إحاطة العذاب من أعلى ومن أسفل. وقوله تعالى : ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث لا يحتسبون ولا يتوقّعون.

وأكثر المفسّرين على أن المراد بقوله تعالى : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ ..﴾ هو نمروذ بن كنعان ، بنى صرحا عظيما ببابل طوله خمسة آلاف ذراع.

هذا عذابهم في الدّنيا ، وأما في الآخرة فهو ما قاله تعالى :

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ ..﴾ أي وفي يوم القيامة يخزيهم ، أي يظهر فضائحهم وما تخبئه نفوسهم فيجعله علانية ، ويذلّهم بعذاب الخزي ، كما قال تعالى : ﴿رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٢].

ويقول لهم الرّبّ تبارك وتعالى بواسطة الملائكة تقريعا لهم وتوبيخا : أين شركائي في زعمكم واعتقادكم؟ أين آلهتكم التي عبدتموها من دوني؟ أين تلك الآلهة التي كنتم تشاقون أي تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم؟ أحضروهم ليدفعوا عنكم العذاب : ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشّعراء ٢٦ / ٩٣] ، ﴿فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ﴾ [الطارق ٨٦ / ١٠].

فلا يجيب أحد ، ويسكتون عن الاعتذار ، وتظهر عليهم الحجة الدامغة ، ويتبين أنه لا شركاء ولا وجود لهم.

ثم ذكر الله تعالى مقال الذين أوتوا العلم من الملائكة والأنبياء والمؤمنين ، وهم سادة الدّنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحقّ : ﴿قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ..﴾ أي قال العلماء المقرّون بالتوحيد : إن الذّلّ والفضيحة والعذاب والهوان محيط

اليوم بالكافرين الذين كفروا بالله ، وأشركوا به ما لا يضرّهم ولا ينفعهم.

وهؤلاء هم الذين بقوا على كفرهم حتى الموت ، فتتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم ، حالة كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والمعاصي والتعريض للعذاب.

وكانت حالهم أيضا : ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ..﴾ أي فلما حضرهم الموت وعاينوا العذاب ، أظهروا السمع والطاعة والانقياد ، قائلين : ﴿ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي ما كنّا مشركين بربّنا أحدا ، كما حكى تعالى عنهم يوم المعاد : ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٣].

فكذّبهم الله في قولهم : ﴿بَلى ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ..﴾ أي لقد عملتم السّوء كله وأعظمه وأقبحه ، والله عليم بأعمالكم ، فلا فائدة في إنكاركم والله يجازيكم على أفعالكم.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ ..﴾ أي فادخلوا في جهنم ، وذوقوا عذاب إشراككم بربّكم وعقاب معاصيكم ، وأنتم خالدون ماكثون فيها إلى الأبد ، وبئس المقرّ والمقام دار الهوان ، لمن كان متكبّرا عن آيات الله تعالى واتّباع رسله.

وهم في عذاب دائم دون موت كما قال تعالى : ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾ [فاطر ٣٥ / ٣٦] ، وفي ديمومة من العذاب في جميع الوقت ، كما قال سبحانه : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ [غافر ٤٠ / ٤٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

تتضمن الآيات جوابا عن شبهة المشركين حول القرآن ووصفه بأنه أساطير الأولين ، وليس معجزة ، وليس هو من تنزيل ربّنا. ولم يكن جوابهم هنا كما تبين سابقا بالحجة الدامغة ، وإنما جوابهم هو استحقاقهم العذاب الشديد ، فاقتصر على

محض الوعيد ولم يجب عن شبهتهم ؛ لأنه تعالى بيّن كون القرآن الكريم معجزا بطريقين :

الأول ـ أنه ﷺ تحدّاهم بكل القرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، أو بحديث واحد ، وعجزوا عن المعارضة ، وذلك يدلّ على كونه معجزا.

الثاني ـ أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهي : ﴿**اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ وأبطلها بقوله تعالى : ﴿**قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أي أن القرآن مشتمل على الإخبار عن المغيبات ، وهذا لا يكون إلا من العالم بأسرار السموات والأرض [١].

فهم يتحملون نتيجة آثامهم وذنوبهم تحمّلا كاملا ، لا ينقص منه شيء لنكبة أصابتهم في الدّنيا بكفرهم ، كما أنهم يتحمّلون مثل أوزار تابعيهم ، وذلك بسبب كفرهم وإضلالهم غيرهم ، جهلا منهم بما يلزمهم من الآثام ، إذ لو علموا لما أضلّوا ، فبئس الوزر الذي يحملونه.

وعقابهم في الدّنيا يشبه عقاب عمالقة الكفر الذين تقدموهم مثل النّمروذ بن كنعان وقومه ، أرادوا صعود السّماء وقتال أهله ، فبنوا الصرح ليصعدوا منه ، فخرّ عليهم ، إما بزلزلة أو ريح ، فخرّبته. وكان عقابهم إبطال مكرهم وتدبيرهم وإهلاكهم عن بكرة أبيهم.

وعقابهم أيضا في الآخرة هو الذّلّ والهوان والفضيحة بالعذاب الأليم بسبب كفرهم ، مع التقريع والتوبيخ والاستهزاء بهم ، وبيان عدم وجود الشركاء لله تعالى أصلا.

وكل من العقابين لاستمرارهم على الكفر إلى حين الموت ، فإذا أقرّوا حينئذ

---

(١) تفسير الرّازي : ٢٠ / ١٩

بالرّبوبية لله ، وانقادوا عند الموت ، فلا ينفعهم ذلك ، والله عليم بأعمال الكفار.

وهذه الآية دليل على أنه لا يخرج كافر ولا منافق من الدّنيا حتى ينقاد ويستسلم ، ويخضع ويذلّ. ولكن لا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ [غافر ٤٠ / ٨٥].

ويقال لهم عند الموت : ﴿فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها ..﴾ الآية ، يدخل كلّ طائفة من باب ، ويستقرّ في طبقة أو درك من طبقات ودركات جهنم ، فبئس مقام المتكبرين الذين تكبروا في الدّنيا دار التكليف عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى ، كما وصفهم ربّنا سبحانه وتعالى بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ : لا إِلهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ٣٥].

صفات المتقين

إيمان المتقين بالوحي المنزل وجزاؤهم

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾

الإعراب :

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل ، أو مبتدأ ، وخبره : ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، أو هو المخصوص بالمدح اسم : نعم.

﴿طَيِّبِينَ﴾ حال منصوب من الهاء والميم في ﴿تَتَوَفَّاهُمُ﴾ وهو العامل فيها. ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ﴾ نعت لقوله ﴿الْمُتَّقِينَ﴾.

البلاغة :

﴿قالُوا : خَيْراً﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي قالوا : أنزل خيرا. والسبب في نصب ﴿خَيْراً﴾ هنا ، مع أنه رفع ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ في جواب المشركين : هو كما قال الزمخشري بيان الفرق بين جواب المؤمن المقر وجواب الجاحد ، يعني لما سئل المؤمنون لم يتلعثموا وأجابوا على السؤال جوابا بينا مفعولا للإنزال فقالوا : خيرا ، والمشركون عدلوا عن السؤال وأعرضوا عن الجواب فقالوا : هو أساطير الأولين ، وليس من الإنزال في شيء.

المفردات اللغوية :

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ، يعني المؤمنين. ﴿أَحْسَنُوا﴾ بالإيمان. ﴿حَسَنَةٌ﴾ مكافأة في الدنيا أو حياة طيبة. ﴿وَلَدارُ الْآخِرَةِ﴾ أي الجنة. ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها ، أو لثوابهم في الآخرة خير منها ، وهو وعد للمتقين جزاء قولهم وإيمانهم. ﴿وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة.

﴿لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ﴾ من أنواع المشتهيات. وفي تقديم الظرف تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة. ﴿كَذلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء يجزيهم.

﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي ؛ لأنه في مقابلة ﴿ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾ يقول الملائكة لهم عند الموت : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قيل : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت ، جاءه ملك ، فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام ، وبشره بالجنة. ويقال لهم في الآخرة : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أحوال المكذبين بالقرآن المنزل وبالوحي من قولهم : أساطير الأولين ، وتحمل أوزارهم وأوزار أتباعهم ، وتوفي الملائكة لهم ظالمي أنفسهم ، وإلقائهم السّلم في الآخرة والإقرار بربوبية الله ، أتبعه ببيان أوصاف

المؤمنين الذين يؤمنون بالمنزّل ، وما أعده لهم في الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات في جنات عدن ، حتى تتم المقارنة بين وعد هؤلاء ، ووعيد أولئك.

روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ ، فإذا جاء الوافد المقتسمين طرق مكة للحيلولة بين القادمين وبين الإيمان بالنبي ، قالوا له ما قالوا سابقا ، وإذا جاء المؤمنين قالوا له ذلك.

روى ابن أبي حاتم عن السّدّي قال : اجتمعت قريش ، فقالوا : إن محمدا رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه ، فخرج ناس في كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم ، قال أحدهم : أنا فلان بن فلان ، فيعرّفه نسبه ، ويقول له : أنا أخبرك عن محمد : إنه رجل كذاب ، لم يتّبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ، ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم ، فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : ﴿**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ : ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾.

فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك ، قال : بئس الوافد لقومي ، إن كنت جئت ، حتى إذا بلغت مسيرة يوم ، رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وأنظر ما يقول ، وآتي قومي ببيان أمره ، فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين ، فيسألهم ما ذا يقول محمد؟ فيقولون : خيرا.

التفسير والبيان :

تتميز الأشياء بأضدادها ، فأخبر الله تعالى عن السعداء المؤمنين إثر الإخبار عن الأشقياء المشركين ، ليتضح الفرق ، وتتجلى أسس العدل. فسئل الذين اتقوا

الكفر والمعاصي وخافوا الله : ما ذا أنزل ربكم؟ قالوا : أنزل خيرا أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به وبرسوله.

والسائل : هم الوافدون على المسلمين في أيام المواسم والأسواق ، فكان الرجل يأتي مكة ، فيسأل المشركين عن محمد وأمره ، فيقولون : إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتي المؤمنين ، ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه ، فيقولون : أنزل خيرا.

ثم أخبر تعالى عما وعد هؤلاء المؤمنين في مقابل وعيد المشركين السابق ، فقال : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ..﴾ أي للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه ، وأحسنوا العمل في الدنيا ، أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة.

فلهم في الدنيا مثوبة حسنة من عند الله بالنصر والفتح والعزة ، وفي الآخرة بنعيم الجنة وما فيها من خير.

ثم أعلمنا الله تعالى بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا.

ونظير صدر الآية : ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٩٧].

ونظير آخر الآية : ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ [القصص ٢٨ / ٨٠] وقوله تعالى : ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٧] وقوله : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى﴾ [الضحى ٩٣ / ٤] وقوله : ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ [الأعلى ٨٧ / ١٧].

ثم وصف الدار الآخرة بقوله : ﴿وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي﴾

أي لنعم دار المتقين دار الآخرة ، وهي جنات عدن أي إقامة تجري بين أشجارها وقصورها الأنهار ، ونعيمها دائم ميسر غير ممنوع : ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها﴾ أي للمحسنين في الدنيا ما يتمنون ويطلبون في الجنات ، كما قال تعالى : ﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٧١] وقال سبحانه : ﴿وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٣٢ ـ ٣٣].

وهذا جزاء التقوى : ﴿كَذلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الطيب ، يجزي الله كل من آمن به واتقاه ، وتجنب الكفر والمعاصي ، وأحسن عمله. وهذا حث على ملازمة التقوى.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المتقين عند الاحتضار في موازاة أو مقابلة حال المشركين : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فقال : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي الذين تقبض أرواحهم الملائكة طاهرين طيبين من الشرك والمعصية وكل سوء. وكلمة ﴿طَيِّبِينَ﴾ كما قال الرازي : كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أمروا به ، واجتنابهم كل ما نهوا عنه ، واتصافهم بالأخلاق الفاضلة ، والتبرؤ عن الأخلاق المذمومة ، والتوجه إلى حضرة القدس ، وعدم الانهماك في الشهوات واللذات الجسدية ، فيطيب للملائكة قبض أرواحهم. وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح.

وتسلّم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة عند قبض الأرواح ، كقوله سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت ٤١ / ٣٠ ـ ٣٢].

ومضمون تحية الملائكة هو : ﴿يَقُولُونَ : سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، ادْخُلُوا ..﴾ أي

تقول الملائكة لهم : سلام عليكم من الله ، وأمان لا خوف ، وراحة لا مكروه ، ادخلوا الجنة التي أعدها لكم ربكم بسبب أعمالكم. والمراد من هذه التحية : البشارة بدخول الجنة بعد البعث. ولما بشرتهم الملائكة بالجنة ، صارت الجنة كأنها دارهم ، وكأنهم فيها ، فقولهم : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي هي خاصة لكم ، كأنكم فيها.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات مثل واضح لأسلوب القرآن في بيان المتقابلات المتعاكسة ، فبعد أن أبان تعالى حال المشركين وجزاءهم في الدنيا والآخرة ، أعقبه ببيان حال المؤمنين الأتقياء.

فهم يؤمنون ويصدقون تصديقا جازما بصدق النبوة ، وصحة ما أنزل الله من القرآن على نبيه المصطفى ﷺ.

فيكون جزاؤهم أحسن من عملهم : ﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٦٠] فلهم في الدنيا الجزاء الأفضل من النصر والفتح والغنيمة والعزة ، ولهم في الآخرة الحسنة أي الجنة ، فمن أطاع الله فله الجنة غدا ، وما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ، لفنائها وبقاء الآخرة ، ولنعم دار المتقين : الآخرة ، وهي جنات عدن التي يدخلونها ، وتجري في رياضها الأنهار ، ولهم فيها ما يشاءون مما تمنوه وأرادوه ، ومثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين ، وهكذا يكون جزاء التقوى.

ويطيب للملائكة قبض أرواح هؤلاء الأتقياء ، ويسلمون عليهم ، مبشرين لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان. قال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام. وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده ، لتقرّ عينه.

وتقول لهم أيضا : أبشروا بدخول الجنة بما عملتم في الدنيا من الصالحات.

والخلاصة : إنه يصدر من الملائكة سلام ، وبشارة بالجنة ، وبدأ بالسلام لأنه أمان واطمئنان عام ، وأتبعه بأمر خاص وهو البشارة.

تهديد المشركين على تماديهم في الباطل

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٤)﴾

المفردات اللغوية :

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ؟﴾ أي ما ينتظر الكفار المارّ ذكرهم ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ هو عذاب الاستئصال ، أو يوم القيامة المشتمل على العذاب. ﴿كَذلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب فعل الذين من قبلهم من الأمم ، كذبوا رسلهم ، فأهلكوا. ﴿وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾ بإهلاكهم بغير ذنب. ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر.

﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا﴾ أي جزاؤها على حذف المضاف ، أو تسمية الجزاء باسم سيئات الأعمال. ﴿وَحاقَ﴾ نزل أو أحاط بهم ، وخص في الاستعمال بإحاطة الشر. ﴿يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي أحاط بهم جزاء استهزائهم.

المناسبة :

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر طعن الكفار في القرآن بقولهم : أساطير الأولين ، ثم أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم ، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به ووصفه بالخيرية ، أردف ذلك ببيان أن أولئك الكفار لا يرتدعون عن

حالهم إلا أن تأتيهم الملائكة بالتهديد بقبض أرواحهم ، أو أمر الله بعذاب الاستئصال [١]. ثم نبّه تعالى إلى تشابه الكفار قديما وحديثا في الشرك والتكذيب ، وتعرضهم للهلاك جزاء فعلهم

والخلاصة : إن هذه الآية : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هي الشبهة الثانية لمنكري النبوة ، فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة ، فقال تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ في التصديق بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك؟ [٢].

التفسير والبيان :

يهدد الله تعالى المشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا ، فيقول : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ ..﴾ أي ما ينتظر كفار مكة وأمثالهم في التصديق بنبوة النبي محمد ﷺ إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك ، أو هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم؟

﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي أو أن يأتيهم أمر ربك بعذاب الاستئصال في الدنيا كإرسال الصواعق أو الخسف ، أو أن يأتي أمر ربك بيوم القيامة ، وما يعاينونه من الأهوال ، فهم لا ينزجرون عن الكفر إلا بمثل هذه الأمور.

والمقصود : حثهم على الإيمان بالله ورسوله قبل أن ينزل بهم أمر لا مرد لهم فيه.

﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي هكذا تمادى الذين من قبلهم من المشركين في شركهم ، حتى ذاقوا بأس الله ، وحل بهم العذاب والنكال.

---

(١) البحر المحيط : ٥ / ٤٨٩

(٢) تفسير الرازي : ٢٠ / ٢٦

﴿وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ ..﴾ أي إن ما وقع بهم من العذاب لم يكن بظلم من الله ؛ لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم ، بإرسال رسله وإنزال كتبه ، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فعقبوا ، وجوزوا بسوء عملهم ، وأحاط بهم من العذاب الأليم ما كانوا به يستهزئون ، أي يسخرون من الرسل حين توعدوهم بعقاب الله.

فيقال لهم يوم القيامة : ﴿هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور ٥٢ / ١٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات جواب عن الشبهة الثانية لمنكري النبوة الذين طلبوا إنزال ملك من السماء يشهد على صدق محمد في ادعاء النبوة.

والجواب يدل على إصرارهم على الكفر وتماديهم في الباطل وعزوفهم عن الحق ، فهم ما ينتظرون إلا أحد مرين : أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم ، أو يأتي أمر الله بالعذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والخسف في الدنيا. وقيل : المراد يوم القيامة.

والواقع أن القوم لم ينتظروا هذه الأشياء ؛ لأنهم ما آمنوا بها ، فاستحقوا العقاب ، وكانت عاقبتهم العذاب.

ولما أصروا على الكفر ، أتاهم أمر الله فهلكوا ، وما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم ، كما فعل بأسلافهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك.

لقد فعل الذين من قبلهم مثلما فعلوا ، فأصابهم سيئات ما عملوا ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فأصابهم عقوبات كفرهم ، وجزاء خبيث أعمالهم ، وعقاب استهزائهم.

احتجاج الكفار بالقدر وإنكارهم البعث وتشابه مهمة الرسل

﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (٣٩) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾

الإعراب :

﴿الْبَلاغُ﴾ مرتفع بالظرف ، لاعتماد الظرف على حرف الاستفهام.

﴿يَهْدِي﴾ فيه ضمير يعود إلى اسم ﴿إِنْ﴾ و ﴿مَنْ﴾ منصوب بيهدي وتقديره : إن الله لا يهدي هو من يضلّ. ومن قرأ ﴿يَهْدِي﴾ كان ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع ؛ لأنه نائب فاعل. وفي ﴿يُضِلُ﴾ ضمير يعود على اسم ﴿إِنْ﴾ ومفعول ﴿يُضِلُ﴾ محذوف ، أي إن الله لا يهدي من يضله الله.

﴿إِنَّما قَوْلُنا﴾ .. ﴿أَنْ نَقُولَ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة :

﴿ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ .. وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيهما إطناب.

﴿مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُ﴾ بين كل من الجملتين طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من أهل مكة ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال البيضاوي : إنما قالوا ذلك استهزاء ومنعا للبعثة والتكليف ، متمسكين بأن ما شاء الله يجب ، وما لم يشأ يمتنع. وهذا نظير آية أخرى : ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٨] وهذا احتجاج بالقدر ، وهي حجة باطلة داحضة ، باتفاق العقلاء والعلماء ، كما قال ابن تيمية ، لهذا رد الله عليهم هنا بقوله : ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي سورة الأنعام [١٤٨] بقوله : ﴿قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ والراجح أنهم لم يقولوا ذلك استهزاء ، وإنما اعتراضا على الله تعالى. والرد عليهم أن الله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء ولا يجوز الاعتراض عليه ، ولبعثة الرسل فائدة : وهي الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة الطاغوت ، وأما علم الله بالشيء فلا اطلاع لنا عليه.

﴿وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من البحائر والسوائب ، أي فإشراكنا وتحريمنا بمشيئة الله ، فهو راض به ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وكذبوا رسله فيما جاؤوا به ، وحرموا حلاله ، وهو جواب عن الشبهتين المتقدمتين. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فما على الرسل إلا الإبلاغ البيّن ، وليس عليهم الهداية ، ولكنه يؤدي إلى الهدى على سبيل التوسط ، وما شاء الله وقوعه إنما يجب وقوعه لا مطلقا ، بل بأسباب قدّرها له.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ كما بعثناك في هؤلاء المشركين ، أي إن البعثة ـ كما قال البيضاوي ـ أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها ، سببا لهدى من أراد اهتداءه ، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله ، كالغذاء الصالح ، فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه ، ويضر المنحرف ويفنيه. وهو دليل على أن الله تعالى آمر أبدا في جميع الأمم بالإيمان وناه عن الكفر.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي بأن اعبدوا الله ، أي وحّدوه ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ أي اتركوا الأوثان أن تعبدوها ، وهو أمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. والطاغوت : كل ما عبد من دون الله ، والمراد : اجتنبوا ما يدعو إليه مما نهى عنه الشرع ، ويشمل الطاغوت الشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا إلى ضلال.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ﴾ فآمن ، بأن وفقهم للإيمان بإرشادهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ أي وجبت عليه الضلالة في علم الله فلم يؤمن ، بأن لم يوفقهم ولم يرد هداهم. ووجبت أي ثبتت بالقضاء الأزلي السابق ؛ لإصراره على الكفر والعناد.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي يا معشر قريش ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ رسلهم من الهلاك ، مثل عاد وثمود وغيرهم ، لعلكم تعتبرون ﴿إِنْ تَحْرِصْ﴾ يا محمد ﴿عَلى هُداهُمْ﴾ وقد أضلهم الله ، لا تقدر على ذلك ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُ﴾ هذا معنى من حقت عليه الضلالة ، أي من يريد ضلاله ، ولكنه لم يأمره به ، وإنما على العكس أمره وأمر العالم كله بالإيمان ﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ ما نعين من عذاب الله ، بأن ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

﴿جَهْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ غاية اجتهادهم فيها ﴿بَلى﴾ يبعثهم ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان لنفسهما منصوبان بفعلهما المقدر ، أي وعد ذلك وحقه حقا ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي أهل مكة ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك أي أنهم مبعوثون ، إما لعدم علمهم بمقتضى الحكمة التي يراعيها الله عادة ، وإما لقصر نظرهم على المألوف ، فيتوهمون امتناعه.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ متعلق بقوله : يبعثهم المقدر ، أي يبعثهم ليبين ﴿لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مع المؤمنين ، من أمر الدين الحق ، بتعذيبهم وإثابة المؤمنين ﴿وَأَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ﴾ في إنكار البعث المميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب ﴿إِذا أَرَدْناهُ﴾ أردنا إيجاده ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكون. وهذه الآية : ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ ..﴾ لتقرير القدرة على البعث وبيان إمكانه ؛ لأن تكوين الله تعالى بمحض قدرته ومشيئته ، ولا يتوقف على سبق المواد والمدد ، وإلا لزم التسلسل ، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ، يمكن له تكوينها مرة أخرى.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٨):

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ ..﴾ قال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين ، فأتاه يتقاضاه ، فكان فيما تكلم به : والذي أرجوه بعد الموت ، فقال المشرك : وإنك لتزعم أنك لتبعث بعد الموت؟! فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المناسبة :

في هذه الآيات شبهتان ، أما آيات ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ..﴾ فهي الشبهة الثالثة لمنكري النبوة بعد إيراد الشبهتين المتقدمتين ، وتقريرها : أنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن في النبوة ، فقالوا : لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان ، سواء جئت أو لم تجئ ، ولو شاء الله الكفر ، فإنه يحصل الكفر ، سواء جئت أو لم تجئ ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالكل من الله ، ولا فائدة في مجيئك وإرسالك ، فكان القول بالنبوة باطلا.

وأما آيات : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ..﴾ فهي الشبهة الرابعة لمنكري النبوة ، ومفادها أنهم قالوا : الاعتقاد بالبعث والحشر والنشر باطل ، فكان القول بالنبوة باطلا من وجهين:

الأول ـ أن محمدا كان داعيا إلى التصديق بالمعاد ، فإذا بطل ذلك ، ثبت أنه كان داعيا إلى القول الباطل ، فهو ليس رسولا صادقا.

الثاني ـ أنه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته ، بناء على الترغيب في الثواب والترهيب من العقاب ، وإذا بطل ذلك ، بطلت نبوته.

ورد الله عليهم مقالهم كله بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم القديمة ، وما على الرسل إلا التبليغ ، وليس عليهم الهداية ، والله تعالى لا يجبر أحدا على الهداية أو الضلالة ، وإنما يختار الإنسان لنفسه ما يريد ، والله سبحانه خلق للناس قدرة الاختيار بقوله : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ فلا يصح الاحتجاج بمشيئته تعالى ، بعد أن خلق لهم من الاختيار ما يكفي.

التفسير والبيان :

أجاب الله تعالى في هذه الآيات عن شبهتين للكفار منكري النبوة ، الأولى منهما هي الشبهة الثالثة لهم المتضمنة اغترارهم بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم الواهي محتجين بالقدر : ﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ..﴾ أي وقال المشركون بالله عبدة الأصنام والأوثان ، معتذرين عن شركهم ، محتجين بالقدر بقولهم : ما نعبد هذه الأصنام إلا بمشيئة الله ، فلو شاء الله ما عبدناهم ، ولا حرّمنا هذه المحرّمات من البحائر والسوائب والوصائل [١] ونحو ذلك مما ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ، ما لم ينزّل به سلطانا ، ما حرمناها إلا برضا الله ، ولو كان تعالى كارها لما فعلنا ، لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مكننا منه.

وهذه الشبهة هي عين ما حكى الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا ، وَلا آباؤُنا ، وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ ، كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [١٤٨].

وقصدهم من ذلك ـ كما ذكر الشوكاني في فتح القدير ـ الطعن في الرسالة ، أي لو كان ما قاله الرسول حقا آتيا من الله من منع عبادة غير الله ، ومنع تحريم ما لم يحرمه الله ، لم يقع منا ما يخالف ما أراده الله منا ، فإنه قد شاء ذلك ، وما شاءه كان وما لم يشأ لم يكن ، فلما عبدنا غيره وحرمنا ما لم يحرمه ، دل على أن فعلنا مطابق لمراده وموافق لمشيئته ، وهم في الحقيقة لا يقرون بذلك ، ولكنهم قصدوا الطعن على الرسل.

ورد الله تعالى عليهم شبهتهم بقوله : ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أن ذلك ليس جديدا في الاعتقاد الفاسد ، فمثل قولهم حدث ممن قبلهم من الأمم

---

(١) سبق تفسيرها في آية : ﴿ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ﴾ [المائدة ٥ / ١٠٣].

حين كذبوا الرسل ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فهؤلاء سلكوا سبيل أسلافهم في تكذيب الرسل واتباع الضلال.

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فهم مخطئون فيما يقولون ، وليس الأمر كما يزعمون أنه تعالى لم ينكره عليهم ، بل قد أنكره عليهم أشد الإنكار ، ونهاهم عنه أشد النهي ، وأرسل في كل أمة أو قرن أو طائفة من الناس رسولا يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عن عبادة ما سواه : ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦].

فمنهم من هداه الله ووفقه فآمن وامتثل ، ومنهم من أعرض وتنكر ، فحقت عليه الضلالة وكلمة العذاب لإصراره على الكفر والعصيان.

وما على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم إلا إبلاغ الرسالة والوحي وإيضاح طريق الحق ، ومنه أن مشيئته تعالى تتوجه بالهداية لمن تعلق بها ، كما قال : ﴿فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ [الشمس ٩١ / ٨ ـ ١٠] وقال : ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٦٩].

وليس من وظيفة هؤلاء الرسل إلجاء الناس إلى الإيمان ، فذلك ليس من شأنهم ، ولا هو من الحكمة.

أي إن الثواب والعقاب مرتبطان بأمرين : مشيئة الله تعالى ، واتجاه العبد إلى تحصيل الأسباب المؤدية إلى النجاة أو الهلاك. وهداية الله نوعان : هداية إرشاد ودلالة ، وهذا ما يقوم به الرسل والكتب المنزلة عليهم ، وهداية توفيق وعون ، وهذا متعلق بسلوك العبد أصل طريق الهداية والإيمان ، فمن آمن زاده الله توفيقا إلى الخير ، ومن ضل وكفر وأعرض أضله الله وأبعده عن جادة الحق والخير. ثم إن أمر الله جميع الناس بالإيمان غير إرادته ومشيئته.

ثم أبان الله تعالى عموم بعثة الرسل لكل الأمم فقال : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً ..﴾ أي إن سنته تعالى في خلقه إرسال الرسل إليهم ، وأمرهم بعبادة الله ، ونهيهم عن عبادة الطاغوت : وهو كل ما عبد من دون الله من الأوثان والأصنام والكواكب والشيطان وغيرها ، فلقد أرسل في كل أمة رسولا منذ حدث الشرك في قوم نوح ، وكان نوح عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي كانت دعوته عامة للإنس والجن في المشارق والمغارب ، وكلهم كان يقول : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥] وقوله : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ، أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٥].

فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

والخلاصة : إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية غير مرادة ؛ لأنه تعالى نهى الناس عن الكفر على ألسنة رسله. وأما المشيئة الكونية وهي تمكين بعض الناس من الكفر وتقديره لهم على وفق اختيارهم ، فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حكمة بالغة [١].

ثم إنه تعالى أنكر على الكفرة المكذبين بإنزال العقوبة عليهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ..﴾ أي فبعض الناس هداهم الله ووفقهم لتصديق الرسل ، ففازوا ونجوا ، ومنهم من كفر بالله وكذبوا رسله ، فعاقبهم الله تعالى.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٦٩

وكذب الحق ، كعاد وثمود ، كيف أهلكهم الله بذنوبهم : ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ [محمد ٤٧ / ١٠] فانظروا كيف كان مصير المكذبين رسلهم ، لتعتبروا بعاقبتهم.

ثم خصص الله الخطاب برسوله مسليا له عما يقابله قومه من جحود فقال : ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ ..﴾ أي إن تحرص يا محمد على هداية قومك ، فلا ينفعهم حرصك إذا كان الله قد أراد إضلالهم بسوء اختيارهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ [المائدة ٥ / ٤١] وقال تعالى حكاية لقول نوح لقومه : ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود ١١ / ٣٤] وقال ﷻ لرسوله ﷺ : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٦].

﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ أي وليس لمن اختاروا الضلالة ناصرون ينقذونهم من عذاب الله وعقابه ؛ لأن أساس الحساب على الإيمان والكفر الاختيار ، لا الإكراه والإلجاء.

ثم ذكر تعالى الشبهة الرابعة لمنكري النبوة ، فقالوا : اعتقاد البعث والحشر والنشر باطل ، فكان القول بالنبوة باطلا ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ ..﴾ أي حلف المشركون ، واجتهدوا في الحلف ، وأغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت ، أي أنهم استبعدوا البعث ، وكذبوا الرسل في إخبارهم إياهم به ؛ لأن الميت يفنى ويزول.

فرد الله تعالى عليهم بقوله : بلى سيكون ذلك ، ووعد به وعدا حقا لا بد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بقدرة الله خالفوا الرسل ووقعوا في الكفر.

وحكمة الله في المعاد هي ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي ليبين للناس الحق فيما يختلفون فيه من كل شيء ، ويقيم العدل المطلق فيميز الخبيث من

الطيب ، والطائع من العاصي ، والظالم من المظلوم ، ويجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ أي وليعلم الكافرون علم اليقين الذين أنكروا البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين في أيمانهم وأقوالهم : لا يبعث الله من يموت ، وتقول لهم زبانية النار : ﴿هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ ، أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ ، اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور ٥٢ / ١٤ ـ ١٦].

وناسب الكلام في البعث أنه تعالى أخبر عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فقال : ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ ..﴾ أي إنا إذا أردنا شيئا من الخلق والإعادة والبعث للأموات والمعاد ، فإنما يتم بالأمر به مرة واحدة ، فيكون كما يشاء الله ، دون عناء ولا تردد ، ولا بطء ولا تكلف ، كما قال سبحانه : ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر ٥٣ / ٥٠] وقال : ﴿وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل ١٦ / ٧٧] وقال : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٨] وقال : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٣٦ / ٨٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن بعثة الرسل في كل الأمم عامة شاملة ، وهدفها واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الطاغوت أي ترك كل معبود دون الله ، كالشيطان والكاهن والصنم ، وكذا كل من دعا إلى الضلال.

٢ ـ الناس أمام دعوة الرسل فريقان : فريق أرشده الله إلى دينه وعبادته ،

وفريق أضله الله في قضائه السابق حتى مات على الكفر ، وكل من الفريقين اختار لنفسه ما يحلو ، وعلم الله واسع محيط بكل شيء ، علم الله من كل فريق ما سيختار ، فكان قضاؤه السابق مطابقا لما سيحدث ، وعلم الله لا يتغير. وسنة الله قديمة مع العباد ، وهي أنه يأمر الكل بالإيمان ، وينهاهم عن الكفر ، ثم يخلق الإيمان في البعض ، والكفر في البعض ، حسبما علم من توجه العبد إلى منحاه.

٣ ـ العاقل من يعتبر ويتعظ بما حل بفريق الضالين المكذبين ، كيف آل أمرهم إلى الدمار والخراب والعذاب والهلاك.

٤ ـ لا جدوى ولا فائدة من حرص النبي ﷺ أو غيره على هداية أحد بجهده وتصميمه إن سبق في علم الله الضلالة له ، فإنه تعالى لا يرشد من أضله ، بعد أن ضل سواء السبيل.

وليس للضالين من ناصرين ولا من شافعين ولا من رفاق ينقذونهم من العذاب الذي استحقوه على ضلالهم وكفرهم.

٥ ـ الكل يعجب من حماقة المشركين وجهلهم حينما يغلظون الأيمان ويؤكدون القسم بأن الله لا يبعث من يموت. لذا رد الله عليهم بأن البعث حق مؤكد لا شك فيه ، ولا بد من وقوعه ، وإن كان أكثر الناس يجهلون أنهم مبعوثون.

٦ ـ الحكمة من البعث والمعاد واضحة وهي إظهار الله الحق فيما يختلف فيه الناس من أمر البعث وكل شيء ، وإعلام الكافرين بالبعث الذين أقسموا على إنكاره أنهم كانوا كاذبين في أيمانهم وأقسامهم : لا يبعث الله من يموت.

٧ ـ لله القدرة المطلقة الهائلة ، فإذا أراد أن يبعث من يموت فلا تعب عليه ولا نصب في إحيائهم ، ولا في غير ذلك مما يحدثه في الكون ؛ لأنه إنما يقول له : كن فيكون.

جزاء المهاجرين وبشرية الرسل ومهمة النبي ﷺ

في بيان القرآن ، وتهديد الكافرين

﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾

الإعراب :

﴿حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر ، أي لنبوئنهم تبوئة حسنة.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا ..﴾ الذين : إما بدل مرفوع من ﴿الَّذِينَ هاجَرُوا﴾ وإما بدل منصوب من الهاء والميم في ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أو منصوب بتقدير : أعني.

﴿عَلى تَخَوُّفٍ﴾ حال من الفاعل أو المفعول. ﴿سُجَّداً لِلَّهِ﴾ حال من الظلال ﴿وَهُمْ داخِرُونَ﴾ حال من ضمير ﴿ظِلالُهُ﴾ الذي هو في معنى الجمع ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ﴾ حال.

﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ حال من : هم.

البلاغة :

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ استفهام بمعنى الإنكار.

﴿لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ .. ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ عطف خاص على عام لتعظيم الملائكة وتكريمهم.

﴿يَتَفَكَّرُونَ تَعْلَمُونَ يَشْعُرُونَ داخِرُونَ يَسْتَكْبِرُونَ يُؤْمَرُونَ﴾ بأسلوب السجع اللطيف.

﴿الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللهِ﴾ هم النبي ﷺ وأصحابه ، وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة في صدر الإسلام فرضا ، ثم قال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عباس : «لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية» أي أن الهجرة أصبحت هي ترك سيئات الأعمال : «والمهاجر : من هجر ما نهى الله عنه» والهجرة : ترك الوطن في سبيل الله لإقامة دينه ﴿مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا﴾ بالأذى من أهل مكة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم في الدنيا منزلا حسنا ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي أن الجنة أعظم ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار ، أي لو علموا أن الله يمنح المهاجرين خير الدارين لوافقوهم ، أو للمهاجرين ، أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم ، أو للمتخلفين عن الهجرة ، أي لو علموا ما للمهاجرين من الكرامة لبادروا إلى الهجرة. وفي هذا ترغيب في الهجرة وفي طاعة الله تعالى ؛ لأنه بالهجرة قوي الإسلام.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ هم الصابرون على الشدائد من أذى المشركين ، والهجرة لإظهار الدين.

﴿وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي منقطعين إلى الله تعالى مفوضين إليه الأمر كله. ﴿إِلَّا رِجالاً﴾ لا ملائكة ، وهو رد لقول قريش : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا. وفي هذا دلالة واضحة أن النبوة لا تكون إلا في الرجال ، وليس في النساء نبية. ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ العلماء بالتوراة والإنجيل ، أي أهل الكتاب العالمين ﴿إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ، فإنهم يعلمونه ، وأنتم أقرب إلى تصديقهم من تصديق المؤمنين بمحمد ﷺ ﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ متعلق بمحذوف ، أي أرسلناهم بالبينات أي الحجج الواضحة ، والبينة : هي المعجزة الدالة على صدق الرسول ﴿الزُّبُرِ﴾ الكتب ، أي كتب الشرائع وتكاليف العباد ، جمع زبور ﴿الذِّكْرَ﴾ القرآن ، وسمي ذكرا ؛ لأنه موعظة وتنبيه ﴿لِتُبَيِّنَ

﴿لِلنَّاسِ﴾ لتوضح أسرار التشريع ﴿ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في القرآن من الحلال والحرام ، والتبيين : أعم من أن ينص على المقصود ، أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وإرادة أن يتأملوا فيه ، فيتنبهوا للحقائق ، ويعتبروا.

﴿مَكَرُوا﴾ المكرات السيئات ، والمكر : السعي بالفساد خفية ﴿السَّيِّئاتِ﴾ أي الأعمال التي تسوء عاقبتها ، وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء ، أو الذين مكروا بالنبي ﷺ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه ، كما ذكر في سورة الأنفال [٣٠] وراموا صد أصحابه عن الإيمان ﴿يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ مثلما فعل بقارون ، أي بأن يذهبهم ويغوّر بهم في أعماق الأرض. ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي من جهة لا تخطر ببالهم ، بأن يأتيهم العذاب بغتة من جانب السماء ، كما فعل بقوم لوط ، وكما أهلك المشركين في بدر ، ولم يكونوا يقدرون على النجاة.

﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في أسفارهم في البلاد للتجارة ، مثل قوله تعالى : ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٦]. ﴿فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار من العذاب ﴿تَخَوُّفٍ﴾ مع تخوف وتوقع للبلايا أو تنقص شيئا فشيئا في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا ، روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر : ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص ، فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال : نعم ، قال شاعر أبو كبير يصف ناقته :

تخوّف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السّفن [١]

فقال عمر : عليكم بديوانكم ، لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ له ظل كشجرة وجبل ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ﴾ يميل من جانب إلى جانب ، وقرئ تتفيؤا وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع ، والظلال : جمع ظل : وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس ﴿وَالشَّمائِلِ﴾ جمع شمال ، والمراد باليمين والشمائل : أي عن جانبي الشيء أول النهار وآخره. ﴿سُجَّداً لِلَّهِ﴾ أي خاضعين له بما يراد منهم ، والسجود : الانقياد والخضوع ﴿وَهُمْ﴾ الظلال ، نزلوا منزلة العقلاء ﴿داخِرُونَ﴾ صاغرون منقادون. ﴿مِنْ دابَّةٍ﴾ نسمة تدب على السماء والأرض ، أي تخضع له بما يراد منها ، وغلب في الإتيان بما : ما لا يعقل لكثرته ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتكبرون عن عبادته ﴿يَخافُونَ﴾ أي

---

(١) التامك القرد : اللحم المتراكم بعضه فوق بعض من السمن. والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسيّ.

الملائكة ، حال من ضمير ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ حال ، أي عاليا عليهم بالقهر والغلبة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٧].

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى موقف الكفار في إنكار البعث والقيامة ، الدال على التمادي في الغي والجهل والضلال ، أبان حكم الهجرة عن تلك الديار ورغب فيها ، تخلصا مما يقدم عليه أولئك الكفار من إيذاء المسلمين وإضرارهم وعقوبتهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في ستة من الصحابة : صهيب ، وبلال ، وعمار ، وخباب ، وعابس ، وجبير ، مولين لقريش ، فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام ، أما صهيب فقال لهم : أنا رجل كبير إن كنت لكم ، لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم ، لم أضركم ، فافتدى منهم بماله ، فلما رآه أبو بكر قال : ربح البيع يا صهيب ، وقال عمر : نعم الرجل صهيب ، لو لم يخف الله ، لم يعصه ، وهو ثناء عظيم ، يريد به: لو لم يخلق الله النار لأطاعه ، فكيف ظنك به ، وقد خلقها؟ وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الإسلام ، فتركوا عذابهم ، ثم هاجروا ، فنزلت هذه الآية[1].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال في هذه الآية : هؤلاء أصحاب محمد ﷺ ، أهل مكة ، فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، بوّأهم الله المدينة بعد ذلك ، فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين.

ثم ذكر الله تعالى الشبهة الخامسة لمنكري النبوة الذين قالوا : الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر ، بل لو أراد بعثة رسول إلينا ، لكان

---

(١) تفسير الرازي : ٢٠ / ٣٤

يبعث ملكا ، ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله تعالى وعادته أن يبعث رسولا من البشر.

ثم هددهم بخسف الأرض بهم ، أو بعذاب من السماء بغتة ؛ لأن لله قدرة كاملة في السماء والأرض ، والمخلوقات كلها تنقاد له وتخضع لأمره.

التفسير والبيان :

﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللهِ ..﴾ هذه الآية تحدد جزاء المهاجرين في سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان ، رجاء ثواب الله وجزائه ، والمعنى : والذين فارقوا ديارهم وأوطانهم ، وتركوا أموالهم وأولادهم في سبيل الله ، وحبا في إرضائه ، وذهبوا إلى ديار أخرى ، بعد أن ظلموا ، وأوذوا من الأعداء ، لننزلنهم في الدنيا دارا أو بلدة حسنة ، ومنزلة حسنة ، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم وعلى العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب. فالحسنة : هي المنزلة الطيبة والمسكن المرضي والموطن الأصلح وهو المدينة ، كما قال ابن عباس والشعبي وقتادة. وقال مجاهد : هي الرزق الطيب ، قال ابن كثير : ولا منافاة بين القولين ، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم ، فعوضهم الله خيرا منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئا لله ، عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك أصبحوا سادة العباد والبلاد.

فالحسنة : هي المنزلة الرفيعة المادية والمعنوية.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ ..﴾ أي وثوابهم في الآخرة على هجرتهم أعظم مما أعطيناهم في الدّنيا ؛ لأن ثوابه هو الجنة ذات النعيم الدائم الذي لا يفنى ، ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ : الضمير للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدّنيا والآخرة ، لرغبوا في دينهم. ويجوز أن يرجع الضمير إلى

المهاجرين ، أي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم. أو لو علم المتخلفون عن الهجرة معهم ما ادّخر الله لمن أطاعه واتّبع رسوله.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك ربّك في الدّنيا ، وما ذخر لك في الآخرة أكثر.

ثم وصفهم الله بقوله : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا ..﴾ أي هم الذين صبروا أو أعني الذين صبروا على الأذى من قومهم والعذاب ، وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وهو حرم الله ، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله ، وعناء السفر ومتاعب الغربة ، وتوكّلوا على ربّهم ، أي فوّضوا أمورهم إليه ، فأحسن عاقبتهم في الدّنيا والآخرة.

قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون سبب نزول الآية في مهاجرة الحبشة الذين اشتدّ أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ، ليتمكّنوا من عبادة ربّهم. ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عمّ الرّسول ﷺ ، وأبو سلمة بن عبد الأسود ، في جماعة قريب من ثمانين ، ما بين رجل وامرأة ، صدّيق وصدّيقة رضي الله عنهم وأرضاهم ، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدّنيا والآخرة [١] ، وهذا هو الصحيح في سبب نزول هذه الآية ، كما ذكر ابن عطية.

ثم أجاب الله تعالى عن الشّبهة الخامسة لمنكري النّبوة المذكورة في هذه السورة وهي بشريّة الرّسل ، فقال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ ..﴾ أي وما أرسلنا للناس رسولا من أهل السماء أي ملائكة ، وإنما أرسلنا رجالا من أهل الأرض نوحي إليهم أوامرنا ونواهينا ، فلم نرسل إلى قومك يا محمد إلا كما أرسلنا إلى

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٧٠

من قبلهم من الأمم ، أي رسلا من جنسهم وطبيعتهم : ﴿قُلْ : سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٣] ، ﴿قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ﴾ [الكهف ١٨ / ١١٠].

قال ابن عباس : لما بعث الله محمدا ﷺ رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ..﴾ الآية.

﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ..﴾ أي فاسألوا أهل العلم وأهل الكتب الماضية : أبشرا كانت الرّسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا.

﴿بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ ..﴾ أي أرسلناهم بالحجج والدلائل التي تشهد لهم بصدق نبوّتهم ، وبالكتب المشتملة على التّشريع الرّبّاني. والزّبر : جمع زبور أي كتاب ، تقول العرب : زبرت الكتاب : إذا كتبته ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٥] ، وقال تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر ٥٤ / ٥٢]. وفي الآية : ﴿بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ﴾ تقديم وتأخير ، أي ما أرسلنا من قبلك بالبيّنات والزّبر إلا رجالا ، أي غير رجال ، فكلمة ﴿إِلَّا﴾ بمعنى غير ، كقوله : لا إله إلا الله.

﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ..﴾ أي وكما أنزلنا الكتب إلى من قبلك يا محمد ، أنزلنا إليك القرآن ، لتبيّن للناس ما أنزل إليهم من ربّهم من الشرائع والأحكام والحلال والحرام وقصص الأمم الماضية التي أبيدت وأهلكت لتكذيبها الأنبياء ، لعلمك بمعاني ما أنزل الله عليك.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ومن أجل أن يتفكّروا وينظروا في حقائق الكون وأسرار الحياة وعبر التاريخ ، فيهتدون ، ويفوزون بالنّجاة في الدّارين.

وبعد فتح باب الأمل أمامهم ، حذّرهم تعالى سوء ما هم عليه من الكفر والعصيان ، فقال تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ ..﴾ أي إنه تعالى يخبر عن حلمه وإمهاله العصاة الذين يعملون السّيئات ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس في دعائهم لما هم عليه من الضلال. والمكر في اللغة : عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء.

والمعنى : أفأمن الذين مكروا السيئات برسول الله ﷺ وهم أهل مكة ، وحاولوا صدّ الناس عن الإيمان بدعوته ، أحد أمور أربعة :

الأول ـ أن يخسف بهم الأرض ، كما فعل بقارون.

الثاني ـ أو يأتيهم العذاب فجأة من حيث لا يشعرون به ، كما صنع بقوم لوط.

الثالث ـ أو يأخذهم في تقلّبهم في الليل والنهار أو في أسفارهم ومتاجرهم واشتغالهم في المعايش والأشغال الملهية ، فلا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

الرابع ـ أو يأخذهم على تخوّف أي في حال خوفهم بأن يهلك الله قوما ، فيتخوّفوا ، فيأخذهم بالعذاب ، وهم متخوفون متوقعون ، وهو خلاف قوله تعالى : ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ فإن العذاب المتوقّع مع الخوف الشديد أبلغ وأشدّ من حال المفاجأة ؛ لأن العقاب في حال الإرهاب ، وإنهاك الأعصاب ، وإخافة النفوس أشدّ من العقاب المفاجئ. وقيل : التّخوّف : التّنقص من الأموال والأرزاق ، والأنفس ، على لغة هذيل كما بيّنّا.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى لم يعجل بعذابهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة ؛ لأنه رؤف رحيم بعباده ، فترك لهم وقتا يتمكنون من تلافي التّقصير ، واستدراك الأخطاء ، والعدول عن الضّلال.

ثبت في الصحيحين : «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيهم» وثبت فيهما أيضا : «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [ود ١١ / ١٠٢]».

ونظير الآية : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٨].

والتّخويف والإنذار يناسبه التّذكير بالقدرة الإلهية الهائلة ، والعظمة والجلال والكبرياء الذي خضع له كلّ شيء ، فقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ ..﴾ أي ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من المخلوقات ذات الظلال كالجبال والأشجار والمباني والأجسام القائمة ، تتميل ظلاله من جانب إلى جانب ، ذات اليمين وهو المشرق ، وذات الشمال وهو المغرب ، وذلك بكرة وعشيّا أي في الغداة أول النهار ، وفي المساء آخر النّهار ، قال الأزهري : تفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار ، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي بعد ما انصرفت عنه الشمس ، والظّل : ما يكون بالغداة : وهو ما لم تنله الشمس. والخطاب في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لجميع الناس.

وقوله تعالى : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أراد : من شيء له ظلّ من جبل وشجر وبناء وجسم قائم ، بدليل ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ﴾ وهو الشيء الكثيف الذي يقع له ظلّ على الأرض.

وقوله تعالى : ﴿ظِلالُهُ﴾ أضاف الظلال إلى مفرد ، ومعناه : الإضافة إلى ذوي الضلال ، وإنما حسن هذا ؛ لأن الذي عاد إليه الضمير ، وإن كان واحدا في اللفظ وهو قوله تعالى : ﴿إِلى ما خَلَقَ اللهُ﴾ إلا أنه كثير في المعنى. ونظيره قوله تعالى : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف ٤٣ / ١٣] ، فأضاف الظهور . وهو

جمع ـ إلى ضمير مفرد ؛ لأنه يعود إلى واحد أريد به الكثرة ، وهو قوله تعالى : ﴿ما تَرْكَبُونَ﴾.

﴿سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ﴾ أي أن الظلال ساجدة لأمر الله وحده ، والسّجود : الانقياد والاستسلام ، وهم صاغرون خاضعون منقادون لله ، والدّخور : الصّغار والذّل ، لأن الظلال تتحوّل من جهة المشرق إلى جهة المغرب ، فهي في أول النهار من جهة المشرق ، ثم تتقلّص ، وتنتقل من حال إلى حال في آخر النهار ، مائلة إلى جهة المغرب ، وهذا الانتقال دليل على القدرة الإلهية.

وقوله تعالى : ﴿داخِرُونَ﴾ جمع بالواو ؛ لأن الدّخور من أوصاف العقلاء ، أو لأن في جملة ذلك من يعقل ، فغلب العقلاء.

ومجمل معنى الآية : أو لم ينظروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيّئة عن أيمانها وشمائلها ، أي عن جانبي كلّ واحد منها وشقّيه ـ استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء ـ ترجع الظلال من جانب إلى جانب ، منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التّفيؤ ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضا صاغرة منقادة لأفعال الله لا تمتنع [1].

وهذا في الجمادات ، ثم ذكر سجود الأحياء فقال : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ..﴾ أي ولله يخضع كلّ ما في السّموات والأرض من دابة تدبّ عليها ، وكذلك الملائكة ، والحال أنهم لا يستكبرون أبدا عن عبادته وعن أي شيء كلفوا به ، أو عن مراد الله فيما أراد ، فهم في تذلل وخضوع لله تعالى.

﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ ..﴾ يخاف هؤلاء الملائكة والدّواب الأرضية الذي خلقهم ،

---

(١) الكشاف : ٢ / ٢٠٥

وهو دائما من فوقهم بالقهر والغلبة ، ويفعلون أي الملائكة كلّ ما يؤمرون به ، فهم مثابرون على طاعته تعالى ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره. فالمراد بالفوقية : الفوقية بالرّتبة والشّرف والقدرة والقوة.

ونظير الآية كثير مثل : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ [الرّعد ١٣ / ١٥].

والخلاصة : إن على أهل مكة الماكرين بالنّبي وبالمؤمنين أن يحذروا عقاب الله ، فإن الله قادر على تعذيبهم عاجلا أو آجلا ، ودليل قدرته وعظمته وكبريائه خضوع كلّ شيء له في السّموات والأرض ، من جماد ونبات وحيوان وإنس وجنّ وملائكة.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات ما يأتي :

١ ـ جزاء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وصبروا على الأذى ، وتوكّلوا على ربّهم هو الموطن الأفضل ، والمنزلة الحسنة ، والعيشة الرّضية ، والرّزق الطّيّب الوفير ، والنّصر على الأعداء ، والسّيادة على البلاد والعباد ، وقد اجتمع لهم بفضل الله كل ذلك ، ولأجر دار الآخرة أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده.

٢ ـ في الآية تنويه بفضيلة الصّبر والتّوكل ، أما الصّبر فلما فيه من قهر النّفس ، وأما التّوكل فللعزوف عن الخلق والاتّجاه إلى الحقّ ، الأول هو مبدأ السّلوك إلى الله تعالى ، والثاني هو نهاية هذا الطريق.

٣ ـ دلّت آية ﴿وَما أَرْسَلْنا ..﴾ على أنه تعالى ما أرسل أحدا من النّساء ، ودلّت أيضا على أنه ما أرسل ملكا إلى الناس ، ولكن الله يرسل الملائكة رسلا إلى

سائر الملائكة ، ويرسل بعضهم بالوحي إلى الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ [فاطر ٣٥ / ١]. ورسل البشر هم دائما من الرّجال.

٤ ـ على العوام سؤال أهل الذّكر فيما لم يكونوا يعلمون به ، وأهل الذّكر : هم أهل العلم مطلقا ، سواء بأخبار الماضين ، إذ العالم بالشيء يكون ذاكرا له ، أو بالكتب السماوية السابقة ، أو بالقرآن. وبما أن أهل مكة كانوا مقرّين بأن اليهود والنّصارى أصحاب العلوم والكتب ، فأمرهم الله بأن يرجعوا في مسألة بشرية الرّسل إليهم ، ليبيّنوا لهم ضعف هذه الشّبهة وسقوطها ، فهم الذين يخبرونهم بأن جميع الأنبياء كانوا بشرا.

٥ ـ احتجّ بآية ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ من أجاز للمجتهد تقليد مجتهد آخر ، فقال : لما لم يكن أحد المجتهدين عالما ، وجب عليه الرّجوع إلى المجتهد الآخر الذي يكون عالما ، لقوله تعالى : ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فإن لم يجب فلا أقل من الجواز.

٦ ـ احتجّ نفاة القياس بهذه الآية أيضا : ﴿فَسْئَلُوا ..﴾ فقالوا : المكلّف إذا نزلت به واقعة ، فإن كان عالما بحكمها لم يجز له القياس ، وإن لم يكن عالما بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالما بها ؛ لظاهر هذه الآية ، ولو كان القياس حجة لما وجب عليه سؤال العالم ، لتمكّنه من استنباط الحكم بواسطة القياس. وأجيب بأنه ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة ، والإجماع أقوى من هذا الدّليل.

٧ ـ أرسل الأنبياء السابقون بالبيّنات والزّبر ، أي بالدّلائل والحجج الشاهدة بصدقهم ، وبالكتب المتضمنة تشريع الإله. وأنزل الذّكر أي القرآن على النّبي ﷺ ليبيّن للناس فيه ما أنزل إليهم من الأحكام والوعد والوعيد قولا وفعلا ، فالرّسول مبيّن عن الله عزّ وجلّ مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزّكاة وغيرها من أنظمة الحياة مما لم يفصّله القرآن.

٨ ـ اشتملت آية ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ﴾ أي بالسّيئات على وعيد للمشركين الذين احتالوا على تقويض أركان الإسلام بخسف الأرض كما خسفها بقارون ، أو بمفاجأتهم بالعذاب كما فعل بقوم لوط وغيرهم ، أو بأخذهم في تقلبهم أي في أثناء أسفارهم وتصرفاتهم ، وما هم بمعجزين الله ، أي سابقين الله ولا فائتيه ، أو بأخذهم في حال تخوّف وإرهاب ، أو على تنقّص من أموالهم ومواشيهم وزروعهم ، أي تنقص من الأموال والأنفس والثّمرات ، حتى أهلكهم كلّهم.

٩ ـ من أدلّة عظمة الله وكبريائه وقدرته سجود كلّ ما يدبّ على الأرض له ، وكذا الملائكة الذين في الأرض ، وخصّهم بالذّكر لشرف منزلتهم ، فكلّ جماد ونبات وحيوان وإنس وجنّ وملائكة يخضعون لله وينقادون لأمره ، ولا يستكبرون عن عبادة ربّهم ، ويخافون عقاب ربّهم وعذابه من فوقهم ، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء ، ويمتثلون كل ما يؤمرون به ، وهؤلاء هم الملائكة.

١٠ ـ استدلّ بعضهم بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من البشر ؛ لتخصيصهم بالذّكر ، ولأنهم لا يستكبرون عن عبادة ربّهم ، فليس في قلوبهم تكبّر وترفّع ، ولأنهم يفعلون ما يؤمرون ، مما يدلّ على أن أعمالهم خالية من الذّنب والمعصية ، ولأنهم خلقوا قبل البشر بأزمان مديدة وهم طائعون لله طوال هذه المدة ، ولا شيء فوقهم في الشرف والرتبة إلا الله تعالى.

مناقشة عقائد المشركين وأعمالهم القبيحة

﴿وَقالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (٥٣)

ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)﴾

الإعراب :

﴿واصِباً﴾ حال من ﴿الدِّينُ﴾ ، وعامله ﴿لَهُ﴾ الجار والمجرور الذي فيه معنى الظرف.

﴿وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ ما﴾ : شرطية ، أو موصولة متضمّنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول ، فإن استقرار النعمة بهم يكون سببا للإخبار بأنها من الله تعالى.

﴿وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ ما﴾ : مبتدأ وخبره ﴿لَهُمْ﴾ مقدم عليه ، أو معطوف بالنصب على ﴿الْبَناتِ﴾.

﴿سُبْحانَهُ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ ألسنة : جمع لسان ، واللسان يذكّر ويؤنث ، فمن ذكّر جمعه

على ألسنة ، ومن أنّث جمعه على ألسن ، والقرآن أتى بالتّذكير. و ﴿الْكَذِبَ﴾ : مفعول ﴿تَصِفُ﴾. ومن قرأ ﴿الْكَذِبَ﴾ بثلاث ضمّات ، كان مرفوعا على أنه صفة الألسنة.

البلاغة :

﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ فيه إفادة القصر ، أي لا تخافوا غيري ، وفيه التفات عن الغيبة إلى التّكلم ، مبالغة في التّرهيب والمهابة ، وتصريحا بالمقصود ، فكأنه قال : فأنا ذلك الإله الواحد ، فإياي فارهبون لا غيري. ويلاحظ وجود السّجع في أواخر الآيات ﴿فَارْهَبُونِ تَتَّقُونَ تَجْئَرُونَ يُشْرِكُونَ تَفْتَرُونَ ..﴾.

﴿فَتَمَتَّعُوا ..﴾ تهديد ووعيد.

﴿يَسْتَأْخِرُونَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صيغة مبالغة.

﴿سُبْحانَهُ﴾ اعتراض لتعجيب الخلق من هذا الجهل الفاضح القبيح.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ كلام بليغ بديع ، أي ألسنتهم كاذبة ، كقولهم : «عينها تصف السحر» أي ساحرة.

المفردات اللغوية :

﴿إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تأكيد. ﴿إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ﴾ فيه إثبات الألوهية والوحدانية. ﴿فَارْهَبُونِ﴾ خافون دون غيري ، وفيه التفات عن الغيبة. والرّهبة : الخوف. ﴿وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا. ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص. ﴿واصِباً﴾ دائما لازما ، كما قال تعالى : ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ [الصافات ٣٧ / ٩]. ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ أي مع أنه الإله الحق ولا إله غيره ، والاستفهام للإنكار والتّوبيخ. ﴿وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ أي وأي شيء اتّصل بكم من نعمة ، فهو من الله ، فلا نافع غيره ، ولا ضارّ سواه.

﴿مَسَّكُمُ﴾ أصابكم. ﴿الضُّرُّ﴾ كالفقر والمرض. ﴿تَجْئَرُونَ﴾ تتضرّعون لكشفه أو ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والدّعاء ، ولا تدعون غيره. والجؤار : رفع الصوت في الدّعاء والاستغاثة. ﴿إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ﴾ وهم كفاركم. ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ﴾ من النّعمة ، أي كأنهم قصدوا بشركهم كفران النّعمة ، وإنكار كونها من الله تعالى. ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعكم على عبادة الأصنام ، وهو أمر تهديد. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك وأغلظ وعيده.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي المشركون. ﴿لِما لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم التي لا علم لها ؛ لأنها جماد ، أو لما

لا يعلمون أنها تضرّ ولا تنفع ، وهي الأصنام. ﴿نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ﴾ من الزروع والأنعام ، بقولهم: ﴿هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٦] ﴿تَاللهِ لَتُسْئَلُنَ﴾ سؤال توبيخ ، وفيه التفات عن الغيبة. ﴿تَفْتَرُونَ﴾ تكذبون على الله من أنه أمركم بذلك ، وأنها آلهة حقيقة بالتّقرب إليها ، وهو وعيد لهم عليه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ﴾ بقولهم : الملائكة بنات الله ، كانت خزاعة وكنانة يقولون : إن الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحانَهُ﴾ تنزيها له عن النقائص ، أو تنزيها له من قولهم أو تعجّبا منه ومما زعموا. ﴿وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ﴾ أي يشتهونه ، وهم البنون ، والمعنى : يجعلون له البنات التي يكرهونها ، وهو منزّه عن الولد ، ويجعلون لهم الأبناء الذين يختارونهم ، فيختصون بالأسنى الأرفع ، كقوله تعالى : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ ، وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾؟ [الصافات ٣٧ / ١٤٩].

﴿وَإِذا بُشِّرَ﴾ البشارة : إلقاء الخبر المؤثر في تغير الوجه ، ويكون في السّرور والحزن ، وجاءت الآية في الثاني (الحزن) ثم خصّ عرفا بالخبر السّارّ. ﴿ظَلَ﴾ صار ﴿مُسْوَدًّا﴾ متغيّرا ، وهو كناية عن الاغتمام من الكآبة والحياء من الناس. ﴿كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غمّا وغيظا وحزنا. ﴿يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم أي من قومه. ﴿مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ﴾ من سوء المبشر به عرفا ، خوفا من التغيير ، مترددا فيما يفعل به. ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ﴾ أيتركه بلا قتل ، بهوان وذلّ ، والإمساك هنا : الحبس. ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ﴾ أي يواريه في التّرب أو يئده ، وذكر ضمير يمسكه ويدسّه ؛ لأنه عائد على ﴿ما﴾ في قوله تعالى : ﴿ما بُشِّرَ بِهِ﴾. ﴿ساءَ﴾ بئس. ﴿ما يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا ، حيث نسبوا لخالقهم البنات اللاتي هنّ عندهم بهذا التقدير.

﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي الكفار. ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي الصفة السوء بمعنى القبيحة ، وهي اشتهاء الذكور استظهارا بهم ، وكراهة الإناث ووأدهنّ خشية الإملاق أو الفقر والعار ، مع احتياجهم إليهن للزواج. ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى﴾ أي الصفة العليا ، وهي أنه لا إله إلا هو ، واتّصافه بجميع صفات الجلال والكمال ، فله الوجوب الذاتي ، والغنى المطلق ، والجود الفائق ، والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القوي في ملكه ، المتفرد بكمال القدرة. ﴿الْحَكِيمُ﴾ المتّصف بكمال الحكمة في صنعه وخلقه.

﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بالمعاصي. ﴿ما تَرَكَ عَلَيْها﴾ على الأرض. ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ نسمة تدبّ عليها. ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه. ﴿وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه ، بل هلكوا وعذبوا حينئذ لا محالة ، وإضافة الظلم للناس الدّال على العموم : لا يلزم أن يكونوا كلهم ظالمين ، حتى الأنبياء عليهم السلام ، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم ، وصدر عن أكثرهم. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ﴾ أي ينسبون لله ما هو قبيح لأنفسهم من البنات ، والشريك في الرّياسة ، وإهانة الرّسل ، وخبائث الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ مع ذلك ، أي يكذبون ، كما يقال : عينها تصف السحر ، أي هي

ساحرة ، وقدّها يصف الهيف ، أي هي هيفاء. وكذبهم هو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى﴾ عند الله ، أي الجنة ، لقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ [فصلت ٤١ / ٥٠]. ﴿لا جَرَمَ﴾ حقّا. ﴿مُفْرَطُونَ﴾ متركون فيها أو مقدّمون إليها ، معجّلون بهم إليها. وعلى قراءة كسر الراء : أي متجاوزون الحدّ.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أنّ كل ما سوى الله منقاد خاضع لجلاله وكبريائه وسلطانه ، أتبع ذلك بأمور ثلاثة :

أولها ـ النّهي عن الشّرك ، وأن كلّ ما سواه فهو ملكه ، وأنه غني عن الكلّ ، وأن الناس مذبذبون ، فإذا أصابهم الضّرّ تضرّعوا إلى الله تعالى ، وإذا كشفه عنهم ، عادوا إلى الكفر والشرك.

ثانيها ـ بيان قبائح أفعال المشركين ، بعد إيراد سخف أقوالهم وفسادها.

ثالثها ـ إمهال هؤلاء الكفار ، وحلم الله عليهم ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة ، بالرّغم من عظيم كفرهم ، وقبيح أفعالهم ، إظهارا للفضل والرّحمة والكرم.

التفسير والبيان :

بما أنه ثبت في الآيات السالفة خضوع كل ما في الكون لله تعالى ، فذلك دليل قاطع على وحدانية الله ، لذا أخبر تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كلّ شيء وخالقه وربّه ، فقال تعالى :

﴿وَقالَ اللهُ : لا تَتَّخِذُوا ..﴾ أي وقال الله تعالى للناس : لا تتخذوا إلهين اثنين ، أي لا تتخذوا لي شريكا ، ولا تعبدوا سواي ، فمن عبد مع الله غيره فقد أشرك به ، إنما هو الله إله واحد ، ومعبود واحد ، فاتّقوني وخافوا عقابي بالإشراك وعبادة سواي.

وإنما ذكر ﴿اثْنَيْنِ﴾ بعد قوله ﴿إِلَهَيْنِ﴾ لتأكيد التنفير عن التعدد ، والدّلالة على أن المنهي عنه هي الاثنينية. وكان ذكر ﴿واحِدٌ﴾ بعد قوله ﴿إِلهٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية ، أما الألوهية فلا خلاف ولا نزاع فيها. وجاء بهذه العبارة ﴿إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ﴾ بعد ثبوت الإله ونفي التعدّد للدلالة على أنه لما ثبت وجود الإله وأنه لا بدّ للعالم من الإله ، وثبت أن القول بوجود الإلهين محال ، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الفرد الصّمد.

والخلاصة مما ذكر : أن لا إله إلا الله وحده ، وأن العبادة لا يستحقها سواه.

﴿وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ ..﴾ أي لما كان الإله واحدا ، والواجب لذاته واحدا ، كان كل ما سواه حاصلا بخلقه وتكوينه وإيجاده ، فلله جميع ما في السموات والأرض ملكا وخلقا وعبيدا ، فهو خالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ، وهم عبيده ومملوكوه ، وله الدّين واصبا ، أي له الطاعة والانقياد والعبادة على سبيل الدوام والاستمرار ، فالدّين هنا : الطاعة ، والواصب : الدائم. وقيل : الواصب : الواجب اللازم أبدا.

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ أي إنكم بعد ما عرفتم أن إله العالم واحد ، وعرفتم أن كلّ ما سواه محتاج إليه في وقت حدوثه ، ومحتاج إليه أيضا في وقت دوامه وبقائه ، فكيف يعقل الرغبة في غير الله أو رهبة غير الله تعالى؟ وهذا مقول على سبيل التّعجب.

﴿وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ ..﴾ وإذا كان الواجب ألا يتقى غير الله ، فالواجب ألا يشكر غير الله ؛ إذ ما من نعمة بكم من إيمان وسلامة جسد وعافية ، ورزق ونصر ونحو ذلك إلا وهي من الله عَزَّوَجَلَّ ومن فضله وإحسانه.

فدلّت الآية على أن العاقل يجب عليه ألا يخاف وألا يتقي أحدا إلا الله ، وألا يشكر أحدا إلا الله تعالى ، فجميع النّعم من الله تعالى.

وكذلك لا يدفع الضّرّ إلا الله بقوله : ﴿ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ..﴾ أي إذا تعرّضتم لسوء أو ضرر في أنفسكم من مرض أو خوف أو مشقة ، ونحوها من الضرورات ، فإليه تلجؤون وتسألون وتدعون ، وتلحون في الرّغبة إليه والاستغاثة به لكشف ذلك عنكم ، لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو.

وهذا كقوله تعالى : ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٧].

﴿ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ ..﴾ أي ثم إذا كشف الضّرّ عنكم ، وأزال المخاوف ، ووهبكم النعمة والسلامة والعافية ، وفرج البلاء عنكم ، إذا أنتم تفترقون فريقين ، ففريق منكم يبقى على ما كان عليه من الإيمان ، فلا يفزع إلا إلى الله تعالى ، وفريق منكم عند ذلك يتغيرون ، فيشركون بالله غيره في العبادة ، وهذا مثار عجب من فعل هؤلاء ، حيث يقابلون النعمة بالنقمة ، والشكر بالشرك بالله تعالى. والجؤار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة.

﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ﴾ هذه اللام إما لام التعليل ، أي قيضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم ، والمعنى : أنهم أشركوا بالله غيره في كشف الضّر عنهم ، وغرضهم من الإشراك أن ينكروا كون ذلك الإنعام من الله تعالى.

وإما لام العاقبة (الصيرورة) أي أن عاقبة تلك التضرّعات ما كانت إلا هذا الكفر ، كقوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ [القصص ٢٨ / ٨].

ثم توعّدهم وهدّدهم قائلا : ﴿فَتَمَتَّعُوا ..﴾ أي اعملوا ما شئتم ، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا في الحياة الدّنيا ، فسوف تعلمون عاقبة تمتعكم ، وما ينزل بكم من العذاب ، وتدركون سوء ما أنتم عليه. وهذا الأمر التهديدي مثل قوله تعالى :

﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف ١٨ / ٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ : آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠٧].

ثم أخبر الله تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام بغير علم ، وجعلوا للأنداد نصيبا مما رزقهم الله ، فقال تعالى :

١ . ﴿وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ ..﴾ أي ويجعل هؤلاء المشركون للأصنام التي لا يعلمون حقيقتها أنها جماد لا يضرّ ولا ينفع ، فهم إذن جاهلون بها ، يجعلون لها نصيبا مع الله تعالى ، مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرها يتقرّبون به إلى الله تعالى ، ونصيبا يتقرّبون به إليها ، كما قال تعالى عنهم : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً ، فَقالُوا : هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ، وَهذا لِشُرَكائِنا ، فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ ، وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٦].

ثم توعّدهم الله على أفعالهم مقسما بنفسه الكريمة فقال : ﴿تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي أقسم لأسألنكم عن ذلك الذي افتريتموه من الباطل ، ولأجازينكم عليه أوفر الجزاء في نار جهنم ، كما قال تعالى : ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر ١٥ / ٩٢ . ٩٣]. وهذا سؤال توبيخ وتأنيب وتقريع لهم على إثمهم وجرمهم.

٢ . ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ ..﴾ أي ومن جهل المشركين وإفكهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرّحمن بنات الله ، فعبدوها مع الله تعالى ، إذ قالت خزاعة : الملائكة بنات الله ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً﴾ [الزّخرف ٤٣ / ١٩] ، فأخطؤوا خطأ كبيرا ، إذ نسبوا إليه تعالى الولد ، ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ، وإنما يرضون الذّكور ، كما قال تعالى : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ

﴿الْأُنْثى ، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾ أي جائرة [النّجم ٥٣ / ٢١ ـ ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : وَلَدَ اللهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ؟ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٥١ ـ ١٥٤] ، نزلت في خزاعة وكنانة ، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى ، فكانوا يقولون : ألحقوا البنات بالبنات.

وهنا قال تعالى : ﴿وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين ، أي أنهم يختارون لأنفسهم الذّكور ، ويأنفون من البنات التي نسبوها إلى الله تعالى ، تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا. وهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور ٥٢ / ٣٩].

ثم عاب الله تعالى على العرب تبرمهم بالبنات فقال : ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ..﴾ أي وإذا بشّر أحد هؤلاء العرب الذين جعلوا لله البنات بولادة أنثى ، ظلّ وجهه مسودّا أي كئيبا من الهمّ ، وهو كظيم ، أي ساكت من شدّة ما هو فيه من الحزن ، يتوارى من القوم ، أي يكره أن يراه الناس ، من مساءة ما بشّر به ، هل يمسك المولود الأنثى على هوان وذلّ وعار وفقر ، أم يدفنها في التراب وهي حيّة ، وذلك هو الوأد المذكور في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير ٨١ / ٨ ـ ٩].

﴿أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما قالوا ، وبئس ما قسموا ، وبئس ما نسبوه إلى الله تعالى ، وهو كقوله تعالى : ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ، ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ، وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف ٤٣ / ١٧].

والتبشير عرفا : مختصّ بالخبر الذي يفيد السّرور ، إلا أنه بحسب الأصل في اللغة : عبارة عن الخبر الذي يؤثر في تغير بشرة الوجه ، وكلّ من السّرور والحزن يوجب تغيّر البشرة.

وذكر ضمير ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ لأنه عائد على ﴿ما﴾.

ثم أجمل الله تعالى موقف المشركين حول هذا الأمر ، فقال :

﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ..﴾ أي للذين لا يصدّقون بالحياة الآخرة وما فيها صفة السّوء التي هي كالمثل في القبح ، أي لهم صفة النّقص بما ينسب إليهم ، وهي الحاجة إلى الأولاد الذّكور ، وكراهة الإناث ، ووأدهن خشية الإملاق ، والإقرار على أنفسهم بالشّح البالغ.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى﴾ أي وله تعالى الصفة العليا ، والكمال المطلق ، فهو الواحد المنزّه عن الولد والوالد والشريك ، وهو الغني عن العالمين ، والمنزّه عن صفات المخلوقين ، وهو الجواد الكريم ، أي فله الكمال المطلق من كل وجه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو القوي الذي لا يغلب ، الحكيم في صنعه الذي لا يفعل إلا بما تقتضيه الحكمة السديدة.

وبعد أن حكى الله تعالى عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح قولهم ، بيّن أنه يمهل هؤلاء الكفار ، ولا يعاجلهم بالعقوبة ، فضلا منه ورحمة وكرما ، فقال :

﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ..﴾ هذا إخبار عن حلمه تعالى بخلقه ، مع ظلمهم ، فلو أنه يؤاخذهم بذنوبهم ومعاصيهم ويعاقبهم على جرمهم فورا ، ما ترك على ظهرها من دابة ، أي لأهلك جميع دواب الأرض ، تبعا لإهلاك بني آدم ، ولكنه جلّ جلاله حليم ستّار غفور رحيم ، يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فلا يعاجلهم بالعقوبة ؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدا.

روى البيهقي عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه ، فقال : بلى والله ، حتى إن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم.

وعن ابن مسعود ﷺ : كاد الجعل [١] يهلك في جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ الآية : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ ..﴾ وهذا مروي أيضا عن أبي الأحوص.

﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ...﴾ أي ولكن بحلمه تعالى يؤخر هؤلاء الظلمة والعصاة ، فلا يعاجلهم بالعقوبة ، إلى أجل سمّاه الله لعذابهم ، فإذا حان وقت هلاكهم ، لا يستأخرون عن الهلاك ساعة ، ولا يتقدّمون قبله ، حتى يستوفوا أعمارهم.

روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء ﷺ قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : «إن الله لا يؤخر شيئا إذا جاء أجله ، وإنما زيادة العمر بالذريّة الصالحة ، يرزقها الله العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم في قبره ، فذلك زيادة العمر».

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ﴾ أي وينسبون إلى الله ما يكرهون لأنفسهم من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيد الله ، وهم يأنفون أن يكون لأحدهم شريك في ماله ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي ويكذبون في دعواهم أن لهم العاقبة الحسنة في الدّنيا وفي الآخرة وهي الجنة على هذا العمل. روي أنهم قالوا : إن كان محمد صادقا في البعث ، فلنا الجنة بما نحن عليه ، فردّ الله عليهم مقالهم بقوله : ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ، وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ أي حقّا أن لهم النار ، وأنهم متروكون فيها أو معجل بها إليهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أبانت الآيات الأحكام التالية :

---

(١) الجعل مفرد جعلان : دابة سوداء من دوابّ الأرض.

١ ـ النّهي عن تعدّد الآلهة أو الشّرك ، والأمر بالوحدانية والتّوحيد ؛ لأن الإله الحقّ لا يتعدّد ، وأن كل من يتعدّد فليس بإله ، والله تعالى واحد في ذاته المقدّسة ، فقد قام الدّليل العقلي والشّرعي على وحدانيته تعالى.

٢ ـ ترتب على وحدانية الله أنه المستحق للعبادة ، فلا يعبد سواه ، ولا يخاف غيره.

٣ ـ وترتب على الوحدانية أن كلّ ما سوى الله في السموات والأرض فهو مملوك له ، لأنه مخلوق منه ، متكون موجود به ، فلا يكون الدين ، أي الطاعة والإخلاص لله دائما ، ولا يتقى غير الله تعالى.

٤ ـ جميع النعم من الله تعالى ، سواء المادية كالرّزق والسّلامة والصّحة ، أو المعنوية كالأمان والجاه والمنصب ونحوها.

٥ ـ لا يجد الإنسان ملجأ لكشف الضّرّ عنه في وقت الشدائد والكروب إلا الله تعالى ، فيضجّ بالدّعاء إليه ، لعلمه أنه لا يقدر أحد على إزالة الكرب سواه.

٦ ـ التعجيب من حال الإنسان بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار (رفع الصوت والتضرع بالدّعاء إلى الله) فهو يعود إلى الإشراك بعد النجاة من الهلاك. وهذا المعنى مكرر في القرآن الكريم. وقد أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كي ، وقيل : لام العاقبة.

٧ ـ تهديد هؤلاء الكفار بالتمتع بمتاع الحياة الدّنيا ، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم.

٨ ـ هناك نوع آخر من جهالات المشركين ، وهو أنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه جماد يضرّ وينفع ، وهي الأصنام ، شيئا من أموالهم يتقرّبون به إليه. فيكون ضمير ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عائدا للمشركين ، وقيل : إنه عائد للأوثان ، أي ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئا نصيبا.

ولكن الله ﷻ يسألهم سؤال توبيخ عن افترائهم واختلاقهم الكذب على الله أنه أمرهم بهذا.

٩ ـ ومن جهالاتهم نسبة البنات إلى الله تعالى ، ونسبة البنين لأنفسهم وأنفتهم من البنات.

١٠ ـ ومن جهالاتهم تغيّر وجوههم حزنا وغمّا بالبنت ، واختفاء الواحد منهم وتغيبه عن مواجهة القوم من شدّة الحزن وسوء الخزي والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت. وكان بعض العرب يدفنون بناتهم أحياء في التراب ، مثل خزاعة وكنانة ، قال قتادة : كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدّهم في هذا تميم. زعموا خوف الفقر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهنّ.

وقد حرم الإسلام الوأد ، وأوجب الإحسان إلى البنات ، روى مسلم في صحيحة عن عائشة رضي الله عنها أنّ النّبيّ ﷺ قال : «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهنّ ، كنّ له سترا من النّار» ففي الصّبر عليهنّ والإحسان إليهنّ ما يقي من النّار. وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو» وضمّ أصابعه. وروى أبو يعلى الحافظ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من كانت له بنت فأدّبها ، فأحسن أدبها ، وعلّمها فأحسن تعليمها ، وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه ، كانت له سترا أو حجابا من النّار».

١١ ـ بئس ما حكم به أهل الجاهلية من إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم ، وقد استاؤوا من البنات أشدّ الاستياء ؛ لأن الواحد منهم يسودّ وجهه بولادة البنت ، ويختفي عن القوم من شدّة نفوره من البنت ، ويقدم على قتلها.

١٢ ـ لهؤلاء الواصفين لله البنات مثل السّوء ، أي صفة السّوء من الجهل والكفر ، ولله المثل الأعلى أي الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد ، ووصفه بما لا شبيه له ولا نظير ، جلّ الله تعالى عمّا يقول الظالمون والجاحدون علوّا كبيرا.

١٣ ـ من فضل الله ورحمته وكرمه أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة ، ليترك الفرصة لهم للإيمان والتوبة. قال ابن مسعود وقرأ هذه الآية : لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين ، لأصاب العذاب جميع الخلق ، حتى الجعلان في حجرها ، ولأمسك الأمطار من السماء ، والنبات من الأرض ، فمات الدّواب ، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل ؛ كما قال : ﴿**وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ**﴾ [المائدة ٥ / ١٥] ، وقال : ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ، لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً**﴾ [الكهف ١٨ / ٥٨].

١٤ ـ إن أجل موت الإنسان ومنتهى عمره لا يتقدّم ولا يتأخّر ساعة واحدة أو لحظة واحدة.

وتعميم الهلاك مع أن في الناس مؤمنين ليسوا بظلمة ، بجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن معوّضا بثواب الآخرة. جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا أراد الله بقوم عذابا ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على نيّاتهم» أو «على أعمالهم».

١٥ ـ ينسب المشركون لله البنات ، وتقول ألسنتهم الكذب أن لهم الجزاء الحسن ، والحق أن لهم النار ، وأنهم متركون منسيّون في النّار ، أو معجّلون إلى النار ، مقدّمون إليها.

عادة الأمم في تكذيب الرسل ومهمة النبي في تبيان القرآن

وجعله هدى ورحمة

﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)﴾

الإعراب :

﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ منصوبان على المفعول لأجله.

المفردات اللغوية :

﴿أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ﴾ رسلا. ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ السيئة ، فرأوها حسنة ، فأصروا على قبائحها ، وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ متولي أمورهم ، وناصرهم ومساعدهم ، والضمير يعود إلى الأمم. ﴿الْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا ، وقيل : يوم القيامة ، على حكاية الحال الآتية ، أي لا ولي لهم غيره ، وهو عاجز عن نصر نفسه ، فكيف ينصرهم؟! ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم في الآخرة. ﴿الْكِتابَ﴾ القرآن. ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس. ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من أمر الدين كالتوحيد ، والقدر ، وأحوال المعاد ، وأحكام الأفعال. ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على محل ﴿لِتُبَيِّنَ﴾.

المناسبة :

بعد أن فنّد الله تعالى فساد عقائد المشركين وأقوالهم ، وأمهلهم العذاب ، سلّى رسولهﷺ عما كان يناله من أذى قومه ، ونسبتهم إلى الله ما لا يجوز ، بإخباره بإرسال الرسل إلى الأمم المتقدمة ، مقسما على ذلك ، ومؤكدا بالقسم ، وب «قد» التي تقتضي تحقيق الأمم ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، من تماديهم على

الكفر ، فهو وليهم اليوم ، حكاية حال ماضية ، أي لا ناصر لهم في حياتهم إلا هو ، أو حكاية حال آتية ، وهي يوم القيامة ، فلا تحزن لتكذيبهم ، فلست بدعا من الرسل ، وليس قومك منفردين بالعتو والاستكبار.

وناسب ذلك بيان مهمة النبي ﷺ وهي تبيان أحكام القرآن للمختلفين وهم أهل الملل والأهواء ، وتوضيح ما اختلفوا فيه وهو الدين ، مثل التوحيد والشرك ، والجبر والقدر ، وإثبات المعاد ونفيه ، وأحكام الدين مثل تحريمهم أشياء حلال كالبحيرة والسائبة ، وتحليل أشياء حرام كالميتة.

التفسير والبيان :

هذه الآية تسلية من الله لرسوله عما يناله من الحزن بسبب جهالة قومه وإعراضهم عن رسالته ، فقال : ﴿**تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا ..**﴾ أي والله لقد أرسلنا رسلا إلى الأمم الخالية من قبلك ، فكذبت الأمم رسلها ، وحسّن لهم الشيطان أعمالهم من الكفر وعبادة الأوثان ، فهو وليهم اليوم ، أي هم رازحون تحت العذاب والنكال.

ووليهم اليوم ، أي ناصرهم في الدنيا ، على زعمهم ، حكاية للحال القائمة ولكن لهم عذاب مؤلم في الآخرة ، فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا. وقيل : ﴿**فَهُوَ وَلِيُّهُمُ**﴾ أي قرينهم في النار يوم القيامة ، حكاية للحال الآتية ، وهي حال كونهم معذبين في النار ، أي فهو ناصرهم اليوم ، لا ناصر لهم غيره ، نفيا للناصر لهم على أبلغ الوجوه ، وأطلق على يوم القيامة اسم ﴿**الْيَوْمَ**﴾ لشهرته.

وبئس الناصر المعين الذي لا يملك لهم خلاصا ، ولا يستطيع إنقاذا لهم ، ولهم في الآخرة عذاب شديد الألم ؛ إذ لا تنفعهم ولاية الشيطان.

فلا تحزن يا محمد على تكذيب قومك لك ، فلك أسوة بالمرسلين قبلك ، ودع

المشركين الذين كذبوا الرسل ؛ فإنما وقعوا فريسة لتزيين الشيطان لهم ما فعلوه.

ثم أبان الله تعالى أن الهلاك لا يكون إلا بعد بيان الحجة. فقال :

﴿وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ ..﴾ أي إنما أنزلنا عليك القرآن لهدف واضح ، وهو أن تبين للناس الذي يختلفون فيه في العقائد والعبادات ، فيعرفوا الحق من الباطل ، والقرآن فاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه ، وهو هدى للقلوب الحائرة أو الضالة ، ورحمة لقوم يصدقون به ، ويتمسكون به.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى على أن سنة الله في عباده منذ القديم إرسال الرسل بالحجة الواضحة والبيان الشافي ، وما محمد ﷺ إلا كغيره من الرسل.

وشأن الأمم تكذيب المرسلين ، لتأثرهم بتزيين الشيطان أعمالهم ، وإغوائهم ، وصرفهم عن إجابة أنبيائهم.

وهكذا كان موقف كفار مكة ، أغواهم الشيطان ، كما فعل بكفار الأمم قبلهم.

ولكن سيتلقى هؤلاء الكفار جميعا جزاء أوفى وعذابا أليما في نار جهنم ، ولن يكون لهم ولي ولا ناصر ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

ودلت الآية الثانية على أن مهمة النبي ﷺ هي تبيان ما جاء في القرآن ، وبيان ما اختلف فيه أهل الملل والأهواء من الدين والأحكام ، فتقوم الحجة عليهم ببيانه. أما الدين المختلف فيه فهو مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر ، وإثبات المعاد ونفيه. وأما الأحكام فهي مثل تحريم أشياء تحل شرعا كالبحيرة والسائبة وغيرهما ، وتحليل أشياء تحرم كالميتة.

والقرآن تبيان للناس وهدى أي رشد ، ورحمة للمؤمنين به.

من دلائل القدرة الإلهية والتوحيد ومظاهر النعم على الناس

﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْ نِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾

الإعراب :

﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ الهاء تعود على ﴿الْأَنْعامِ﴾ ، على لغة من ذكّره ، فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث ، كما جاء في سورة المؤمنون : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها﴾ [٢٣ / ٢١] فقد ذكّر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال ، كقولهم : ثوب أكياش ، ولذلك رجع الضمير إليه هنا مفردا ، وأما في سورة المؤمنين فلأن معناه الجمع.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ الهاء تعود على موصوف محذوف ، وتقديره : ما تتخذون منه. وما : مبتدأ ، وتتخذون جملة فعلية صفة ل «ما». وحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، كقوله تعالى : ﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٦٤] أي إلا من له مقام معلوم ، وتقديره : إلا ملك له مقام.

﴿ذلِكَ﴾ حال من السبل.

﴿فِيهِ شِفاءٌ﴾ الهاء تعود إلى الشراب ، أو إلى القرآن. و ﴿شِفاءٌ﴾ يرتفع بالظرف على كلا المذهبين ، إذا جعل وصفا لشراب ، كما ارتفع ألوانه بمختلف ؛ لأنه وصف للشراب.

البلاغة :

﴿كُلِي مِنْ كُلِ﴾ فيهما جناس ناقص.

﴿يَسْمَعُونَ يَعْقِلُونَ يَعْرِشُونَ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها سجع.

المفردات اللغوية :

﴿فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي أحياها بإنبات الزرع والشجر وإخراج الثمر. ﴿بَعْدَ مَوْتِها﴾ يبسها. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَآيَةً﴾ دالة على البعث. ﴿يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وفهم.

﴿الْأَنْعامِ﴾ الإبل والبقر والغنم. ﴿لَعِبْرَةً﴾ اعتبارا وعظة ، وأصل العبرة : تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة والمشابهة. ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ بيان للعبرة. ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي الأنعام. ﴿مِنْ بَيْنِ﴾ من للابتداء متعلقة ب ﴿نُسْقِيكُمْ﴾. ﴿فَرْثٍ﴾ خلاصة المأكول في الكرش والأمعاء. ﴿خالِصاً﴾ مصفى من الشوائب ، لا يشوبه شيء من الفرث والدم من طعم أو ريح أو لون ، وهو بينهما. ﴿سائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور في الحلق ، لا يغص به. ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ أي تمر تتخذون منه ﴿سَكَراً﴾ خمرا يسكر ، سميت بالمصدر ، وهذا قبل تحريمها وفي أول مراحل التحريم ، لأنه وصف الرزق بالحسن ، ولم يوصف السكر بذلك. ﴿وَرِزْقاً حَسَناً﴾ جميع ما يؤكل طازجا أو غير متخمر من هاتين الشجرتين كالعنب والزبيب والتمر والخل والدبس. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَةً﴾ دالة على قدرته تعالى. ﴿يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون.

﴿وَأَوْحى﴾ ألهم وعلم ، كالطبيعة والغريزة في الحيوان. ﴿أَنِ اتَّخِذِي﴾ أن مفسرة أو مصدرية. ﴿بُيُوتاً﴾ تأوين إليها ، أي أوكارا. ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ بيوتا. ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي مما يبنيه الناس لك من الأماكن ، أي يصنعونه من الخلايا من طين أو خشب أو غيرهما. ﴿فَاسْلُكِي﴾ ادخلي. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ طرقه ومسالكه لامتصاص الأزهار والثمار وغيرها وتحويلها بقدرة الله عسلا طيبا. ﴿ذُلُلاً﴾ جمع ذلول أي مسخرة لك ، منقادة طائعة لا تتوعر عليك ولا تلتبس ، وهو حال من السبل ، أي لا تعسر عليك وإن توعرت ، ولا تضل عن العود منها وإن بعدت. ﴿شَرابٌ﴾ هو العسل ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ﴾ من أبيض وأصفر وأحمر وأسود ، بحسب نوع المرعى ﴿فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ﴾ من الأوجاع ، إما بعضها بدليل تنكير كلمة ﴿شِفاءٌ﴾ كالأمراض البلغمية ، وإما كلها مع ضميمة غيره إليه ، كسائر الأمراض ، إذ قلما يكون معجون إلا والعسل جزء منه.

وقيل : الضمير يعود للقرآن.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتأملون في صنعه تعالى ، فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر ، علم قطعا أنه لا بد من وجود قادر حكيم يلهمها ذلك ، ويحملها عليه.

المناسبة :

بعد بيان وعد المؤمنين بالجنان ، والكافرين بالنيران ، وتسلية النبي ﷺ عما ناله من أذى قومه ، ونسبة الشرك إلى الله ، وحصر مهمته في بيان أحكام القرآن ، عاد تعالى إلى إثبات قدرته ووجوده ووحدانيته بدلائل حسية مشاهدة لكل راء أمامه صباح مساء ، من إنبات الزرع والشجر بالمطر ، وإخراج اللبن من الأنعام ، واتخاذ أصناف المآكل من الأعناب والنخيل ، وإخراج العسل من بطون النحل ، الذي فيه شفاء للناس.

قال الإمام أبو عبد الله محمد فخر الدين بن عمر الرازي : إن المقصود الأعظم من القرآن العظيم تقرير أصول أربعة : الإلهيات ، والنبوات ، والمعاد ، وإثبات القضاء والقدر ، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة : الإلهيات ، فابتدأ تعالى في أول هذه السورة بذكر دلائل الإلهيات ، وهي الأجرام الفلكية ، ثم أردف ذلك بالإنسان ، ثم الحيوان ، ثم النبات ، ثم أحوال البحر والأرض ، ثم عاد إلى تقرير دلائل الإلهيات ، فبدأ بذكر الفلكيات ، فقال : ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ...﴾[1].

التفسير والبيان :

بعد أن جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك أخبر أنه يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ، فقال : ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٠ / ٦٣

أي أنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ، الذي يكون سببا لحياة الأرض بإنبات الزرع والشجر والثمر ، بعد أن كانت الأرض ميتة لا حياة فيها ولا ثمر ولا نفع.

إن في ذلك لآية واضحة ودليلا قاطعا على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته لمن يفهمون الكلام ويدركون معناه ، بسماع التدبر والإمعان ، لا بمجرد سماع الآذان. فهذا دليل حسي على توحيد الإله ، وتخصيصه بالعبادة ، وإفراده بالألوهية.

وهناك دليل آخر على قدرة الله الباهرة ، وهو إخراج اللبن من الضرع ، فقال تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ ..﴾ أي وإن لكم أيها الناس لعظة وعبرة دالة على قدرتنا ورحمتنا ولطفنا في الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم ، فإننا نسقيكم مما يخرج من بطونها من اللبن الخالص من الشوائب ، السائغ شربه في الحلق ، فلا يغص به أحد ، اللذيذ طعمه ، السهل هضمه ، الذي يخلقه الله لبنا خالصا وسيطا بين الفرث (وهو الزبل الذي ينزل إلى الكرش) والدم المحيطين به ، أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته في باطن الحيوان من بين خلاصة المأكول في الكرش والأمعاء ، والدم في العروق ، فإذا هضم الغذاء في المعدة صرف من عصارته دم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ، ولا يتغير أو يتأثر به. وذلك دليل القدرة الإلهية والحكمة البالغة.

وذكّر ضمير ﴿بُطُونِهِ﴾ مراعاة للفظ ﴿الْأَنْعامِ﴾ فهو لفظ مفرد وضع لإفادة الجمع ، كالرهط والقوم والبقر والغنم ، فقد يراعى اللفظ فيكون ضميره التذكير ، وقد يراعى المعنى فيكون ضميره ضمير الجمع وهو التأنيث.

وهناك دليل آخر وهو ما يتخذ من أشربة من ثمرات النخيل والأعناب وهي

بعض منافع النبات المذكورة عقب بيان بعض منافع الحيوانات في الآية المتقدمة ، فقال سبحانه : ﴿وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ ..﴾ أي ولكم أيضا عبرة وعظة فيما تشربونه من أشربة متنوعة من ثمرات النخيل والأعناب كالخل والدبس والخمر أو النبيذ المسكر قبل تحريمه ، وما تأكلونه من ثمار طازجة على طبيعتها. وهذا دليل على إباحة المسكر قبل تحريمه.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ..﴾ أي إن في تلك الأشربة والمآكل لآية واضحة لقوم يستخدمون عقولهم في النظر والتأمل في الآيات. وذكر العقل هنا أمر مناسب ؛ لأنه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرمت المسكرات صيانة للعقول.

والتفاوت في الوصف بين «السكر والرزق الحسن» بوصف الرزق بالحسن في حال أكل الثمرة غير متخمرة دون السكر يؤذن بالتفرقة بينهما وبتقبيح المسكر ، ويمهد لتحريم المسكرات ، وهي أول آية نزلت تعرّض بالخمر أو المسكر ، وقد روي أن النبي ﷺ قال عند نزول هذه الآية : «إن ربكم ليقدم في تحريم الخمر».

وهو دليل للجمهور غير أبي حنيفة على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب ، ومثله حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل ، كما أوضحت السنة.

قال ابن عباس : السّكر : ما حرّم من ثمرتيهما (النخيل والعنب) والرزق الحسن : ما أحلّ من ثمرتيهما ، كالخل والرّب (المربّة) والتمر والزبيب ونحو ذلك [١]. وفي رواية عن ابن عباس : السّكر : حرامه ، والرزق الحسن : حلاله.

وهذا دليل آخر على أن لهذا العالم إلها قادرا مختارا بعد بيان أدلة إخراج

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٧٥

الألبان من الأنعام ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، وهو إخراج العسل من النحل ، فقال تعالى : ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

أي وألهم [١] ربك النحل وجعل في غريزتها وطبعها ، وقرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها عقلاء البشر ، فهي تعيش جماعات في الخلية ، ويرأس كل خلية أكبرها جثة وهي الملكة أو اليعسوب ، ومعها جماعة الذكور ، وجماعة الإناث وهي الشغّالات أو العاملات ، وتعيش عيشة تعاونية في أدق نظام ، وتقوم بامتصاص رحيق الأزهار ، وإفرازه عسلا وشمعا.

وتقوم بما يلي :

١ . ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً ..﴾ أي ألهمها الله وأرشدها أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوي إليها ، ومن الشجر ، ومن عرائش الناس التي يصنعونها لها في البيوت والكروم ، فتبني بيوتا محكمة الإتقان ، سداسية الأشكال ، من أضلاع متساوية ، لا يزيد بعضها على بعض ، ولا يوجد فيها خلل ، تخزن في بعضها العسل ، وفي بعضها الآخر الشمع لتربية صغار النحل.

وجعلها سداسية لمنع الفرج الخالية الضائعة فيما بينها. وإذا نفرت نحلة من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر ، فإذا أرادوا عودها ردوها إلى وكرها على ألحان الموسيقى والطبول. وكل ذلك دليل على مزيد الذكاء والكياسة.

٢ . ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ أي ثم امتصي من رحيق جميع الثمار

---

(١) الإلهام : ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها ، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾. والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز ، مثل كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء.

ما تشاءين ، حلوة كانت أو مرّة أو بين ذلك. وهذا إذن أمر قدري تسخيري أن تأكل من كلّ الثمرات.

٣ . ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ أي إذا أكلت من الثمار ، فاسلكي الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها في عمل العسل ، أو في طلب تلك الثمرات ، والعودة بسلام إلى الخلايا.

وهي في أثناء بحثها عن الغذاء تنقل على أجنحتها من حيث لا تشعر لقاحات الأزهار من الذكر إلى الأنثى. وتلك مهام أودعها الله في غرائز النحل ، ليست مجرد مصادفة أو طبيعة أو غريزة ، وإنما هي جزء من رسالة الكائنات الحية التي تؤدي أدوارا في الكون ، يعود نفعها في النهاية على الإنسان ، فسبحان الله الخالق المالك القادر القاهر الميسر لكل شيء سببا.

٤ . ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ ..﴾ أي يخرج من بطون النحل عسل مختلف الألوان ، أبيض أو أصفر أو أحمر ، فيه شفاء ونفع لكثير من أمراض الناس ، ويدخل في تركيب العقاقير والأدوية. وقد وصفه الله بهذه الصفات الثلاث :

الأولى ـ كونه شرابا ، إما أن يشرب وحده ، أو تتخذ منه الأشربة.

الثانية ـ كونه مختلف الألوان من أحمر وأبيض وأصفر وغيرها.

الثالثة ـ كونه سببا للشفاء في الجملة لكثير من الأمراض.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إن أخي استطلق بطنه ، فقال : «اسقه عسلا» فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، سقيته عسلا ، فما زاده إلا استطلاقا ، قال : «اذهب فاسقه عسلا» فذهب فسقاه عسلا ، ثم

جاء فقال : يا رسول الله ، ما زاده إلا استطلاقا ، فقال رسول الله ﷺ : «صدق الله ، وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا» فذهب ، فسقاه عسلا ، فبرئ.

أوضح بعض الأطباء القدامى هذه الواقعة فقال : كان لدى هذا الرجل فضلات في المعدة ، فلما سقاه عسلا ، وهو حار ، تحللت فأسرعت في الاندفاع والخروج ، فزاد إسهاله ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، مع أنه كان مفيدا لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع ، ثم سقاه حتى ذهبت الفضلات الفاسدة كلها المضرة بالبدن ، فاستمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده وإشارته عليه الصلاة والسلام [1].

وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كيّة بنار ، وأنهى أمّتي عن الكيّ». وروى ابن ماجه القزويني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن».

وذكر الأطباء المحدثون التركيب الكيماوي للعسل وهو ٢٥ . ٤٠ غلوكوز ، و ٣٠ . ٤٥ ليفيلوز ، و ١٥ . ٢٥ ماء. ويعطى مقويا ومغذيا ، وضدّ التسمم من المواد السامة كالزرنيخ والزئبق والذهب والمورفين ، وضدّ تسمم الأمراض كالتسمم البولي بسبب أمراض الكبد ، والاضطرابات المعدية والمعوية ، وتسمم الحميات كالتيفوئيد والتهاب الرئة والسحايا والحصبة ، والذّبحة الصدرية ، وحالات ضعف القلب واحتقان المخ والتهابات الكلى الحادة.

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في كل ما ذكر عن النحل لدلالة

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٧٥

واضحة على وجود الله وقدرته لقوم يتفكرون في عجيب صنع الله وخلقه ورعايته الحكمة والمصلحة في ترتيب العالم.

فالنحل يختص بتلك العلوم والمعارف الدقيقة كبناء البيوت المسدسة ، ويهتدي إلى أجزاء العسل من الأزهار وأطراف الشجر والأوراق ، كما أنه يهتدي إلى جمع الأجزاء النافعة في جوّ الهواء الملقاة على أطراف الأشجار والأوراق.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدتنا الآيات إلى ما يأتي من بيان كمال القدرة وتعداد النعم الإلهية :

١ ـ أنزل الله من السحاب مطرا يكون سببا لإحياء الأرض بالنبات المختلف الأنواع بعد اليبس والجمود ، وفي ذلك دلالة على البعث وعلى وحدانية الله تعالى ؛ لأن معبود المشركين كما علموا لا يستطيع شيئا ، فتكون هذه الدلالة مفيدة لقوم يسمعون عن الله تعالى سماع تدبر وإصغاء بالقلوب ، لا بالآذان.

٢ ـ إن في الأنعام وهي أصناف أربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز لدلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته ، فهو يسقي الناس من ألبانها ، وحدوث اللبن يدل على أمرين : وجود الصانع المختار سبحانه ، وإمكان الحشر والنشر ، لمرور الطعام بعدة مراحل من التحول والقلب من نبات وعشب ، إلى دم ، إلى لبن ، فدهن وجبن ، وذلك يدل على أنه تعالى قادر على قلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك.

ويخرج اللبن ويتولد مع ثلاثة أشياء في موضع واحد ، فالفرث يكون في أسفل الكرش ، والدم يكون في أعلاه ، واللبن يكون في الوسط ، وهذا دليل القدرة العظيمة والصنع الإلهي الدقيق.

واستنبط بعض العلماء من عود الضمير مذكّرا ، في قوله : ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾

إلى الأنعام أن لبن الفحل يفيد التحريم ؛ لأنه جيء به مذكرا لأنه راجع إلى ذكر النعم ، واللبن محسوب للذكر.

٣ ـ في هذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره ، فأما لبن الميتة فلا يجوز الانتفاع به ؛ لأنه مائع طاهر في وعاء نجس ؛ لأن ضرع الميتة نجس ، واللبن طاهر ، فإذا حلب صار مأخوذا من وعاء نجس. وأما لبن المرأة الميتة فهو طاهر ؛ لأن الإنسان طاهر حيا وميتا ، وقيل : إنه نجس لتنجسه بالموت.

٤ ـ وفي هذه الآية أيضا دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده ، ولكن إذا أخذ من غير سرف ولا إكثار.

٥ ـ اللبن غذاء كامل يغذي الطفل مدة من الزمن وينمي الجسد ، روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتي رسول الله ﷺ بلبن فشرب ، فقال رسول الله ﷺ : «إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيرا منه ، وإذا سقي لبنا ، فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، فإنه ليس شيء يجزي عن الطعام والشراب إلا اللبن».

٦ ـ ومن منافع النبات ما يدل أيضا على القدرة الإلهية ، فقد أخرج الله لنا من ثمرات النخيل والأعناب الرزق الحسن : وهو ما أحله من ثمرتيهما على الطبيعة ، والسّكر هو النبيذ ، وهذا قبل التحريم النهائي البات له ، في رأي الجمهور ، فالنبيذ (وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ، ثم يترك حتى يشتد) حرام عندهم ، لإسكاره ، وقول النبي ﷺ فيما رواه العقيلي عن علي ، والنسائي عن ابن عباس : «حرّم الله الخمر بعينها والسّكر من غيرها» والصواب أنه موقوف على ابن عباس.

وهو حلال عند أبي حنيفة رحمه الله ما لم يصل إلى حد السّكر ، محتجا بهذه

الآية الدالة على أن السّكر حلال ؛ لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام والمنة ، ولأن الحديث السابق دلّ على أن الخمر حرام : «الخمر حرام لعينها» وهذا يقتضي أن يكون السّكر شيئا غير الخمر ، والمغايرة تقتضي أنه النبيذ المطبوخ. والحق أن الآية ليس فيها ما يدل على الحل ؛ إذ الكلام في الامتنان بخلق الأشياء لمنافع الإنسان ، ولم تنحصر المنافع في حل التناول.

وختم الآية بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دليل على قدرة الله تعالى ؛ لأن من كان عاقلا ، علم بالضرورة أو البداهة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى ، مما يدل على وجود الإله القادر الحكيم.

٧ ـ كما أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاطعة على أن لهذا العالم إلها قادرا مختارا حكيما ، فكذلك إخراج العسل من النحل دليل قاطع على إثبات هذا المقصود.

وفي النحل منافع كثيرة للأشجار والنباتات نفسها ، وللإنسان أيضا ، وكذلك في العسل والشمع منافع للإنسان ، فالعسل شفاء من كثير من الأمراض ، والشمع للإضاءة وصناعات أخرى.

وذلك كله دليل على وجود الإله الصانع الملهم في اعتقاد كل من أعمل فكره ، وتأمل ونظر في أعمال النحل وآثاره العجيبة.

بعض عجائب أحوال الناس الدالة على قدرة الله وتوحيده

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ

فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾

الإعراب :

﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً شَيْئاً﴾ منصوب ب ﴿عِلْمٍ﴾ على مذهب البصريين على إعمال الثاني ؛ لأنه أقرب. وب ﴿يَعْلَمَ﴾ على مذهب الكوفيين ، على إعمال الأول.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ﴾ جملة اسمية ، في موضع نصب ؛ لأنها وقعت جوابا للنفي ، وقامت هذه الجملة الاسمية مقام جملة فعلية ، وتقديره : فما الذين فضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فيستووا.

﴿رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً شَيْئاً﴾ إما بدل منصوب من ﴿رِزْقاً﴾ كأنه قال : ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم شيئا ، وإما منصوب برزق ، أي أن يرزق شيئا ، والوجه الأول أوجه ؛ لأن الرزق اسم ، والاسم لا يعمل إلا شاذا ، ولأن البدل أبلغ في المعنى.

﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الواو عائد إلى ضمير «ما» حملا على المعنى.

البلاغة :

﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئا. ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم. ﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أردؤه وأخسه ، بسبب الهرم والخرف ، قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبير خلقه. ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريده.

﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي فاوت بين أرزاقكم ، فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك. ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ الأغنياء والأسياد ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ أي بمعطي رزقهم من الأموال وغيرها لمماليكهم ، وجاعليها شركة بينهم وبين مماليكهم. ﴿فَهُمْ﴾ أي المماليك والأسياد (الموالي) ﴿فِيهِ سَواءٌ﴾ شركاء. والمعنى : ليس لهم شركاء من مماليكهم في أموالهم ، فكيف يجعلون بعض مماليك الله شركاء له. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ يكفرون حيث يجعلون له شركاء. وقرئ تجحدون.

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً﴾ أي جعلها لكم من جنسكم لتأنسوا بها ، ولتكون أولادكم مثلكم. ﴿وَحَفَدَةً﴾ أي أولاد الأولاد جمع حفيد. ﴿مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ من أنواع الثمار والحبوب والحيوان ونحوها من اللذائذ أو من الحلالات. ومن للتبعيض ، فإن المرزوق في الدنيا أنموذج من الطيبات. ﴿أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالأصنام. ﴿وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أضافوا نعمه إلى الأصنام ، بإشراكهم ، أو حرموا ما أحلّ الله لهم. وتقديم الصلة على الفعل إما للاهتمام بها ، أو للتخصيص مبالغة ، أو للمحافظة على فواصل الآيات بالسجع.

﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي غيره. ﴿رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ﴾ بالمطر. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات. ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون على شيء ، وهم الأصنام. ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ﴾ لا تجعلوا لله أشباها أو أمثالا تشركونهم به ، أو تقيسونهم عليه ، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال. ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ﴾ ألا مثل له ، وفساد القياس الذي تقيسونه. ﴿وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ، ولو علمتم لما جرأتم عليه. وهو تعليل للنهي. أو أنه يعلم كنه الأشياء ، وأنتم لا تعلمونه ، فدعوا رأيكم دون نصه.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى عجائب أحوال الحيوانات ، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس ، فذكر مراتب عمر الإنسان وهي أربعة : سن النشوء والنماء (الطفولة) وسن الشباب ، وسن الكهولة ، وسن الشيخوخة ، وذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته.

ثم ذكر تفاوت الناس في أرزاقهم ، كما قال : ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣٢] وهي من قسمة الخلاق. ثم ذكر نعمة ثالثة ورابعة وهي جعل الأزواج من جنس الذكور ، والرزق من الطيبات من نبات كالثمار والحبوب والأشربة ، ومن حيوان مختلف الأنواع.

التفسير والبيان :

تستمر الآيات في تعداد مظاهر قدرة الله وعظمته وألوهيته ونعمه ، وهي متعلقة هنا بالإنسان ، فيذكر تعالى مراحل نشوء الإنسان ، وأنه هو سبحانه الذي أنشأ الناس من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم ، وهو الضعف في الخلقة ، فقال : ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ..﴾.

أي والله أوجدكم يا بني آدم ، ولم تكونوا شيئا ، ثم حدد لأعماركم آجالا معينة ، فمنكم من يتوفاه عند انقضاء آجالكم ، ومنكم من يهرم ويصير في أرذل العمر وأسوئه وهو حال ضعف القوى والحواس والخرف ، أو فقدها ، وقلة الحفظ والعلم ، كما قال تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ [الروم ٣٠ / ٥٤] وقال سبحانه : ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس ٣٦ / ٦٨] وقال عزّ وجلّ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾ [التين ٩٥ / ٤ . ٥].

وروى البخاري وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو : «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات» وفي حديث سعد بن أبي وقاص : «وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر». وروي عن علي رضي الله عنه : أرذل العمر : خمس وسبعون سنة. وهذا أمر غير مطرد ، وربما كان هذا هو الغالب في الماضي.

﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ..﴾ أي نرده إلى أرذل العمر ، ليصبح غير عالم بشيء ، وجاهلا كما كان وقت الطفولة ، ونسّاء لضعف ذاكرته.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي إن الله عليم بكل شيء ، فيجعل الإنسان في حال من القوة والضعف على وفق الحكمة ، وقادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء أبدا.

هذا شأن تفاوت الناس في الأعمار ، أردفه ببيان تفاوتهم في الأرزاق فقال : ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ ..﴾ أي أن الله تعالى جعلكم متفاوتين في الأرزاق ، فهناك الغني والفقير والمتوسط لحكمة اقتضتها ظروف المعيشة ، والمصلحة للإنسان نفسه ، وليتخذ بعضكم بعضا سخريا.

﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ..﴾ أي فما الذين فضّلوا بالرزق وهم السادة الملاك أو الموالي بجاعلي أرزاقهم شركة على قدم المساواة بينهم وبين مماليكهم.

وهذا مثل ضربه الله للعبرة ، مفاده أنه إذا كنتم لم ترضوا بهذه المساواة بينكم وبين خدمكم ، وهم أمثالكم في الإنسانية ، فكيف تسوون بين الخالق والمخلوق ، وبينه وبين هذه الأصنام ، وتشركون به ما لا يليق به من عبيدي ومخلوقاتي؟

ويوضح المثل آية أخرى : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ ، فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ ، تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٨].

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾؟ أي أتشركون بالله بعبادتكم الأصنام ، فتجحدون بنعمة الله عليكم؟ لأن من أثبت شريكا لله ، فقد نسب إليه بعض النعم والخيرات ، فكان جاحدا لكونها من عند الله تعالى. أو أتجحدون بنعمة الله عليكم بعد تقرير هذه البيانات وإيضاح هذه الدلالات على وحدانية الله ، والتي يفهمها كل عاقل؟! فهذا إنكار على المشركين جحودهم نعم الله عليهم.

ومن جليل نعمه تعالى على عباده أمور أخرى منها : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي والله جعل لكم أيها العبيد المخلوقون لله أزواجا من جنسكم وشكلكم لتحقيق الأنس والانسجام والائتلاف وقضاء المصالح ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، فمن رحمته جعل الذكور والإناث من جنس واحد.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة ، أي أولاد البنين.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي ورزقكم من طيبات الرزق التي تستطيبونها في الدنيا ، من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي أيصدقون بالباطل وهو أن الأصنام شركاء لله في النفع والضرر ، وأنها تشفع عنده ، وأن الطيبات التي أحلها الله لهم كالبحيرة والسائبة والوصيلة هي حرام عليهم ، وأن المحرمات التي حرمها الله عليهم كالميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النّصب هي حلال لهم؟

وهذا توبيخ وتأنيب لهم على تلك الأحكام الباطلة ، وعلى إنعام الله في تحليل الطيبات ، وتحريم الخبيثات.

﴿وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي ويجحدون بهذه النعم الجليلة ، فينسبونها إلى غير الخالق من صنم أو وثن؟! ويسترون نعم الله عليهم. جاء في الحديث الصحيح : «إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه : ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع؟».

ثم أخبر الله تعالى عن المشركين الذين عبدوا معه غيره ، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ، فقال :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ..﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون بالله ما لا يستطيع تقديم الأرزاق لهم من السماء والأرض ، فلا يقدر على إنزال المطر ، ولا إنبات الزرع والشجر ، بل ولا يملكون ذلك لأنفسهم ، فليس لهم الإمداد بالرزق لأنفسهم ولغيرهم ، ولا يقدرون عليه ، لو أرادوه.

وفائدة قوله : ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ نفي الملك وتحصيل الملك ، فمن لا يملك شيئا قد يكون مستطيعا أن يتملكه بطريق ما ، فأبان تعالى أن هذه الأصنام لا تملك ، وليس في استطاعتها أيضا تحصيل الملك [١]. وجمع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالواو والنون المختص بأولي العلم اعتبارا لما يعتقدون فيها أنها آلهة.

ونتيجة ما ذكر : ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ﴾ أي لا تجعلوا له أندادا وأشباها وأمثالا ، ولا تشبهوه بخلقه ، قال ابن عباس ـ فيما رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم في هذه الآية ـ : أي لا تجعلوا معي إلها غيري ، فإنه لا إله غيري.

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن الله يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره. وإن الله تعالى يعلم ما عليكم من العقاب الشديد ، بسبب عبادة هذه الأصنام ، فاتركوا عبادتها ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، ولو علمتموه لتركتم عبادتها. وهذا تهديد شديد على عظم جرمهم وكفرهم ومعاصيهم ، وردّ على عبدة الأصنام.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

١ ـ إن الله تعالى هو المتصرف في شؤون الإنسان من حياة أو موت ، فهو

---

(١) تفسير الرازي : ٢٠ / ٨٢

خلقه وهو يتوفاه في أجل معين ، وهو الذي يحميه من الأمراض ، أو يرده إلى أرذل العمر حال الكبر يعني أردأه وأوضعه ، وهو الخرف ونقص القوة والعقل وسوء الحفظ وقلة العلم ، فيصبح كالصبي الذي لا عقل له ، ولا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر. ودلت الآية أيضا على تفاوت الناس في الأعمار. وهذا دليل على وجود إله عالم فاعل مختار ، وعلى صحة البعث والقيامة ؛ لأن الانتقال من العدم إلى الوجود كالعودة إلى الوجود مرة أخرى.

٢ ـ لله تعالى الحكمة البالغة في قسمة الأرزاق بين العباد ، فجعل منهم الغني والفقير والمتوسط ، ليتكامل الكون ، ويتعايش الناس ، ويخدم بعضهم بعضا ، ويحجب عن الإنسان انزلاقه في المعاصي ، كما قال تعالى : ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ ، لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ [الشورى ٤٢ / ٢٧] فالآية دليل على أن التفاوت في الأرزاق كالتفاوت في الأعمار.

ورتّب الله على هذا التفاوت في الأرزاق نتيجة منطقية تمس الاعتقاد في مثل ضربه الله لعبدة الأصنام وهو : إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء ، فكيف تجعلون عبيدي معي سواء؟ فلما لم يجيزوا لأنفسهم أن يشركهم عبيدهم في أموالهم ، لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان وغيرها مما عبد ، كالملائكة والأنبياء ، وهم عبيده وخلقه.

والتفاوت ليس مختصا بالمال ، بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والقبيح.

٣ ـ من نعم الله على عباده جعل الزوجات من جنس الأزواج وشكلهم ، وفي هذا ردّ على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوّج الجن وتباضعها.

ومن نعمه سبحانه إنجاب الذرية من بنين وبنات وحفدة (أولاد البنين). ومن نعمه رزق الطيبات من الثمار والحبوب والحيوان وغير ذلك.

والآية تومئ إلى ضرورة التعاون بين الأزواج والبنين والحفدة ؛ لأنهم أسرة واحدة. ومن السنة النبوية أن الرجل يعين زوجته ؛ روت عائشة أن النبي ﷺ كان يكون في مهنة أهله ، فإذا سمع الأذان خرج. ومن أخلاق النبي ﷺ : أنه كان يخصف النعل ، ويقمّ البيت ، ويخيط الثوب.

ومن قدر على نفقة خادمة واحدة أو أكثر فعل ، على قدر الثروة والمنزلة. وهذا أمر متروك للعرف ، فنساء الريف والأعراب والبادية يخدمن أزواجهن ، ونساء المدن يعينهن الزوج ، أو يستأجر لهن الخادمة إذا كان من أهل الثروة.

٤ ـ من حماقة المشركين وجهالتهم أنهم يعبدون أصناما لا تضر ولا تنفع ولا تشفع ، فلا تملك إمداد غيرها ولا أنفسها بالرزق من إنزال المطر وإنبات النبات ، ولا يقدرون أي الأصنام على شيء ، فلا تشبهوا بالله هذه الجمادات ؛ لأنه واحد قادر لا مثل له.

مثلان للأصنام والأوثان

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾

الإعراب :

﴿عَبْداً﴾ بدل من ﴿مَثَلاً﴾. ﴿مَمْلُوكاً﴾ صفة قيد بها العبد للتمييز من الحر ، فإنه أيضا عبد لله.

﴿وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ : رزق : فعل يتعدى إلى مفعولين ، الأول منهما الهاء في ﴿رَزَقْناهُ﴾ والثاني : ﴿رِزْقاً﴾ وهذا ليس مصدرا ؛ لأنه قال : ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً﴾ والإنفاق إنما يكون من الأعيان لا الأحداث.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ جمع الضمير في الفعل ولم يقل : يستويان ، لمكان ﴿مَنْ﴾ لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ؛ ولأنه للجنسين ، فإن المعنى : هل يستوي الأحرار والعبيد؟

﴿رَجُلَيْنِ﴾ بدل من ﴿مَثَلاً﴾.

البلاغة :

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ ..﴾ فيها استعارة تمثيلية ، مثّل فيها الوثن بالأبكم الذي لا ينتفع به بشيء ، كما مثله في الآية المتقدمة بالمملوك العاجز عن التصرف رأسا.

﴿سِرًّا وَجَهْراً﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿مَمْلُوكاً﴾ صفة تميزه من الحر ، فإنه أيضا عبد لله. ﴿لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾ من التصرف مطلقا لعدم ملكه. ﴿وَمَنْ رَزَقْناهُ مَنْ﴾ نكرة موصوفة أي حرا ، لتطابق كلمة ﴿عَبْداً﴾. ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً﴾ أي يتصرف به كيف يشاء ، والاول : مثل الأصنام ، والثاني : مثله تعالى ، والمعنى : مثّل ما يشرك به : بالمملوك العاجز عن التصرف رأسا ، ومثّل نفسه : بالحر المالك الذي رزقه الله مالا كثيرا ، فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف يشاء ، فالأول مقيد والثاني حر طليق. ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي الجنسان وهما العبيد والأحرار ، أي هل يستوي الأحرار والعبيد؟ لا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له لا يستحقه غيره ، فضلا عن العبادة لأنه مصدر النعم كلها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أهل مكة. ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من العذاب ، فيشركون.

﴿أَبْكَمُ﴾ الأبكم : الذي ولد أخرس. ﴿لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ﴾ من الصنائع أو التدابير ؛ لأنه لا يفهم ولا يفهم. ﴿كَلٌّ﴾ ثقيل على وليه وقرابته. ﴿مَوْلاهُ﴾ ولي أمره. ﴿أَيْنَما يُوَجِّهْهُ﴾ يصرفه. ﴿لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بنجح وكفاية مهم ، وهذا مثل الكافر أو الأصنام. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ الأبكم المذكور. ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي ومن هو ناطق نافع للناس حيث يأمر به ويحث عليه. ﴿صِراطٍ﴾ طريق ، وهذا هو المؤمن ، أو الله تعالى ، أي أن هذا تمثيل ثان ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام ، لإبطال المشاركة بينه وبينها ، أو هو مثل للمؤمن والكافر.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً﴾ قال : نزلت في رجل من قريش وعبده ، وفي قوله : ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ﴾ قال : نزلت في عثمان ومولى له كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما.

وفي عبارة أخرى : نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد بن أبي العاص ، كان يكره الإسلام ، وكان عثمان ينفق عليه ، ويكفله ، ويكفيه المؤونة ، وكان المولى ينهاه عن الصدقة والمعروف.

المناسبة :

بعد أن نهى الله تعالى عن ضرب الأمثال له ؛ لأن الله يعلم كيف يضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون ، علّمهم كيف تضرب الأمثال ، فقال : مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك قد رزقه الله مالا ، فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف شاء.

ومثلكم أيضا في الإشراك مثل من سوّى بين رجلين : أحدهما أبكم عاجز ، لا يقدر على تحصيل خير ، وهو عبء ثقيل على سيده ، والآخر ذو فهم ومنطق وكفاية وقدرة ورشد ينفع الناس بالحث على العدل.

هل من المعقول التسوية بين الاثنين؟!

أي كيف يسوى الجماد بالله تعالى في الألوهية والعبادة؟! أو كيف يسوى الكافر المخذول والمؤمن الموفق؟!

هذان مثلان موضحان بطلان عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تجيب.

التفسير والبيان :

بعد أن نهى الله تعالى عن الإشراك ، أبان بالأمثال الواقعية فساد عبادة الأصنام ، فذكر مثلين :

أولهما . ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً ..﴾ هذا مثل ضربه الله لحالة الأصنام بالمقارنة مع ذاته تعالى ، فما مثلكم أيها المشركون في إشراككم بالله الأوثان والأصنام المعبودة التي لا تنفع ولا تضر ، إلا كمثل من سوّى بين عبد مملوك لمالكه ، عاجز عن التصرف ، لا يقدر على شيء ، وبين مالك حر التصرف في ملكه ، ينفق منه كيف يشاء ، ويتصرف فيه كيف يريد ، سرا وجهرا ، فالأول . مثل الصنم العاجز ، والثاني . مثل الإله القادر. وبما أنه لا يعقل بداهة التسوية بين الشخصين : العبد والحر ، ولا يجهل الفرق بينهما إلا كل غبي ، فكيف يسوى بين الإله القادر على الرزق والإنفاق ، وبين هذه الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء أصلا؟ وكيف يسوى بين الضار والنافع؟

لذا قال تعالى نتيجة لهذه المقارنة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي الحمد التام الكامل لله ، والثناء الشامل لله ، والشكر الجزيل لله المنعم بمختلف النعم ، فهو وحده المستحق للحمد ، لا تلك الأوثان ، بل أكثر أولئك الكفار التي يعبدونها لا يعلمون الحق فيتبعوه ، ولا يعرفون المنعم الحقيقي بالنعم الجليلة فيخصوه بالتقديس والتنزيه ، والعبادة ، والحمد والشكر.

وثانيهما . هو أيضا مثل الحق تعالى ، ومثل الوثن. وهذا المثل يؤكد ما دل عليه المثل السابق على نحو أوضح ، فقال تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : رَجُلَيْنِ ..﴾.

أي وضرب الله مثلا لنفسه وللوثن أو الآلهة المعبودة من دونه ، مثل رجلين : أحدهما . أبكم لا ينطق ولا يتكلم بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء

يتعلق بنفسه أو بغيره ، وهو مع هذا كلّ أي عيال وكلفة على مولاه الذي يعوله ، حيثما أرسله أو بعثه ، لا يحقق مطلبا ، ولا ينجح في مسعاه ، ولا يأتي بخير قط ؛ لأنه لا يفهم ما يقال له ، ولا مقال لديه ، فلا يفهم عنه.

والثاني ـ رجل كامل المواهب والحواس ، ينفع نفسه وغيره ، يأمر بالعدل أي بالقسط ، ويسير على منهج الحق والعدل ، ويحكم بالعدل ، فمقاله حق ، وأفعاله وسيرته مستقيمة ، وطريقه مستقيم ودينه قويم.

هل يستوي هذان الرجلان؟ الأول عديم النفع ، والثاني كامل النفع ، والأول كالصنم لا يسمع ولا ينطق. والثاني وهو المتصف بصفات الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته ، ويأمرهم بالعدل ، ويلتزم العدل في نفسه قضاء وحكما.

وإذا كان هذان الرجلان لا يتساويان بداهة ، فلا تساوي أصلا بين الحق تعالى ، وبين ما يزعمون أنه شريك له.

فقه الحياة أو الأحكام :

دل هذان المثلان على ضلالة المشركين وبطلان عبادة الأصنام ؛ لأن شأن الإله المعبود أن يكون مالكا قادرا على التصرف في الأشياء ، وعلى نفع غيره ممن يعبدونه ، وعلى الأمر بالخير والعدل ، والتزام منهج الاستقامة والقسط في سيرته وسلوكه.

والأصنام في المثل الأول فاقدة الملك ، عاجزة عن التصرف هي مثل العبيد المملوكين للسادة الموالي. أما الأحرار الملاك الأغنياء كثير والإنفاق سرا وجهرا ، فهم القادرون على التصرف. وبما أن العقل لا يجوّز التسوية بين الحر والعبد في التعظيم والإجلال ، مع تساويهما في الخلقة والصورة والبشرية ، فكيف يجوز

للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال ، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء أصلا؟!

وهناك قول آخر : وهو أن هذا مثل للمؤمن والكافر ، فالمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر ، فهو باعتبار حرمانه من عبودية الله وطاعته كالعبد الذليل الفقير العاجز. والمراد بقوله ﴿وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ هو المؤمن ، فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله ، فأبان تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى.

قال الرازي : والقول الأول أقرب ؛ لأن الآية في إثبات التوحيد ، وفي الرد على المشركين.

وهذا المثل منتظم مع ما ذكر قبله من بيان نعم الله على أولئك المشركين ، وعدم توافر تلك النعم من آلهتهم.

وقد احتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئا.

والأصنام في المثل الثاني لا تقدر على شيء ، وأما الله فهو القادر على كل شيء ، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ، وهل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل ، وهو على الصراط المستقيم؟! والآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفا بالنطق ، وإلا لم يكن آمرا. ويجب أن يكون قادرا ؛ لأن الأمر مشعر بعلو الرتبة ، وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادرا. ويجب أن يكون عالما حتى يمكنه التمييز بين العدل والجور ، فدل وصفه بالعدل على وصفه بكونه قادرا عالما.

أما الرجل الأول فوصفه بأربع صفات : الأبكم (الأخرس العيي) ، ولا يقدر على شيء ، وهو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل ، وكلّ على مولاه (أي

غليظ وثقيل على سيده) ، وأينما يوجهه ، أي يرسله ، لا يأت بخير ؛ لأنه عاجز لا يحسن التعبير ولا يفهم الكلام ، فهل الموصوف بهذه الصفات الأربع يتساوى مع الموصوف بأضدادها ، وهو الآمر غير الأبكم ، والقادر غير العاجز الذي لا يقدر على شيء وأنه كلّ على مولاه ، والعالم غير الذي لا يأتي بخير.

علم الله الغيب وخلقه الإنسان والطير

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾

لإعراب :

﴿مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ﴾ قرئ بضم الهمزة على الأصل ، وبكسرها على الاتباع لكسرة نون ﴿بُطُونِ﴾.

﴿لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ إما منصوب على المصدر ، أي لا تعلمون علما ، أو منصوب لأنه مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ الذي هو بمعنى (تعرفون) للاقتصار على مفعول واحد ، والجملة حال.

البلاغة :

﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي علم ما غاب فيهما ، وهو يختص بعلم الغيب ، لا يعلمه غيره ، وهو ما غاب فيهما عن العباد ، بأن لم يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس ، وقيل : يوم القيامة ، فإن علمه غائب عن أهل السموات والأرض. ﴿السَّاعَةِ﴾ وقت القيامة ، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما ، فيموت الخلق بصيحة واحدة. ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ اللمح : النظر بسرعة ، ولمح البصر : رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو أمرها أقرب منه ؛ لأنه بلفظ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. والمعنى : ما أمر قيام القيامة في سرعته وسهولته إلا كلمح البصر ﴿السَّمْعَ﴾ أي الأسماع. ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ جمع فؤاد وهي القلوب. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله عليكم طورا بعد طور ، فتشكروا وتؤمنوا.

﴿مُسَخَّراتٍ﴾ مذللات للطيران. ﴿فِي جَوِّ السَّماءِ﴾ الفضاء بين السماء والأرض. ﴿ما يُمْسِكُهُنَ﴾ عند قبض أجنحتهن أو بسطها أن يقعن. ﴿إِلَّا اللهُ﴾ بقدرته. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ﴾ أي إن في تسخير الطير للطيران وتمكنها منه ، وإمساكها في الهواء وخلق الجو لدلالات على الإله الواحد الخالق. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بها.

المناسبة :

بعد أن مثّل تعالى الأصنام أو الكفار بالأبكم العاجز ، ومثّل نفسه بالآمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان كامل العلم والقدرة ، أردف ذلك ببيان كمال علمه وقدرته. أما كمال العلم فهو قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾. وأما كمال القدرة فهو قوله : ﴿وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾. ومن مظاهر كمال قدرته وحكمته : خلق الإنسان في أطواره المختلفة ، وتمكين الطير من الطيران في الجو ، وهذا وما يأتي بعده من دلائل التوحيد.

التفسير والبيان :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي علم الله وحده غيب السموات والأرض ، والتعبير يفيد الحصر ، معناه : أن العلم بالمغيبات ليس إلا لله ، وهو

مختص بعلم الغيب ، فلا اطلاع لأحد على ذلك. إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء. وهذا إخبار عن كمال علم الله تعالى. ثم أخبر عن كمال قدرته وأنه إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون ، فقال : ﴿وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي وما شأن الساعة (وهي الوقت الذي تقوم فيه القيامة) في سرعة المجيء إلا كطرف العين أو رجع البصر من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أو هو أقرب من هذا وأسرع ؛ لأن أمره فوري الحدوث والتنفيذ : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة ٢ / ١١٧ ومواضع أخرى] ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٨]. فالله تعالى قادر على إقامة القيامة في أسرع لحظة ، ولما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر ، ذكره تقريبا للأذهان.

ونظير الآية : ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [٥٤ / ٥٠] أي فيكون ما يريد كطرف العين.

وخص قيام الساعة من بين المغيبات ، لكثرة الجدل حوله ، وإنكاره من كثير من الناس ، فهي محط الأنظار ، ومحل البحث والجدل بين المنكرين والموحّدين.

والمقصود من الآية : أن شرع التحليل والتحريم إنما يحسن بمن يحيط بالعواقب والمصالح ، وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بذلك ، فلم تتحكمون؟! ثم ذكر تعالى دليل ذلك فقال : ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الله قادر على كل شيء ، ومن مشتملات قدرته : إقامة الساعة في أسرع من لمح البصر أو غمضة العين.

ثم ذكر بعض مظاهر قدرته تعالى ومنته على عباده ، فقال : ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ ..﴾ أي والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، فالإنسان خلق في مبدأ الفطرة خاليا عن معرفة الأشياء ، ثم زوده الله

بالمعارف والعلوم ، فرزقه عقلا يفهم به الأشياء ، ويميز به بين الخير والشر ، وبين النفع والضرر ، وهيأ له مفاتيح المعرفة من السمع الذي يسمع به الأصوات ويدركها ، والبصر الذي يبصر به الأشخاص والأشياء والفؤاد الذي يعي به الأمور ، كقوله تعالى في آية أخرى : ﴿قُلْ : هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ. قُلْ : هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك ٦٧ / ٢٣ ـ ٢٤].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا نعم الله عليكم ، باستعمال كل عضو فيما خلق من أجله ، ولتتمكنوا من عبادة ربكم ، وتطيعوه فيما أمركم.

وذلك كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من عادى لي وليا ، فقد بارزني بالحرب ، وما تقرّب إلى عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها [١] ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن دعاني لأجيبنّه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه».

أي إن العبد إذا أخلص الطاعة لله ، صارت أفعاله كلها لله عزّ وجلّ ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله ، أي لما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عزّ وجلّ ، مستعينا بالله في ذلك كله [٢].

ثم ذكر الله تعالى دليلا آخر على كمال قدرته وحكمته فقال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى

---

(١) هذا من قبيل المجاز عن عون الله وتوفيقه ورضاه.

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٧٩

الطَّيْرِ ..﴾ أي ألم ينظروا إلى الطير المذلل المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحيه في جو السماء ، ما يمسكه عن الوقوع إلا الله عَزَّوَجَلَّ ، فإنه لو لا أنه تعالى خلق الطير خلقة يمكنه معها الطيران ، وخلق الهواء أو الجو خلقة يمكن معها الطيران فيه ، لما أمكن ذلك ، فإنه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويضمه مرة ، كما يفعل السباح في الماء ، وأوجد له الذيل ليساعده في الهبوط ، وخلق الهواء ، وجعل ثقله حاملا الطير ، ولو لا ذلك لما كان الطيران ممكنا.

وقوله : ﴿ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ معناه أن جسم الطائر ثقيل ، والجسم الثقيل لا يمكنه التحليق في الجو من غير دعامة تحته ، فكان الممسك له في الجو هو الله تعالى ، بواسطة الهواء.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في خلق جناحي الطير ، وتسخير الهواء لحملة ، لدلالات على قدرة الله ووحدانيته ، لا للأصنام والأوثان ، لمن يؤمن بالله. وخص المؤمنين بالذكر ؛ لأنهم هم المنتفعون بتلك الآيات ، وإن كانت دلائل لكل العقلاء.

ونظير الآية : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ ، وَيَقْبِضْنَ ، ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك ٦٧ / ١٩].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن علم الغيب في السموات والأرض مختص بالله تعالى ، لا يعلم به أحد ، إلا من أطلعه الله عليه. وإذا كان الله هو المحيط بالغيب فهو الذي يشرع الحلال والحرام ، لا المشركون الجاهلون ، الذين لا يدركون عواقب الأمور ، ولا يقدرون المصالح.

٢ ـ إن قيام الساعة (أي حدوث وقت القيامة) في أسرع من لمح البصر دليل واضح على قدرة الله التامة ، فهو سبحانه القدير على كل شيء ، وهو الذي يقول للشيء : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. قال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ؛ أي يقول للشيء : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٣ ـ إن من نعمه تعالى ومن مظاهر قدرته خلق الناس من بطون أمهاتهم ، لا علم لهم بشيء ، ثم تزويدهم بوسائل المعرفة والعلم ، وهي السمع والأبصار والأفئدة ، فبها يعلمون ويدركون. فالسمع لسماع الأوامر والنواهي ، والأبصار لرؤية آثار صنع الله ، والأفئدة للوصول بها إلى معرفة الله. وذلك كله لشكر نعم الله وإبصار آثار صنعته. والآية دليل على أن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خاليا عن معرفة الأشياء ، ثم تأتي المعارف والعلوم بالتعلم بواسطة الحواس التي هي السمع والبصر.

٤ ـ ومن مظاهر قدرة الله ووحدانيته جعل الطير قادرة على التحليق والطيران في الجو (وهو ما بين السماء والأرض) وهي مذللة لأمر الله تعالى ، وما يمسكها في حال القبض والبسط والاصطفاف إلا الله تعالى ، وتلك علامات وعبر ودلالات على القدرة الإلهية ، لقوم يؤمنون بالله وبما جاءت به رسله ، فإنه لو لا خلق الطير على وضع يمكنه الطيران ، وخلق الجو على حالة يمكن الطيران فيه ، لما أمكن ذلك.

بعض دلائل التوحيد وأنواع النعم والفضل الإلهي

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (٨٠) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (٨٣)﴾

البلاغة :

﴿ظَعْنِكُمْ إِقامَتِكُمْ يَعْرِفُونَ يُنْكِرُونَها﴾ بين كل اثنين طباق.

﴿سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي والبرد ، حذف الثاني استغناء بالأول.

المفردات اللغوية :

﴿سَكَناً﴾ أي مسكنا تسكنون فيه. ﴿بُيُوتاً﴾ كالخيام. ﴿تَسْتَخِفُّونَها﴾ تجدونها خفيفة للحمل والنقل. ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ سفركم ، والظعن بسكون العين أو فتحها : سير أهل البادية لطلب الماء والمرعى. ﴿وَمِنْ أَصْوافِها﴾ الغنم. ﴿وَأَوْبارِها﴾ الإبل. ﴿وَأَشْعارِها﴾ المعز. ﴿أَثاثاً﴾ متاع البيوت ، كالفرش والثياب وغيرها. وليس للأثاث واحد من لفظه ﴿وَمَتاعاً﴾ ما يتمتع وينتفع به ، وهو ما يتّجر به. ﴿إِلى حِينٍ﴾ إلى مدة من الزمان ، فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدة.

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ من البيوت والشجر والغمام. ﴿ظِلالاً﴾ جمع ظل : وهو ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، للوقاية من حر الشمس. ﴿أَكْناناً﴾ جمع كنّ: وهو ما يستكن فيه وهو الغار في الجبل والسرب أو النفق. ﴿سَرابِيلَ﴾ جمع سربال : وهو القميص

من القطن والكتّان والصوف وغيرها ، وسرابيل الحرب : الدروع ، والسربال يعم كل ما يلبس ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي والبرد. ﴿بَأْسَكُمْ﴾ المراد هنا حربكم ، أي تقيكم الطعن والضرب وهي الدروع. والبأس في الأصل : الشدة. ﴿كَذلِكَ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت. ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ، بخلق ما تحتاجون إليه. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿تُسْلِمُونَ﴾ توحدون الله ، أي لعلكم تنظرون في نعم الله ، فتؤمنون به ، أو تنقادون لحكمه.

سبب النزول :

نزول الآية (٨٣):

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد : أن أعرابيا أتى النبيﷺ ، فسأله ، فقرأ عليه : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ قال الأعرابي : نعم ، ثم قرأ عليه : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ﴾ قال : نعم : ثم قرأ عليه كل ذلك ، وهو يقول : نعم ، حتى بلغ ﴿كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولّى الأعرابي ، فأنزل الله : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ، ثُمَّ يُنْكِرُونَها ، وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ﴾.

المناسبة :

هذه باقة أخرى من فضائل الله ونعمه على بني آدم ، ومن دلائل التوحيد ، فبعد أن ذكر الله تعالى ما منّ به على الناس من خلقهم وما خلق لهم من مدارك العلم ، ذكر ما امتن به عليهم مما ينتفعون به في حياتهم ، من أمور أخرى غير دوابهم ، من بيوت السكن المبنية من الحجارة وغيرها ، والخيام أو بيوت الشعر المصنوعة من جلود الأنعام ، والأصواف والأوبار والأشعار التي تصنع منها الملابس والأثاث (المفروشات) والأمتعة التي يتجر بها ويعاش من أرباحها ، والحصون والقلاع والمعاقل في الجبال ، والثياب الواقية من الحر والبرد ، والدروع والجواشن [١] الحامية من السلاح في الحرب.

---

(١) الجواشن : جمع جوشن وهو الدرع.

التفسير والبيان :

هذا امتنان آخر بما أنعم الله على عبيده بالإيواء في المساكن فقال : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ ..﴾ أي والله جعل لكم بيوتا هي سكن لكم ، تأوون إليها ، وتسترون بها ، وتنتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ ..﴾ أي وجعل لكم أيضا من جلود الأنعام المعروفة بيوتا أي من الأدم ، في السفر والحضر ، تستخفون حملها يوم سفركم وانتقالكم ويوم إقامتكم ، وهي الخيام والقباب ، يخف حملها عليكم في الأسفار.

وجعل من أصواف الغنم ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز ما تتخذونه أثاثا لبيوتكم ، تكتسون به ، وتنتفعون به في الغطاء والفراش ، وجعل لكم منها متاعا تتمتعون به من جملة الأموال والتجارات ، إلى أجل مسمى وزمن معين في علم الله ، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك ، ويتّخذ مالا وتجارة ، وهذا كله بحسب عرف العرب في الماضي ، وإن تغير الحال اليوم. فالأثاث : متاع البيت من الفرش والأكسية.

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ أي ومن نعمه تعالى أن جعل لكم من الأشجار والجبال وغيرها ظلالا تستظلون بها من شدة حر الشمس ، وشدة عصف الرياح.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً﴾ أي وجعل لكم من الجبال حصونا ومعاقل ومغارات وكهوفا ونحوها ، تأمنون فيها من العدو أو حر الشمس أو البرد.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ ..﴾ أي وجعل لكم ثيابا من القطن والكتّان والصوف ونحوها ، تقيكم شدة الحر ، أي والبرد ، لكن ذكر الحر لحاجة العرب في بلادهم الحارة إلى اتقاء الحر ، وما يقي الحر يقي البرد.

﴿وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ أي وجعل لكم دروعا من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ، تقيكم البأس والشدة في الحرب والطعن والضرب ورمي النبال ، واليوم تقي شظايا القنابل.

﴿كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ..﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وحوائجكم ، ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته ، أو مثل ذلك الإتمام بهذه النعم ، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ، ونعمة الدنيا والآخرة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ يا أهل مكة ، أي لتدخلوا في حظيرة الإسلام ، وتؤمنوا بالله وحده ، وتتركوا الشرك وعبادة الأوثان ، فتدخلوا جنة ربكم ، وتأمنوا عذابه وعقابه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما ..﴾ أي فإن أعرضوا بعد هذا البيان ، وتعداد النعم ، فليس عليك شيء ، إنما عليك فقط البلاغ لرسالتك ، الموضح لمهمتك ، المفسر لأصول الاعتقاد ومقاصد الدين ، وأسرار التشريع ، وقد أديت ذلك ، أي إن أعرضوا فلست بقادر على إيجاد الإيمان في نفوسهم ، إن عليك إلا البلاغ فحسب.

وسبب هذا الإعراض هو ما قاله : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ..﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المنعم عليهم بهذه النعم ، المتفضل بها عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك بأفعالهم ، ويعبدون معه غيره ، ويسندون الرزق والنصر إلى غيره ، إذ يقولون : إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعة هذه الأصنام ، فلم يخصوه تعالى بالشكر والعبادة ، بل شكروا غير الله تعالى.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ﴾ أي وأكثرهم الجاحدون المعاندون ، وأقلهم المؤمنون الصادقون. وإنما قال ﴿أَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فيهم من لم يكن معاندا ، بل جاهلا بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على طائفة من النعم التي أنعم الله بها على الناس وهي ما يأتي :

١ ـ الآية الأولى فيها تعداد نعم الله تعالى على الناس في البيوت ، فذكر بيوت المدن أولا ، وهي للإقامة الطويلة ، ثم ذكر بيوت البدو والأعراب والرعاة ، وهي بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف.

٢ ـ وفي الآية الأولى أيضا أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز ، وفي آية أخرى أذن في الأعظم من ذلك وهو ذبحها وأكل لحومها.

ولم يذكر القطن والكتان ؛ لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به ، وإنما عدّد عليهم ما أنعم به عليهم ، وخوطبوا بما عرفوا وألفوا.

والآية بعمومها دلت على جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال ، حتى إن المالكية والحنفية قالوا : صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع به على كل حال ، ويغسل مخافة أن يكون علق به وسخ. ويؤيدهم حديث أم سلمة عن النبي ﷺ : «لا بأس بجلد الميتة إذا دبغ ، وصوفها وشعرها إذا غسل». وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس : «أيما إهاب دبغ فقد طهر».

وزاد أبو حنيفة فقال : القرن والسّن والعظم مثل الشعر ؛ لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها ، فلا تنجس بموت الحيوان. وقال باقي الأئمة : إن ذلك نجس كاللحم.

وأجاز الزهري والليث بن سعد الانتفاع بجلود ميتة الأنعام ، وإن لم تدبغ ؛ لأن قوله تعالى : ﴿**مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ**﴾ عام في جلد الحي والميت. وخالفهما جمهور العلماء في ذلك.

والظاهر من مذهب مالك : أن الدباغ لا يطهر جلد الميتة ، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة ، ولا يصلّى عليه ، ولا يؤكل فيه. وأكثر المدنيين وأكثر أهل الحجاز والعراق على إباحة ذلك وإجازته ، للحديث المتقدم : «أيما إهاب دبغ فقد طهر».

وذهب الإمام أحمد إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء ، وإن دبغت ؛ لأنها كلحم الميتة ، واحتج بحديث عبد الله بن عكيم عند أبي داود : «ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب». وخالفه بقية الأئمة لحديث شاة ميمونة : الذي رواه عنها أبو داود والنسائي «لو أخذتم إهابها؟ فقالوا : إنها ميتة ، فقال : يطهرها الماء والقرظ».

والمشهور عند المالكية أن جلد الخنزير لا يدخل في الحديث ، ولا يتناوله العموم ، وكذلك الكلب عند الشافعي والأوزاعي وأبي ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه. أما جلد الكلب وما لا يؤكل لحمه فغير معهود الانتفاع به ، فلا يطهر.

٣ ـ دلت الآية الثانية على نعمة الظل والظلال : وهو كل ما يستظل به من البيوت والشجر ، وعلى نعمة الأكنان جمع كنّ : وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك ، وهي المغاور والكهوف في الجبال ، يأوي إليها الناس في البراري ، ويتحصنون بها من الأمطار والسيول والأعاصير وغير ذلك.

ودلت أيضا على نعمة السرابيل أي القمص ، والدروع التي تقي الناس في الحرب.

وفي قوله تعالى : ﴿وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدّة الجهاد ، ليستعينوا بها على قتال الأعداء.

ودل آخر الآية : ﴿كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ على إكمال نعم الله وأفضاله بإتمام نعمة الدين والدنيا والآخرة.

وكل هاتيك النعم لتكون سببا للانقياد والطاعة لله عَزَّوَجَلَّ ، شكرا على نعمه.

٤ ـ تشير الآية الثالثة إلى أن مهمة النبي ﷺ هي التبليغ ، وأما الهداية فإلى الله ، فإن أعرض الناس عن النظر والاستدلال والإيمان ، فعليهم تبعة إعراضهم.

٥ ـ الآية الرابعة صريحة في أن الكفار يعرفون أن النعم من عند الله ، ولكنهم ينكرونها بقولهم : إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم ، أو بواسطة شفاعة الأصنام. ويعرفون نبوة محمدﷺ ثم يكذبونه ، ويعرفون نعم الله بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم ، ولا يستعملونها في طلب رضوان الله تعالى.

وعيد المشركين وأحوالهم يوم القيامة

بعث الشاهد عليهم وعلى المؤمنين وعدم تخفيف العذاب ومضاعفته عليهم

وتكذيب المعبودات لهم

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

المفردات اللغوية :

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ واذكر ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ جيل من الناس ﴿شَهِيداً عَلَيْهِمْ﴾ هو نبيهم يشهد لها وعليها بالإيمان والكفر يوم القيامة ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار ؛ إذ لا عذر لهم ، أي إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع إلى ما يرضي الله ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الْعَذابَ﴾ النار ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون ويؤخرون إذا رأوه.

﴿شُرَكاءَهُمْ﴾ من الشياطين وغيرها الذين شاركوهم في الكفر بالحث عليه ، أو أوثانهم التي دعوها ﴿نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم ، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك ، أو التماس بأن يشطر عذابهم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي قالوا لهم ﴿إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله ، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة ، وإنما عبدوا أهواءهم ، كقوله تعالى : ﴿ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٦٣] ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ﴾ [مريم ١٩ / ٨٢] ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذِ السَّلَمَ﴾ أي استسلموا لحكمه ، بعد الاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ غاب وضاع عنهم وبطل ﴿ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم ، حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي ومنعوا الناس عن دين الله وهو الإسلام ، والحمل على الكفر ﴿زِدْناهُمْ عَذاباً﴾ لصدهم ﴿فَوْقَ الْعَذابِ﴾ المستحق بكفرهم ﴿يُفْسِدُونَ﴾ بصدهم الناس عن الإيمان.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ واذكر ﴿شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ هو نبيهم ، فإن نبي كل أمة بعث منهم ﴿وَجِئْنا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ قومك أو أمتك ﴿الْكِتابَ﴾ القرآن ﴿تِبْياناً﴾ بيانا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة ﴿وَهُدىً﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرى﴾ بالجنة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة ، وهم الموحدون الخاضعون لله.

المناسبة :

بعد أن أوضح الله تعالى حال المشركين الذين عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، وأبان أن أكثرهم الكافرون ، أتبعه بالوعيد ، فذكر حالهم يوم القيامة وبعض مشاهدهم من شهادة نبيهم لهم أو عليهم ، وعدم تخفيف العذاب عنهم ومضاعفته عليهم ، وتكذيب المعبودات لهم أنهم شركاء لله ، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة ، وإنما عبدوا أهواءهم.

ثم ذكر تعالى نوعا آخر من التهديدات المانعة من المعاصي : وهو إحضار شاهد على كل أمة ، وأن النبي ﷺ شاهد على أمته ، وأن من مزاياه بيان أحكام القرآن الذي هو هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين بالجنان.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن شأن المشركين وأحوالهم يوم القيامة ، فيقول : ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً**﴾.

أي واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين يوم نبعث من كل أمة شاهدا عليهم ، وهو نبيهم يشهد عليهم بما أجابوه عما بلّغهم عن الله تعالى ، إما بالإيمان وإما بالكفر والعصيان ، كما قال تعالى : ﴿**فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً**﴾ [النساء ٤ / ٤١].

﴿**ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ ثم لا يسمح للكفار بالاعتذار والدفاع عن أنفسهم ، إذ لا حجة لهم ، ولأنهم يعلمون كذبهم في الاعتذار ، كقوله تعالى : ﴿**هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾ [المرسلات ٧٧ / ٣٥].

وإيراد ﴿**ثُمَّ**﴾ يدل على أن منعهم من الكلام والاعتذار أشد عليهم من شهادة نبيهم عليهم.

﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا يطلب منهم العتاب ؛ إذ لا فائدة في العتاب مع سخط الله وغضبه ، فإن الرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان جازما أنه إذا عاتبه ، رجع إلى صالح العمل ، والآخرة دار جزاء لا دار تكليف وعمل ، ولا أمل في الرجوع إلى الدنيا.

﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ..﴾ أي وإذا عاين الذين أشركوا وجحدوا نبوة الأنبياء العذاب ، فلا ينجو منهم أحد ، ولا يخفف عنهم من شدته ساعة واحدة ، ولا يمهل عقابهم ولا يؤخر عنهم ، بل يؤخذون بسرعة من الموقف بلا حساب ؛ لأنه فات وقت التوبة والإنابة ، وحان وقت الجزاء على الأعمال.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ ، سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ، وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ ، دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً﴾[1]﴿، لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً ، وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ١٢ ـ ١٤] وقوله سبحانه : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً﴾ [الكهف ١٨ / ٥٣].

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهة المشركين منهم في وقت أحوج ما يكونون إليها ، وهذا من بقية وعيد المشركين ، فقال : ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ ..﴾.

أي إذا شاهد المشركون بالله يوم القيامة شركاءهم الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله في الدنيا ، ألقوا تبعة شركهم عليها ، وقالوا : هؤلاء شركاؤنا الذين كنا نعبدهم وندعوهم من دونك ، قاصدين بذلك إحالة الذنب والإثم على هؤلاء الشركاء ، وهو شأن المتخبط في عمله ، كالغريق الذي يتمسك بما تقع يده عليه.

فرد الشركاء قائلين : ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ ..﴾ أي قالت لهم الآلهة :

---

(١) الثبور : الهلاك.

كذبتم ، ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، كقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ. وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً ، وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٥ ـ ٦] وقوله : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٨١ ـ ٨٢].

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذِ السَّلَمَ﴾ أي استسلم العابد والمعبود ، وأقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والأنداد ، وذلوا واستسلموا لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا﴾ [السجدة ٣٢ / ١٢]. وقال : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا﴾ [مريم ١٩ / ٣٨] أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ. وقال : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه ٢٠ / ١١١] أي خضعت وذلت واستسلمت.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وذهب عنهم افتراؤهم بنسبة الشركاء لله ، وأنها نصراء وشفعاء لهم ، كما حكى تعالى عنهم : ﴿وَيَقُولُونَ : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس ١٠ / ١٨] وذلك حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

وبعد ذكر وعيد الذين كفروا الضالين ، أتبعه بوعيد من ضم إلى كفره صد غيره عن سبيل الله ، من الضالين المضلين ، فقال : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ..﴾ أي الذين جحدوا النبوة وأشركوا بالله وكفروا بأنفسهم وحملوا غيرهم على الكفر ، وصدوا عن سبيل الله ، وهو الإيمان بالله ورسوله ، يضاعف الله عقابهم ، كما ضاعفوا كفرهم ، فهم في الحقيقة ازدادوا كفرا على كفر ، فاستحقوا عذابين : عذاب الكفر ، وعذاب الإضلال والإفساد ، والصد عن سبيل الله ، واتباع طريق الحق والإسلام ، كقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٦] أي ينهون الناس عن اتباع محمد ، ويبتعدون هم منه أيضا.

﴿بِما كانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أي هذه الزيادة من العذاب بسبب الإفساد والصد. وهذا دليل على أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال ، فقد عظم عذابه ، فكذلك إذا دعا إلى الدين الحق واليقين ، فقد عظم قدره عند الله تعالى.

والآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم ، كما قال تعالى : ﴿قالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ ، وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٨].

ثم خصص الله تعالى بالذكر شهادة محمد ﷺ على أمته ، وهو نوع آخر من التهديد المانع من المعاصي ، فقال مخاطبا رسوله : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ..﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم نبعث في كل أمة (أي قرن وجماعة) نبيها يشهد عليها ، قطعا للحجة والمعذرة ، وجئنا بك شاهدا على هؤلاء أي أمتك ، بما أجابوك به عن رسالتك ، فيظهر لك الشرف الرفيع والمقام العظيم.

وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله : ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء ٤ / ٤١] فقال له رسول الله ﷺ : «حسبك» فقال ابن مسعود رضي الله عنه : فالتفتّ ، فإذا عيناه تذرفان.

ثم أبان الله تعالى بمناسبة بيان شهادة النبي على أمته أنه أزاح علتهم فيما كلفوا ، فلم يبق لهم حجة ولا معذرة ، فقال :

﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً ..﴾ أي ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبيانا لكل شيء من العلوم والمعارف الدينية ، مما يحتاج إليه الناس في حياتهم ، وهدى للضالين ، ورحمة لمن صدّق به ، وبشرى لمن أسلم لله وجهه ، فأطاعه وأناب إليه ، بجنان الخلد والثواب العظيم.

وبيان القرآن لأحكام التشريع حلاله وحرامه إما بالوحي نصا ومعنى مباشرة ، وإما بالوحي معنى وهو السنة التي فيها بيان آخر لمجمل القرآن ، كما قال تعالى : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل ١٥ / ٤٤] وقال ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي عن المقدام بن معديكرب : «إني أوتيت القرآن ومثله معه» ثم يأتي دور الاجتهاد في نطاق النصوص الشرعية ، وفي ضوء مبادئ التشريع ، وروح الشريعة العامة ، وضمن مقاصدها وأهدافها العامة. والاجتهاد يشمل كل مصادر التشريع الأخرى غير النصية من إجماع وقياس واستصلاح واستحسان وعرف وسد ذريعة واستصحاب وغير ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ كل نبي شاهد على أمته بما أجابوه عن دعوته ، وليس في الآخرة مجال للاعتذار عن التقصير والدفاع عن النفس ، ولا يكلف الكفار أن يرضوا ربهم يوم القيامة ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون فيرجعوا إلى الدنيا فيتوبوا.

٢ ـ لا تخفيف لعذاب جهنم عن المشركين الظالمين ، فيدخلون فيها ، ولا يؤخرون ولا يمهلون ، وإنما يؤخذون بسرعة من الموقف بلا نقاش في الحساب ، إذ لا توبة لهم حينئذ.

٣ ـ تتبرأ الآلهة المزعومة من عبادة عابديها ، وتكذبهم بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار.

ويستسلم العابد والمعبود لحكم الله فيهم ، ويبعث الله المعبودين من أصنام وأوثان وغيرها ، فيتّبعهم العابدون حتى يوردوهم النار. ورد في صحيح مسلم من حديث أنس : «من كان يعبد شيئا فليتّبعه ، فيتّبع من كان يعبد الشمس

الشمس ، ويتّبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتّبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة ، وفيه : «فيمثّل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ، فيتّبعون ما كانوا يعبدون».

٤ ـ للكفار الذين يصدون عن سبيل الله وهو سبيل الحق والإسلام عذاب مضاعف بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية. ونوع زيادة العذاب موضح في الحديث التالي ، روى الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : «إن أهل النار إذا جزعوا من حرّها ، استغاثوا بضحضاح في النار ، فإذا أتوه ، تلقّاهم عقارب كأنهم البغال الدّهم ، وأفاع كأنهن البخاتيّ [١] تضربهم ، فذلك الزيادة».

٥ ـ الأنبياء ـ كما ذكرنا ـ شهود على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم الرسالة ، ودعوهم إلى الإيمان ، وفي كل زمان شهيد ، وإن لم يكن نبيا ، وهم أئمة الهدى خلفاء الأنبياء والعلماء حفظة شرائع الأنبياء.

والنبي ﷺ شاهد على أمته والأمم الأخرى ، كما قال تعالى : ﴿**وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ، لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾ [البقرة ٢ / ١٤٣] وقال : ﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [الحج ٢٢ / ٧٨].

قال القرطبي : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحّد الله ، كقس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل الذي قال فيه النبي ﷺ : «يبعث أمة وحده» وسطيح [٢] ، وورقة بن نوفل الذي قال فيه النبي ﷺ : «رأيته ينغمس

---

(١) البخاتي : جمال ضخام طوال الأعناق.

(٢) سطيح : هو كاهن بني ذئب ، كان يتكهن في الجاهلية ، واسمه ربيع بن ربيعة.

في أنهار الجنة». فهؤلاء ومن كان مثلهم حجة على أهل زمانهم ، وشهيد عليهم [١].

٦ ـ القرآن الكريم تبيان لكل شيء من أصول التشريع والحلال والحرام ، والشرائع والأحكام ، ومبادئ الحياة الإنسانية ، قال تعالى : ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام ٦ / ٣٨].

وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله تعالى إلا ما ورد في هذا القرآن ، أي إما جملة وتفصيلا ، وإما جملة فقط. أما الأدلة الأخرى كالإجماع وخبر الواحد والقياس ، فقد دل القرآن الكريم ذاته على حجيتها ، كما هو معروف في علم أصول الفقه. وكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب ، فمن ثم كان تبيانا لكل شيء ، كما قال الزمخشري.

أجمع آية في القرآن للخير والشر والوفاء بالعهد والهداية والإضلال

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ

---

(١) تفسير القرطبي : ١٠ / ١٦٤

أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾

الإعراب :

﴿تَوْكِيدِها﴾ مضاف إليه ، وهو مصدر وكّد ، ويقال : أكّد في وكّد ، والواو هي الأصل ، والهمزة بدل منها كما كانت في «أحد» وأصلها «وحد».

﴿أَنْكاثاً﴾ منصوب على المصدر ، وعامله ﴿نَقَضَتْ﴾ لأنه بمعنى : نكثت نكثا ، أو حال.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿تَكُونُوا﴾.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ في موضع نصب على تقدير : كراهة أن تكون أمة ، أو لئلا تكون أمة. و ﴿تَكُونَ﴾ تامة ، و ﴿أُمَّةٌ﴾ فاعلها. و ﴿هِيَ أَرْبى ..﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة في موضع رفع ، صفة ﴿أُمَّةٌ﴾. وهاء ﴿بِهِ﴾ تعود على العهد ، وقيل : التكاثر.

البلاغة :

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..﴾ مقابلة حيث جمع بين الأمر بثلاثة ، ونهى عن ثلاثة. وإيتاء ذي القربى خاص بعد عام للاهتمام به. ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها﴾ تشبيه تمثيلي ، شبّه تعالى من يعاهد ثم ينقض عهده بالمرأة التي تغزل غزلا ثم تنقضه.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فيه استعارة القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه ، لكون الثبات يكون عادة بالقدم ، ثم شبه الانحراف عن الحق بزلل القدم ، وهو تشبيه المعنوي بالانزلاق الحسي بطريق الاستعارة.

﴿يُضِلُ وَيَهْدِي﴾ بينهما طباق ، وكذا بين ﴿يَنْفَدُ﴾ و ﴿باقٍ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿بِالْعَدْلِ﴾ قال ابن عطية : العدل : فعل كل مفروض من عقائد وشرائع وسير مع الناس في أداء الأمانات ، وترك الظلم ، والإنصاف وإعطاء الحق. والإحسان : فعل كل مندوب إليه [١].

وذكر البيضاوي أن العدل : التوسط في الأمور اعتقادا ، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك ، والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر ، وعملا كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ، وخلقا كالجود المتوسط بين البخل والتبذير. والإحسان : إحسان الطاعات ، وهو إما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل ، أو بحسب الكيفية ، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الشيخان عن عمر : «الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك».

والخلاصة : إن العدل : الإنصاف ، والإحسان : إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض ، ومقابلة الخير بأفضل منه ، والشر بأقل منه.

﴿وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى﴾ إعطاء القرابة حقهم من الصلة والبر ، وخص ذلك بالذكر اهتماما به و ﴿الْفَحْشاءِ﴾ كل قبيح قولا أو فعلا ، ويشمل الزنى والسرقة وشرب المسكرات والطمع ونحو ذلك من المذموم ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما أنكره الشرع واستقبحه العقل السليم ، كالكفر والمعاصي من الضرب الشديد والقتل وغمط حقوق الناس ، ونحو ذلك ﴿وَالْبَغْيِ﴾ ظلم الناس ، والاستعلاء عليهم وتجاوز الحد ، وخصه بالذكر اهتماما ، كما بدأ بالفحشاء اهتماما بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

جاء في المستدرك عن ابن مسعود : وهذه أجمع آية في القرآن للخير والشر. وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون ﷺ ، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية ، لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين.

﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ العهد : كل ما يلتزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه الوعد والبيع والأيمان وغيرها ﴿وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ﴾ نقض اليمين : الحنث فيها ، والأيمان هنا : مطلق الأيمان أو أيمان

---

(١) البحر المحيط : ٥ / ٥٢٩

العهد ﴿تَوْكِيدِها﴾ توثيقها ﴿كَفِيلاً﴾ شاهدا ورقيبا بالوفاء ، حيث حلفتم به ، والجملة حال ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ في نقض الأيمان أو العهود ، وهو تهديد لهم.

﴿نَقَضَتْ﴾ أفسدت أو فكت غزلها من بعد إبرام وإحكام ﴿غَزْلَها﴾ ما غزلته من صوف ونحوه ، وهو مصدر بمعنى المفعول ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بنقضت ، أي من بعد إحكام له وإبرام ﴿أَنْكاثاً﴾ جمع نكث : وهو ما ينكث بمعنى منكوث وهو المنقوص ، أي يحل فتله وينقض بعد غزله. وهي امرأة حمقاء من مكة ، كانت تغزل طول يومها ، ثم تنقضه. ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ أي لا تكونوا مثلها في اتخاذكم أيمانكم مكرا وخديعة ﴿دَخَلاً﴾ أي فسادا ومكرا وخديعة ، وأصل الدّخل : ما يدخل في الشيء ، وليس منه ، والمراد أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي لأن تكون جماعة ﴿هِيَ أَرْبى﴾ أكثر وأوفر عددا. والمناسبة : أنهم كانوا يحالفون الحلفاء ، فإذا وجدوا أكثر منهم وأعز ، نقضوا حلف أولئك ، وحالفوهم.

﴿إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾ يختبركم الله بما أمر به من الوفاء بالعهد ، لينظر المطيع منكم والعاصي ، أو يختبركم بكون أمة أربى ، لينظر : أتفون بالعهود أم لا؟ ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من أمر العهد وغيره ، بأن يعذب الناكث ويثيب الوافي ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ﴾ هذه المشيئة مشيئة اختيار على مذهب أهل السنة ﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾ أهل دين واحد ، متفقين على الإسلام ﴿وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ أي أنه تعالى جعل ناسا للشقاوة أو الضلال وهم من لم يأخذوا بأسباب الهدى ، وكان في سابق علم الله أنهم لو تركوا وأنفسهم لما فعلوا إلا الضلال والفساد والبهتان ، وجعل ناسا آخرين للسعادة وهم من اهتدوا بآيات الله ، وعلى هذا النحو خلق الضلال والهدى ، أما الإضلال فبالخذلان لمن اختار الكفر ، عدلا ، وأما الهداية فبالتوفيق لاختيار الإيمان والدوام عليه ، فضلا.

﴿وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا سؤال توبيخ وتبكيت يوم القيامة ، لا سؤال تفهم ، فهذا منفي في آيات أخرى ، مثل : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٣٩].

﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ كرره تأكيدا ، وهو تصريح بالنهي عنه بعد التضمين ، تأكيدا ومبالغة في قبح المنهي ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي أقدامكم عن محجة الإسلام ، وإنما وحد ونكر للدلالة على أن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة؟! ﴿بَعْدَ ثُبُوتِها﴾ استقامتها عليه ﴿السُّوءَ﴾ العذاب في الدنيا ﴿بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي بصدودكم عن الوفاء بالعهد ، أو بصدكم غيركم عنه ؛ لأنه يستن بكم ﴿وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضا يسيرا من الدنيا ، بأن تنقضوه لأجله. والمناسبة : أن قريشا كانوا يعدون بوسائل الإغراء ضعاف المسلمين

ويشترطون لهم على الارتداد أن يكافئوهم ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي إن ما عند الله من النصر والغنيمة في الدنيا ، والثواب في الآخرة هو خير لكم مما يعدونكم من عطاء في الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز ، وتعلمون ذلك ، فلا تنقضوا. والخلاصة : إن هذه الآية تحذير من نقض أيمان مخصوصة ، وهي نقض عهد رسول الله على الإيمان به ، واتباع شرائعه ، طمعا في خيرات الدنيا ومغرياتها.

﴿ما عِنْدَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا وأمتعتها ﴿يَنْفَدُ﴾ يفنى أو ينقضي ﴿وَما عِنْدَ اللهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿باقٍ﴾ دائم لا ينفد ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الوفاء بالعهود وأذى الكفار ومشاق التكاليف ﴿أَجْرَهُمْ﴾ ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بجزاء أحسن من أعمالهم ، وقال السيوطي : أحسن بمعنى حسن هنا.

سبب النزول :

نزول الآية (٩١):

﴿وَأَوْفُوا﴾ : أخرج ابن جرير عن بريدة قال : نزلت هذه الآية في بيعة النبيﷺ. وأخرج ابن جرير عن مزيدة بن جابر أن الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ ، كان من أسلم يبايع على الإسلام ، فقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ ..﴾ الآية ، فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه ، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ، وإن كان في المسلمين قلة ، وفي المشركين كثرة.

نزول الآية (٩٢):

﴿وَلا تَكُونُوا﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص : كانت سعيدة الأسدية حمقاء ، تجمع الشعر والليف ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها﴾.

المناسبة :

بعد أن أفاض الله تعالى في وعد المتقين ووعيد الكافرين ، وأكد الترغيب والترهيب ، أتبعه بأوامر جامعة لأمهات الفضائل ، وأصول الأخلاق الاجتماعية ،

وأنواع التكاليف المفروضة والنوافل ، وهي العدل والإحسان والوفاء بالعهود.

أما آية ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فهي ـ كما قال ابن مسعود ـ أجمع آية في القرآن للخير والشر ، وسأذكر الحديث كله. وقال عنها قتادة : ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ، ويستحسنوه ، إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدّم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامّها. ولهذا جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني وأبو نعيم والحاكم والبيهقي عن سهل بن سعد : «إن الله يحب معالي الأخلاق ، ويكره سفسافها».

وقال الحافظ أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه ، قال : بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ ، فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدعوه ، وقالوا : أنت كبيرنا ، لم تكن لتخفّ إليه ، قال : فليأته من يبلّغه عني ويبلّغني عنه ، فانتدب رجلان ، فأتيا النبي ﷺ فقالا له : نحن رسل أكثم بن صيفي ، وهو يسألك من أنت ، وما أنت؟ فقال النبي ﷺ : أما من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله.

قال : ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ الآية. قالوا : ردّد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم ، فقالا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه ، فوجدناه زاكي النسب ، وسطا في مضر ـ أي شريفا ـ وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ـ مساوئها ـ ، فكونوا في هذا الأمر رؤساء ، ولا تكونوا فيه أذنابا [1].

وقد ورد في نزولها حديث حسن طويل رواه الإمام أحمد ، مفاده أنها كانت سببا في إسلام عثمان بن مظعون ، وموجزه : أن عثمان بن مظعون كان جليس

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٨٢ وما بعدها.

النبي ﷺ وقتا ، فقال له عثمان : ما رأيتك تفعل فعلتك الغداة ، قال : وما رأيتني فعلت؟ قال : شخص بصرك إلى السماء ، ثم وضعته على يمينك ، فتحرفت عني إليه ، وتركتني ، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئا يقال لك ، قال : أو فطنت لذلك؟ أتاني رسول الله آنفا ، وأنت جالس ، قال : فما ذا قال لك؟ قال لي : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..﴾ الآية قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي ، وأحببت محمدا ﷺ . ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصرا.

وأخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : أعظم آية في كتاب الله تعالى : ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾. وأكثر آية في كتاب الله تفويضا : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٢ . ٣]. وأشد آية في كتاب الله رجاء : ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر ٣٩ / ٥٣].

وعن عكرمة : أن النبي ﷺ قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية ، فقال له : يا ابن أخي ، أعد عليّ ، فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن رضي الله عنه : أنه قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ الآية ، ثم قال : إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله ، والشر كله في آية واحدة ، فو الله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله تعالى إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئا إلا جمعه وزجر عنه.

التفسير والبيان :

هذه الآيات دعائم الحياة الإسلامية وركائز المجتمع الإسلامي ، فالآية الأولى يأمر الله فيها عباده بالعدل والإنصاف بصفة مطلقة في كلّ شيء ، في التّعامل ، والقضاء والحكم ، وشؤون الدّين والدّنيا ، وسلوك الإنسان مع نفسه ومع غيره ، بل وفي الاعتقاد ، فلا يعبد بحقّ وعدل غير الله الخالق الرّازق النافع ، والآلهة المزعومة من أصنام وأوثان وكواكب وملائكة وأنبياء وأولياء وزعماء لا تستحق شيئا من العبادة والتقديس ، قال ابن عباس في آية ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**﴾ : شهادة أن لا إله إلا الله.

روى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : دعاني عمر بن عبد العزيز فقال : صف لي العدل ، فقلت : بخ ، سألت عن أمر جسيم ، كن لصغير النّاس أبا ، ولكبيرهم ابنا ، وللمثل منهم أخا ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم ، وعلى قدر ذنوبهم ، وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربنّ لغضبك سوطا واحدا ، فتكون من العادين.

ويندب الله تعالى إلى الإحسان ، والإحسان في العبادة : هو كما في حديث عمر في الصحيحين : «أن تعبد الله كأنّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» والإحسان في الجزاء العقاب بالمثل واستيفاء الحق في القتل والجرح عن طريق القصاص (المعاملة بالمثل). والإحسان في وفاء الحقّ أو الدين : أداؤه من غير مماطلة ، أو مع الزيادة غير المشروطة المتبرع بها.

وأفضل الإحسان وأعلاه الإحسان إلى المسيء ، فقد أمر النّبي ﷺ به : «وأحسن إلى من أساء إليك تكن مسلما». وقال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك.

وروى البخاري في تاريخه أن علي بن أبي طالب مرّ بقوم يتحدّثون ،

فقال : فيم أنتم؟ فقالوا : نتذاكر المروءة ، فقال : أو ما كفاكم الله عَزَّوَجَلَّ ذاك في كتابه إذ يقول : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ فالعدل : الإنصاف ، والإحسان : التّفضل ، فما بقي بعد هذا؟

وقال سفيان بن عيينة : العدل في هذا الموضع : هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا ، والإحسان : أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر : أن تكون علانيته أحسن من سريرته.

ويأمر الله في هذه الآية بإيتاء ذي القربى أي بصلة الأرحام والأقارب ، بالزيارة والمودة والعطاء والتّصدق عليهم ، كما قال تعالى : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٦] ، وقد خصّه بالذّكر مع أنه داخل في الإحسان للاهتمام به والعناية بشأنه.

وبعد أن أمر تعالى بثلاثة نهى عن ثلاثة فقال : ﴿وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ، والفحشاء : الشيء المحرم كالزّنى والسّرقة وشرب المسكر وأخذ أموال النّاس بالباطل.

والمنكر : ما قبّحه الشّرع والعقل ، وظهر من الفواحش من فاعلها ، كالقتل والضرب بغير حق ، وازدراء الناس وغمطهم حقوقهم ، قال تعالى : ﴿قُلْ : إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٣].

والبغي : ظلم النّاس والاعتداء عليهم ؛ جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن أبي بكرة : «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدّنيا ، مع ما يدّخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي ، وقطيعة الرّحم».

والخلاصة : العدل : أداء الواجب ، والإحسان : الزيادة فيه ، والفحشاء والمنكر والبغي : تجاوز حدود الشّرع والعقل.

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشّر ، لتتعظوا وتتذكروا وتعملوا بما فيه مرضاة الله تعالى ، فقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ليس المراد منه التّرجي والتّمني ، فإن ذلك محال على الله تعالى ، فوجب أن يكون معناه : أنه تعالى يعظكم لإرادة أن تتذكّروا طاعته ، وهو يدلّ على أنه تعالى يريد الإيمان من الكلّ.

وبعد أن ذكر الله تعالى كلّ المأمورات والمنهيات في الآية الأولى على سبيل الإجمال ، خصص بعضها بالذّكر ، فبدأ بالأمر بالوفاء بالعهد ، فقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ ..﴾ أي ووفوا بالعهود والمواثيق ، وحافظوا على الأيمان المؤكدة ، وعهد الله : كلّ ما يجب الوفاء به ، من تطبيق أحكام الإسلام ، وكلّ عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، والوعد من العهد ، كما قال ابن عباس.

ثم أكّد الله تعالى ضرورة الوفاء بالعهد بقوله : ﴿وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها ..﴾ أي واحذروا نقض العهود وأيمان البيعة على الإسلام بعد توثيقها باسم الله. وأكّد ووكّد لغتان فصيحتان. والمراد بالأيمان هنا : هي الدّاخلة في العهود والمواثيق ، أي أيمان العهد أو الأحلاف المعقودة ، لا الأيمان التي هي واردة على حثّ أو منع. روى أحمد ومسلم عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : «لا حلف في الإسلام ، وأيما حلف كان في الجاهلية ، فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدّة» يعني في نصرة الحق والقيام به ، والمعنى : أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التّمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وهذا مثل حلف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق فقال : اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه ، فتعاقدوا وتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه ، حتى تردّ عليه مظلمته. فسمّت

قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، أي حلف الفضائل. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ أي شهيدا.

ثمّ جعل الله تعالى نفسه رقيبا على العهود لتأكيد احترامها : ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ أي إنه مطّلع ومراقب كلّ ما تفعلونه في العهود ، من البرّ بها أو النّقض لها ، ومحص ذلك عليكم ، ومجازيكم على أفعالكم ، ثوابا ورضا في حال البرّ والوفاء ، وعقابا وسخطا في حال النّقض والعبث والإخلال بأحكام المعاهدة. وهذا وعد للطائع ، ووعيد وتهديد للمخالف الذي ينقض عهده بعد توكيده.

ثم أكّد الله تعالى حرمة العهد مرّة ثالثة فقال : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ ...﴾ أي ولا تكونوا في نقض العهود والمواثيق كالتي نقضت غزلها بعد إبرامه. قال عبد الله بن كثير والسّدّي : هذه امرأة خرقاء كانت بمكّة ، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه. واسمها : ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة.

أو هو مثل لمن نقض عهده بعد توكيده كما قال مجاهد وغيره ، فمن نقض العهد كان كمن نقض الغزل بعد فتله وإبرامه ، فهو ليس من فعل العقلاء ، وإنما في زمرة الحمقى. والأنكاث : الأنقاض.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ..﴾ أي تجعلون أيمانكم على الوفاء بالعهد خديعة ومكرا وتغريرا بالطرف الآخر ، من أجل أن تكون جماعة أقوى وأكثر عددا وعدّة من جماعة أخرى ، بل عليكم الوفاء بالعهود والحفاظ عليها.

فقوله تعالى : ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ﴾ معناه أنكم تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ، ليطمئنوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم ، غدرتم ، فنهى الله عن ذلك ، لينبّه بالأدنى على الأعلى ، أي إذا نهاكم عن الغدر في هذه الحالة ، فلأن ينهى عنه مع التّمكن والقدرة بطريق الأولى. وأربى : أكثر.

والمقصود : النّهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم.

ومن أمثلة الوفاء بالعهد : أن معاوية كان بينه وبين ملك الروم أمد ، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل ، حتى إذا انقضى ، وهو قريب من بلادهم ، أغار عليهم ، وهم غارّون . غافلون . لا يشعرون ، فقال له عمرو بن عنبسة : الله أكبر يا معاوية ، وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كان بينه وبين قوم أجل ، فلا يحلنّ عقدة حتى يمضي أمدها» فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش.

﴿**إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ**﴾ أي إنما يعاملكم معاملة المختبر ، بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ، لينظر أتغترون بالكثرة والقلّة أم تراعون العهد؟!

﴿**وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ ..**﴾ أي وليبينن لكم ربّكم يوم القيامة ما كنتم تختلفون فيه ، من أمر الإيمان والكفر ، والوفاء بالعهد والنّقض ، فيجازي كلّ عامل بعمله من خير أو شرّ ، وهذا إنذار وتحذير من مخالفة ملّة الإسلام ، التي من أهمّ أحكامها وجوب الوفاء بالعهد.

والله قادر على جمعهم على الإيمان وعلى الوفاء بالعهد ، فقال : ﴿**وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ..**﴾ أي ولو شاء الله لجعل الناس على ملّة واحدة أو دين واحد ، بمقتضى الفطرة والغريزة ، فتصبحون كالملائكة مخلوقين على منهج الطاعة والانقياد لأمر الله تعالى ، فلا اختلاف ولا تباغض ولا شحناء ، وإنما وفاق بينكم.

ولكن حكمة الله اقتضت خلقكم متفاوتين في الكسب ، كسب الإيمان والتزام الأحكام ، مختارين الاعتقاد والعمل ، فيضلّ من يشاء ممن سبق في علمه أنه سيختار الضّلال ، ويهدي من يشاء ممن علم في الأزل أنه سيفعل الخير ويختار الإيمان.

﴿وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة سؤال حساب وجزاء ، لا سؤال استفهام ، عن جميع أعمالكم ، فيجازيكم عليها خيرا أو شرّا.

ونظير الآية كثير في القرآن ، مثل : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس ١٠ / ٩٩] ، ومثل : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ، وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود ١١ / ١١٨ ـ ١١٩].

وبعد أن حذّر الله تعالى في الآية الأولى عن نقض العهود والأيمان على الإطلاق ، حذّر في قوله : ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها ، وهي أيمان البيعة للنّبي ﷺ على الإسلام.

والمعنى : يحذر الله تعالى عباده وينهاهم عن اتّخاذ الأيمان دخلا ، أي خديعة ومكرا ، تغرون بها الناس ، لئلا تزل قدم في الضّلال بعد ثبوتها على الاستقامة والإيمان. وهذا مثل لمن كان على الاستقامة ، فحاد عنها ، وزلّ عن طريق الهدى ، بأيمان حانثة مشتملة على الصّدّ عن سبيل الله ؛ لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ، ثم غدر به ، لم يعد يثق بالدّين ، فانصدّ بسبب الغدر عن الدّخول في الإسلام.

﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ ..﴾ أي وتذوقوا العذاب السّيء الشديد وهو القتل والأسر في الدنيا ، بسبب صدّكم عن سبيل الله ؛ لأن الدخول في الدّين ، ثم الخروج منه ، مشجع للآخرين بالبعد عن الإسلام.

﴿وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولكم عقاب شديد في الآخرة ، جزاء المخالفة والانضمام لفئة الأشقياء الضّالين.

أي إنكم إن نقضتم العهد وقعتم في مفاسد ثلاثة :

١ ـ البعد عن منهج الاستقامة والنّأي عن طريق الهدى ، بعد الثّبات فيهما.

٢ ـ تحمّل سوء العذاب في الدّنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال وهجر الأوطان.

٣ ـ العقاب في الآخرة جزاء الإعراض عن جادّة الحقّ والإعراض عن أهله.

ثم حذّر الله تعالى عن نقض العهد بالمعاوضات فقال : ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان المحلوفة بالله عرض الحياة الدّنيا وزينتها ، فإنها قليلة.

﴿إِنَّما عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي لو خيرت للإنسان الدّنيا بحذافيرها ، لكان ما عند الله هو خير له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به ، وهو خير أيضا من ذلك العرض القليل في الدّنيا.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون التّفاوت بين خيرات الدّنيا وبين خيرات الآخرة.

ووجه الخيرية : ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾ أي إن متاع الدّنيا أو نعيمها ينقضي ويفرغ ويزول ، وإن طال الأمد ، وما عند الله من ثواب في الجنّة باق خالد لا انقطاع ولا نفاد له ، فإنه دائم لا يحول ولا يزول.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ..﴾ أي والله لنجازي ونثيب الصابرين الذين صبروا على أذى المشركين وأحكام الإسلام التي تتضمن الوفاء بالعهود ، بأحسن أعمالهم ونتجاوز عن سيئها ، وهو ثواب عظيم ، ووعد حسن بمغفرة السّيئات.

فقه الحياة أو الأحكام :

حدّدت هذه الآيات دعائم المجتمع المسلم في الحياة الخاصة والعامة ، للفرد والجماعة والدولة.

فأمرت الآية بأوامر ثلاثة ، ونهت عن نواه ثلاثة ، تعتبر محاسن الأخلاق. أما الأوامر : فهي التزام العدل ، والإنصاف بأداء الواجبات والفرائض ، وفعل الإحسان وهو الزيادة والتّفضل ، أو النافلة المستحبة فوق الفرض والواجب ، وإيتاء ذي القربى أي صلة الأقارب والأرحام. وإنما خصّ ذا القربى ؛ لأن حقوقهم أوكد ، وصلتهم أوجب.

قال ابن عطية : العدل : هو كلّ مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات ، وترك الظلم والإنصاف ، وإعطاء الحقّ. والإحسان : هو فعل كلّ مندوب إليه ؛ فمن الأشياء ما هو كلّه مندوب إليه ، ومنها ما هو فرض ، إلا أنّ حدّ الإجزاء منه داخل في العدل ، والتّكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان.

وقسم ابن العربي العدل ثلاثة أقسام : عدل مع الله ، وعدل مع النفس ، وعدل مع الناس ، فقال :

العدل بين العبد وبين ربّه : إيثار حقّه تعالى على حظّ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزّواجر والامتثال للأوامر.

وأما العدل بينه وبين نفسه : فمنعها مما فيه هلاكها ؛ قال الله تعالى : ﴿**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾ وعزوب الأطماع عن الاتّباع ، ولزوم القناعة في كلّ حال ومعنى.

وأما العدل بينه وبين الخلق : فبذل التّضحية ، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكلّ وجه ؛ ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل ، لا في سرّ ولا في علن ، والصّبر على ما يصيبك منهم من البلوى ، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى.

وأما النّواهي الثلاثة : فهي عن الفحشاء والمنكر والبغي. والفحشاء : الفحش ، وهو كلّ قبيح من قول أو فعل كالزّنى والغيبة. والمنكر : ما أنكره الشّرع بالنّهي عنه ، وهو يعمّ جميع المعاصي والرّذائل والدّناءات على اختلاف أنواعها ، وأخطرها الشّرك. والبغي : هو تجاوز الحدّ ، كالكبر والظّلم والحقد والتّعدّي. وخصّ بالذّكر ، بالرّغم من دخوله تحت المنكر ، اهتماما به ؛ لشدّة ضرره. ومن معاني الحديث : «لا ذنب أسرع عقوبة من بغي» «الباغي مصروع» ، وقد وعد الله من بغي عليه بالنّصر ، وفي بعض الكتب المنزلة : لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دكّا.

وتضمّنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

والآية الثانية خصصت بالذّكر الأمر بالوفاء بالعهد ، لخطورة العهود والمواثيق. وعهد الله : لفظ عام يشمل جميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة.

وأكّدت الآية حرمة العهود والمواثيق بعدّة مؤكّدات : أولها النّهي عن نقضها حتى تنتهي مدّتها ، بعد تشديدها وتغليظها ، وإشهاد الله عليها. وإنما قال تعالى : ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾ للتّفرقة بين اليمين المؤكّدة بالعزم وبين لغو اليمين.

ثمّ مثّل لنقضها بصورة المرأة الحمقاء التي تنقض غزلها إنقاضا بعد إبرامه وفتله ، ثمّ شنّع على النّاقضين باتّخاذ الأيمان خديعة ومكرا وغشّا وتغريرا ، ثمّ قبّح البواعث والأهداف من الغدر ونقض العهد تأييدا لقوّة قبيلة كثيرة قوية ، وتحلّلا من عهد القبيلة الضّعيفة القليلة العدد ، والعدد ، فقال تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى ، أو أكثر أموالا ، فتنقضون أيمانكم ، إذا رأيتم الكثرة والسّعة في الدّنيا لأعدائكم المشركين.

ثم نبّه الله تعالى أن العهود ابتلاء واختبار ، وأن الله تعالى سيبيّن الحقائق يوم القيامة في الاختلاف من البعث وغيره.

ثم ذكر تعالى أنه قادر على جعل الناس على ملّة واحدة هي ملّة الإيمان ، والاجتماع على الوفاء بالعهود.

ولكنه تعالى يوفق بهدايته من يشاء فضلا منه عليهم ، ويضلّ من يشاء بخذلانه إياهم لاختيارهم سبيل الضّلال ، عدلا منه فيهم ، وسيسأل الجميع عن أفعالهم.

ثم بالغ تعالى في النّهي عن عقد الأيمان والعهود المنطوية على الخديعة والفساد ، فتزلّ قدم بعد ثبوتها ، أي عن الإيمان بعد المعرفة بالله ، وهذا استعارة لمستقيم الحال ، الذي لا يوفي بالعهد ، فيقع في شرّ عظيم.

ثمّ توعّد تعالى المخادعين في الأيمان والعهود بعذاب في الدّنيا ، وعذاب عظيم في الآخرة. وهذا الوعيد الشديد فيمن نقض عهد رسول الله ﷺ ؛ فإن من عاهده ، ثمّ نقض عهده ، خرج عن الإيمان ، وذاق السّوء في الدّنيا : وهو ما يحلّ بهم من المكروه.

ثم حذّر الله تعالى من المتاجرة بالأيمان والعهود ، فنهى عن الرّشاوى وأخذ الأموال على نقض العهد ، فقال تعالى : ﴿**وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً**﴾ أي لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدّنيا ، وإنما كان قليلا وإن كثر ؛ لأنه مما يزول ، فهو إذن قليل.

ثم بيّن تعالى الفرق بين حال الدّنيا وحال الآخرة ، بأن كلّ ما في الدّنيا ينفد ويتحوّل ، وما في الآخرة وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته لا يزول ، لمن وفّى بالعهد ، وثبت على العقد.

وختم ما ذكر بأن الله سبحانه يجزي الصابرين على الإسلام والطاعات ومنها الوفاء بالعهد ، وعن المعاصي ، أجرهم على الطاعات ، ويتجاوز عن السّيئات ، وهذا هو المراد من الجزاء على أحسن أعمالهم.

كلّ هذه الأوامر والنّواهي والمؤكّدات والوعود والمواعيد والتّهديدات والجزاءات من أجل الحفاظ على المعاهدات والعهود والمواثيق ، وعدم الإخلال بأحكامها وشروطها ومشتملاتها.

أجمع آية للرجال والنساء في الترغيب بالعمل الصالح

﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾

الإعراب :

قال : ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ ثم قال : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ لأن ﴿مَنْ﴾ يصلح للواحد والجمع ، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى.

المفردات اللغوية :

﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى﴾ بيّن النوعين دفعا للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيد في قبول العمل ؛ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب ، وإنما يتوقع عليها تخفيف العقاب. ﴿حَياةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا : يعيش عيشا طيبا لا قلق فيه ولا ضجر ، فهو إن كان موسرا لم يصرفه الحرص والطمع عن واجبات الدين ، وإن كان معسرا طيّب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة والرزق الحلال. وقيل : ذلك في الآخرة وهي حياة الجنة. ﴿ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة.

المناسبة :

هذه الآية ترغيب للرجل والمرأة في أداء الطاعات والفرائض الدينية ، فبعد

أن رغب الله تعالى المؤمنين في القسم الأول وهو الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام بقوله : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ بأن يجزيهم على أحسن أعمالهم التي تشمل المباحات والمندوبات والواجبات ، ويثيبهم على ما عدا المباحات ، رغّب المؤمنين في القسم الثاني وهو الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام.

التفسير والبيان :

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا ، فمن عمل صالح الأعمال ، من ذكر أو أنثى ، وهي الأعمال المطابقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فأدى الفرائض ، وكان قلبه مؤمنا بالله ورسوله ، فله حياة طيبة في الدنيا ، وجزاء بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة : تشمل وجوه الراحة المختلفة ، وفسرها ابن عباس وجماعة بالرزق الحلال الطيب ، أو السعادة ، أو العمل بالطاعة والانشراح بها ، أو القناعة ، والصحيح ـ كما قال ابن كثير ـ : أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنّعه الله بما آتاه» ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقري.

وروى الترمذي والنسائي عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «قد أفلح من هدي للإسلام ، وكان عيشه كفافا ، وقنع به».

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ، ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا».

وعن ابن عباس ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : «اللهم قنّعني بما رزقتني ، وبارك لي فيه ، واخلف عليّ كل غائبة لي بخير».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية بوضوح أن إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان. أما إفادته تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف على الإيمان.

والحياة الطيبة ذكر فيها خمسة أقوال أصحها أنها تشمل كل مناحي السعادة في الدنيا من الصحة والرزق الحلال الطيب ، والطمأنينة النفسية وراحة البال ، والتوفيق إلى الطاعات ، فإنها تؤدي إلى رضوان الله تعالى.

ما يتعلق بالقرآن

الاستعاذة والنسخ وعربية القرآن

﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)

﴿إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (١٠٥)﴾

الإعراب :

﴿إِنَّما سُلْطانُهُ .. هُمْ بِهِ﴾ هاء (سلطانه) تعود على الشيطان ، وهاء ﴿بِهِ﴾ لله تعالى ، وهو مما جاء في التنزيل من ضميرين مختلفين ، مثل ﴿الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ ، وَأَمْلى لَهُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ٢٥] أي سول الشيطان ، وأملى الله تعالى ، كقوله : ﴿أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عمران ٣ / ١٧٨] وقيل : هاء ﴿بِهِ﴾ تعود على الشيطان أيضا.

﴿وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفان على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ أي تثبيتا وهداية وبشارة ، فهما مفعولان لأجله.

البلاغة :

﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ مجاز مرسل من إطلاق المسبّب على السبب ، أي إذا أردت قراءة القرآن.

﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراضية لبيان حكمة النسخ ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب ، وذكر اسم الله للمهابة.

﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ استعار اللسان للغة والكلام ، والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة مثل ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤].

﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ و ﴿عَرَبِيٌّ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي أردت قراءته ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ..﴾ أي قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أي ألجأ إلى الله لحمايتي من وساوس الشيطان في القراءة ، وذلك في كل ركعة للمصلي ؛ لأن الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياسا. ﴿سُلْطانٌ﴾ تسلط وقوة واستيلاء. ﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ بطاعته ، يقال : توليته : أطعته ، وتوليت عنه : أعرضت. ﴿هُمْ بِهِ﴾ بالله. ﴿بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾ بنسخها أو رفعها وإنزال غيرها ، لمصلحة العباد. ﴿قالُوا : إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي قال الكفار للنبي ﷺ : إنما أنت كذاب ، تقوله من عندك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن وحكمة النسخ وتمييز الخطأ من الصواب. ﴿قُلْ : نَزَّلَهُ﴾ قل لهم يا محمد : ﴿نَزَّلَهُ

﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جبريل ، وسمي بذلك ؛ لأنه ينزل بالقدس أي بما يطهر النفوس. ﴿بِالْحَقِ﴾ متعلق ينزل ، أي نزله ملتبسا بالحكمة المقتضية له. ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإيمان بأنه كلامه ، وإنهم إذا سمعوا الناسخ ، وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة ، رسخت عقائدهم ، واطمأنت قلوبهم. ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه ، وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم.

﴿وَلَقَدْ﴾ للتحقيق. ﴿يُعَلِّمُهُ﴾ القرآن. ﴿بَشَرٌ﴾ هو جبر الرومي ، غلام عامر بن الحضرمي النصراني ، كان قد قرأ التوراة والإنجيل ، وكان حدادا ، وكان النبي ﷺ يدخل عليه ، ويجلس إليه إذا آذاه أهل مكة. ﴿لِسانُ﴾ لغة وكلام. ﴿الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ يميلون إليه ، ويشيرون أنه يعلمه. ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ في لسانه عجمة ، سواء من العجم أو من العرب ، وهو الذي لا يفصح عن مراده. ﴿وَهذا﴾ القرآن ﴿لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة ، فكيف يعلمه أعجمي. والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم. ﴿لا يَهْدِيهِمُ﴾ لا يخلق الإيمان في قلوبهم ، وهذا عام مخصوص فقد اهتدى قوم كفروا بآيات الله تعالى.

﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم في الآخرة. ﴿يَفْتَرِي﴾ يختلق. ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللهِ﴾ القرآن بقولهم : هذا من قول البشر ؛ لأنهم لا يخافون عقابا يردعهم عنه. ﴿وَأُولئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا ، أو إلى قريش. ﴿هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة ، أو الكاملون في الكذب ؛ لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه المزاعم أعظم الكذب ، أو الكاذبون في قولهم : إنما أنت مفتر ، إنما يعلمه بشر ، والتأكيد بالتكرار ردّ لقولهم المذكور.

سبب النزول :

نزول الآية (١٠١):

﴿وَإِذا بَدَّلْنا ..﴾ نزلت حين قال المشركون : إن محمدا عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر ، وينهاهم عنه غدا ، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم ، وما هو إلا مفتري يقوله من تلقاء نفسه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها.

نزول الآية (١٠٣):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ..﴾ الآية : أخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال : كان لنا عبدان : أحدهما يقال له :

يسار ، والآخر جبر ، وكانا صقلبيّين ، فكانا يقرآن كتابهما ، ويعلمان علمهما ، وكان رسول الله ﷺ يمرّ بهما ، فيستمع قراءتهما ، فقالوا : إنما يتعلم منهما ، فنزلت.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أنه يجزي المؤمنين بأحسن أعمالهم ، أرشد إلى العمل الذي تخلص به أعمالهم من وساوس الشيطان. ثم ذكر بعض وساوسه إلى منكري نبوة محمد ﷺ بإلقاء الشبهات ومنها شبهتان :

الأولى ـ شبهة النسخ : وهو التبديل ، أي رفع الشيء مع وضع غيره مكانه ، وتبديل الآية: رفعها بآية أخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواها.

والثانية ـ شبهة كون القرآن من تعليم نصراني لا من الله ، وكان الردّ مفحما موضحا بطلان هذه الشبهة : وهو أن القرآن كلام عربي مبين ، وهذا المعلم المزعوم أعجمي ، فكيف يعلّم كلاما عربيا فصيحا؟!

التفسير والبيان :

يأمر الله عباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، فيقول : ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ..﴾ أي إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله ، أي الجأ إلى الله من وساوس الشيطان المرجوم الملعون المطرود من رحمة الله ، حتى لا تلتبس عليك القراءة ، ولتتدبر معاني القرآن. والآية متصلة بما سبق : ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وخطاب النبي ﷺ خطاب لأمته ، بل هي أولى ؛ لأنه معصوم من وساوس الشيطان وإغوائه.

وظاهر الآية جعل الاستعاذة عقب القراءة ، ولكنها قبل القراءة ، كما في قوله تعالى : ﴿إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ [المائدة ٥ / ٦] وقوله : ﴿وَإِذا قُلْتُمْ

﴿فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٢] وقوله : ﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥٣] وقوله : ﴿إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة ٥٨ / ١٢] أي إذا أردتم ذلك. ثم إن سبب الاستعاذة وهو دفع وسوسة الشيطان يقتضي تقديم الاستعاذة قبل القراءة.

والاستعاذة أن يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والأمر بها أمر ندب بإجماع العلماء ، كما حكى ابن جرير وغيره من الأئمة. وعن الثوري وعطاء : أنها واجبة في الصلاة أو غيرها ، عملا بظاهر الآية ؛ إذ الأمر للوجوب ، لكن الوجوب في رأي الجمهور مصروف عنه إلى الندب ؛ لأنه ﷺ لم يعلمها الأعرابي ، ولأنه كان يتركها أحيانا.

والاستعاذة في رأي الحنفية وجماعة مطلوبة فقط في أول الصلاة ؛ لأنها عمل واحد ، مفتتح بقراءة ، فتكون في ابتدائها. وفي رأي الشافعية وجماعة : تتكرر في كل ركعة ؛ لأنها قد رتّبت على القراءة ، وكل ركعة فيها قراءة ، فتبدأ الركعة بالاستعاذة.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ ..﴾ أي إن الشيطان أي جنسه ليس له قوة ولا تسلط على المصدقين بلقاء الله ، ويفوضون أمورهم إليه. ﴿إِنَّما سُلْطانُهُ ..﴾ أي إنما تسلطه بالغواية والإضلال على الذين أطاعوه واتخذوه وليا ناصرا لهم من دون الله ، والذين أشركوه في عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان وإغوائه لهم مشركين بربهم.

ثم ذكر تعالى شبهتين من شبهات منكري النبوة بتأثير وسوسة الشيطان.

الشبهة الأولى :

﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً ..﴾ أي إذا رفعنا آية وجعلنا مكانها آية أخرى لحكمة

وهدف ، والله أعلم بما ينزله من القرآن ، ورأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها ، عيّروا رسول الله ﷺ ، وقالوا له : إنما أنت مفتر ، أي كذاب ، متقول على الله ، تأمر بشيء ثم تنهى عنه ، بل أكثرهم لا يعلمون ما في التغيير من حكمة ومصلحة للناس ، ومراعاة لظروف التغير والتطور ، وأخذ بمبدإ التدرج في تنزيل الأحكام ، فليس محمد بمفتر ، وإنما يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، كما قال تعالى : ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها ، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ٢ / ١٠٦].

فردّ الله عليهم شبهتهم الواهية آمرا رسوله : ﴿قُلْ : نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ..﴾ أي قل لهم يا محمد : نزّله ، أي القرآن المتلو عليكم جبريل عليه السلام ، وقد أضيف أي جبريل إلى القدس وهو الطهر من المآثم ، نزّله من ربك بالحق ، أي مقترنا بالصدق والعدل والحكمة ، وأن النسخ من جملة الحق.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ أي ليبلوهم بالنسخ ، فيصدقوا بما أنزل أولا وثانيا ، وتطمئن له قلوبهم ، فإذا قالوا : هو الحق من ربنا ، حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم ، فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب.

واستعمال كلمة ﴿نَزَّلَهُ﴾ الدالة على أن التنزيل شيئا فشيئا على حسب الحوادث والمصالح ، فيه إشارة ـ كما قال الزمخشري ـ إلى أن التبديل من باب المصالح ، وأن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة.

﴿وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوف على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ أي إن القرآن بما فيه من نسخ نزل تثبيتا لهم ، وإرشادا وهاديا ، وبشارة بالجنة للمسلمين الذين أسلموا وجوههم لله ، وأطاعوه ، وانقادوا لحكمه وأمره ، وآمنوا بالله ورسله.

وهذا يدل على أن المسلمين إذا رأوا النسخ ، رسخت عقائدهم واطمأنت

قلوبهم ، وثبت الدين في نفوسهم ، وتيقنوا من حكمة الله ، وهدوا إلى الحق من الضلال والزيغ ، وبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار. وأما المشركون فهم على الضد من هذه الصفات.

والشبهة الثانية :

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّما يُعَلِّمُهُ ..﴾ أي ونحن نعلم تمام العلم ما يقوله المشركون من الكذب والافتراء على محمد ﷺ ، فهم يقولون جهلا : إنما يعلمه هذا القرآن بشر آدمي ، وليس وحيا من الله ، ويشيرون إلى رجل أعجمي اللسان ، لا يعرف العربية ، غلام لبعض القرشيين ، وكان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ، ويكلمه بعض الشيء.

واسمه جبر ، وقيل : بلعام ، وقيل : يعيش عبد لبني الحضرمي ، وكان غلاما للفاكه بن المغيرة أو لعامر بن الحضرمي أو لعتبة بن ربيعة [1] ، وكان نصرانيا فأسلم ، فإذا سمع المشركون بعض القصص القرآني ، قالوا : إنما يعلمه جبر ، وهو أعجمي.

فردّ الله عليهم افتراءهم وكذبهم بنحو يدعو إلى العجب ، فقال : ﴿لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ ..﴾ أي لسان الذي يميلون ويشيرون إليه أعجمي لا عربي ، والقرآن كلام عربي واضح مبين لكل شيء فصيح يدرك بسرعة ، بل أفصح ما يكون من العربية ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته ، وبلاغته ، ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي لا يحسن التعبير العربي؟! لا يعقل أن يتعلم هذا النبي كلاما من هذا النوع من مثل هذا الرجل الأعجمي.

---

(١) قال القرطبي : والكل محتمل ، فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله ، وكان ذلك بمكة.

ثم كشف الله زيفهم وتوعدهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ...﴾ أي إن الذين لا يصدّقون بالآيات المنزلة على رسوله ﷺ ، ولم يكن لهم قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله ، لا يهديهم ولا يوفقهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله ، لفقد استعدادهم لذلك واقترافهم السيئات ، ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع. ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ أي وأولئك المشركون من قريش هم الكاذبون المفترون ، لا أنت يا محمد.

وهذا تصريح بوصفهم بالكذب الذين عرفوا به عند الناس ، أما الرسول محمد ﷺ فكان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا ويقينا ، معروفا بالصدق في قومه ، حتى لقبوه بالأمين محمد.

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفات الرسول ﷺ أجابه بأنه صدوق ، وكان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله عزّ وجلّ .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام التالية :

١ ـ الاستعاذة من الشيطان الرجيم مطلوبة على سبيل الندب عند الشروع في قراءة القرآن ، في الصلاة وغيرها ، حتى لا يعرض الشيطان بوسوسته للقارئ ، فيصده عن تدبر القرآن والعمل بما فيه.

وللشيطان وسوسة في القلب ، حتى في حق الأنبياء ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى ، أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ [الحج ٢٢ / ٥٢].

٢ ـ ليس للشيطان بحال سلطان وقوة بالإغواء والكفر على المؤمنين المصدقين بالله ورسوله ؛ لأن الله تعالى صرف سلطانه عنهم حين قال إبليس : ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٣٩ ـ ٤٠] قال الله تعالى : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٢].

لكن قال القرطبي : إن هذا عام يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدم وحواء عليهما السلام بسلطانه ، وقد شوش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربك [(١)]؟.

٣ ـ النسخ واقع في القرآن لحكمة هي مراعاة المصالح والحوادث وتطور الأوضاع البشرية. والنسخ : رفع الحكم الشرعي بطريق شرعي متراخ أو متأخر عنه.

وقد نزل جبريل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه ، من كلام ربه لتثبيت المؤمنين بما فيه من الحجج والآيات ، ولجعله هاديا ومرشدا ومبشرا للمسلمين بجنات النعيم ، فلا يصح للمشركين الاعتراض على النسخ.

وقد ذكرت في تفسير سورة البقرة أن مذهب أبي مسلم الأصفهاني : أن النسخ غير واقع في هذه الشريعة. وقال عن هذه الآية : إذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة ، مثل أنه حوّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، قال المشركون : أنت مفتر في هذا التبديل ، فالآية هي الرسالة أو بعضها.

وقال سائر المفسرين : النسخ واقع في هذه الشريعة ، بأدلة واقعية في القرآن والسنة ، سبق إيرادها.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٠ / ١٧٦

وقال الشافعي رحمه الله : القرآن لا ينسخ بالسنة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ﴾ وهذا يقتضي أن الآية لا تصير منسوخة إلا بآية أخرى. وردّ عليه بأن هذه تدل على أنه تعالى يبدل آية بآية أخرى ، ولا دلالة فيها على أنه تعالى لا يبدل آية إلا بآية ، وأيضا فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة ، كما ينزل بالآية ، وأيضا فالسنة قد تكون مثبتة للآية.

٤ ـ القرآن بلسان عربي مبين ، فكيف يصح للمشركين الزعم بأن محمدا الرسول ﷺ يتعلمه من حداد أعجمي مقيم في مكة؟ مع أن الإنس والجن عجزوا أن يعارضوا منه سورة واحدة فأكثر.

٥ ـ لا يوفق الله للإيمان هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالقرآن ، لإصرارهم على الكفر وعنادهم ، وإعراضهم عن هدي الرسول ﷺ ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع.

٦ ـ قد صرحت الآية : ﴿إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ ..﴾ بوصف المشركين بالكذب والافتراء جوابا لوصفهم النبي ﷺ بالافتراء. وقوله : ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ مبالغة في وصفهم بالكذب ، أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم.

المرتدون عن الإسلام والمهاجرون بعد ما فتنوا

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (١٠٧) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ

عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾

الإعراب :

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ .. مَنْ﴾ بدل مرفوع من ﴿الْكاذِبُونَ﴾ في قوله : ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ أو مبتدأ أو شرطية ، والخبر أو الجواب : ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ وأحسن الوجوه أن ﴿مَنْ﴾ مبتدأ محذوف الخبر. ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ استثناء متصل ؛ لأن الكفر يعم القول والنية كالإيمان.

﴿مَنْ شَرَحَ﴾ : من : مبتدا مرفوع ، وخبره : ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ﴾.

﴿صَدْراً﴾ مفعول ﴿شَرَحَ﴾ أي ولكن من شرح بالكفر صدره ؛ وحذف الضمير لأنه لا يشكل بصدر غيره ، فهو نكرة يراد بها المعرفة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ .. إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ ..﴾ خبر ﴿إِنَ﴾ الأولى دل عليه خبر ﴿إِنَ﴾ الثانية.

المفردات اللغوية :

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الافتراء ، أو على النطق بكلمة الكفر فتلفظ به ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾ لم تتغير عقيدته ، وثبت على ما كان عليه ، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب.

﴿وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ له ، أي فتحه ووسعه ، والمعنى : اعتقده وطابت له نفسه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ ..﴾ هذا وعيد شديد ؛ إذ لا أعظم من جرمه ، والغضب : أشد من اللعن الذي هو الطرد من رحمة الله ﴿ذلِكَ﴾ الوعيد لهم ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ اختاروها أو آثروها وقدّموها.

﴿لا جَرَمَ﴾ حقا ﴿الْخاسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم ، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد ، وصاروا إلى النار المؤبدة عليهم.

﴿هاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة ﴿مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا﴾ عذّبوا أو اختبروا بالعذاب ، وتلفظوا بالكفر ، كعمار رضي الله عنه . ومن قرأ : ﴿فُتِنُوا﴾ معناه كفروا ، أو فتنوا الناس عن الإيمان ، كالحضرمي أكره مولاه جبرا ، حتى ارتد ، ثم أسلما وهاجرا ﴿ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها﴾ من بعد الفتنة والهجرة والجهاد والصبر ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم لما فعلوا قبل ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ، منعم عليهم ، مجازاة على ما صنعوا بعد.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ اذكر ، وهو يوم القيامة ﴿تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها﴾ تحاج وتجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها ، لا يهمها شأن غيرها ، فتقول : نفسي نفسي. والنفس الأولى : الجثة والبدن ، والنفس الثانية : عينها وذاتها ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ تعطى جزاء ما عملت ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون أجورهم شيئا

سبب النزول :

نزول الآية (١٠٦):

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ :﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة ، أخذ المشركون بلالا ، وخبّابا ، وعمار بن ياسر ، فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقيّة ، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ ، حدّثه فقال : كيف كان قلبك حين قلت : أكان منشرحا بالذي قلت؟ قال : لا ، فأنزل الله : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم أيضا عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة أن هاجروا ، فخرجوا يريدون المدينة ، فأدركتهم قريش بالطريق ففتنوهم ، فكفروا مكرهين ، ففيهم نزلت هذه الآية.

روايات أخرى :

في آية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ : أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل : «أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر ، فلم يتركوه حتى سبّ النبي ﷺ ، وذكر آلهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله ، قال له : ما وراءك؟ قال شر ما تركت ، نلت منك ، وذكرت آلهتهم بخير ، قال : كيف تجد قلبك؟ قال مطمئن بالإيمان ، قال : إن عادوا فعد ، فنزلت : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾.

وروي : «أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسميّة على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ، ووجئت بحربة في موضع عفتها ، وقالوا : إنما أسلمت من أجل الرجال ، فقتلوها وقتلوا ياسرا ، وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل : يا رسول الله ، إن عمارا كفر ، فقال رسول الله ﷺ : كلا ، إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ ، وهو يبكي ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : مالك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت».

نزول الآية (١١٠):

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ : أخرج ابن سعد في الطبقات عن عمر بن الحكم قال : كان عمار بن ياسر يعذّب ، حتى لا يدري ما يقول ، وكان صهيب يعذب ، حتى لا يدري ما يقول ، وكان أبو فكيهة يعذب ، حتى لا يدري ما يقول ، وبلال وعامر بن فهيرة وقوم من المسلمين ، وفيهم نزلت هذه الآية : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن عياشا رضي الله عنه (وكان أخا أبي جهل

من الرضاعة) وأبا جندل بن سهيل ، وسلمة بن هشام ، وعبد الله بن سلمة الثقفي ، فتنهم المشركون ، وعذبوهم ، فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا ، وجاهدوا ، فنزلت فيهم هذه الآية.

المناسبة :

بعد أن عظّم الله تعالى تهديد الكافرين الذين تقولوا الأقاويل على النبي ﷺ ، فوصفوه بأنه مفتر ، وأن ما جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، أردف ذلك ببيان من يكفر بلسانه لا بقلبه بسبب الخوف والإكراه ، ومن يكفر بلسانه وقلبه معا. ثم ذكر بعده حال من هاجر بعد ما فتن ، وهم المستضعفون في مكة.

التفسير والبيان :

من كفر بوجود الله وتوحيده بعد الإيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأن به ، فعليه غضب من الله ولعنته ، وله عذاب شديد في الآخرة ، لعلمه بالإيمان ، ثم عدوله عنه ، ولأنه استحب الحياة الدنيا على الآخرة ، فأقدم على الردة ، ولم يهد الله قلبه ، ولم يثبته على الدين الحق ، فطبع على قلبه ، فهو من الغافلين عما يراد ، ومن الذين لا يعقلون شيئا ينفعهم ، وقد ختم على سمعه وبصره ، فهو لا ينتفع بها ، ولا أغنت عنه شيئا.

ثم استثنى الله تعالى ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه من أكره فقال : ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ**﴾ أي إلا إذا أكره بسبب الضرب والأذى ، وقلبه يأبى ما ينطق به في الظاهر ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه ، كما فعل عمار بن ياسر حينما عذبه مشركو مكة. وأصل الاطمئنان : سكون بعد انزعاج ، والمراد هنا السكون والثبات على الإيمان ، ومعنى قوله : ﴿**وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ..**﴾ أي فتحه ووسعه لقبول الكفر.

ثم ذكر الله تعالى سبب سخطه على المرتد ، فقال : ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا ..﴾ أي ذلك الجزاء والغضب من الله والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الدنيا على الآخرة.

﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي ..﴾ أي وأن الله لا يوفق المصرّين على الكفر ، الذين أمعنوا في إنكار توحيد الله ونبوة محمد ﷺ .

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ ..﴾ أولئك الذين ارتدوا أو كفروا بعد إيمانهم هم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فلا يؤمنون ولا يسمعون كلام الله ولا يبصرون البراهين والأدلة إبصار تبصر ، وأولئك هم الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم ؛ لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ ..﴾ أي حقا أو لا بد أنهم هم الهالكون في الآخرة ، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

هؤلاء المرتدون الخاسرون حكم الله عليهم بستة أحكام هي :

١ ـ أنهم استوجبوا غضب الله.

٢ ـ أنهم استحقوا العذاب الأليم.

٣ ـ أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

٤ ـ أنه تعالى حرمهم من الهداية للطريق القويم.

٥ ـ أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.

٦ ـ أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

ثم ذكر الله تعالى حكم المستضعفين في مكة ، فقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا ..﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا من ديارهم في مكة بعد ما حاول المشركون فتنهم عن دينهم ، وجاهدوا المشركين بعدئذ في المعارك ، وصبروا

على جهادهم ، بالعون والنصر والتأييد والمغفرة والستر لذنوبهم ، والرحمة بهم ، فلا يعاقبهم بعد توبتهم وصدق إسلامهم.

فهؤلاء صنف آخر من المؤمنين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين في قومهم ، فوافقوهم على الفتنة والنطق بالكفر ظاهرا ، ثم إنه أمكنهم الخلاص بالهجرة إلى المدينة ، تاركين بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا على الأذى ، فأخبر تعالى أنه من بعدها أي من بعد تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة ، لغفور لهم ، رحيم بهم يوم معادهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ .. يَوْمَ﴾ منصوب برحيم أو بإضمار فعل : اذكر ، أي إنه غفور رحيم بهم يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته ، لا يهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسي نفسي ، كقوله تعالى : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس ٨٠ / ٣٧].

ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها ، كقولهم : ﴿هؤُلاءِ أَضَلُّونا﴾ [الأعراف ٧ / ٣٨] ، ﴿ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٣] ونحو ذلك.

﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ..﴾ أي وتعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ، ولا يزاد على جزاء الشر ، ولا يظلمون نقيرا ، أي شيئا حقيرا أو صغيرا.

فقه الحياة أو الأحكام :

اشتملت الآيات على الأحكام التالية :

١ ـ جزاء المرتدين يوم القيامة هو ستة أوصاف ذكرناها. وأما جزاؤهم في

الدنيا فهو القتل ، لحديث ابن عباس عند الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة): «من بدل دينه فاقتلوه».

٢ ـ الترخيص للمستكره بالنطق بالكفر ظاهرا مع اطمئنان القلب بالإيمان ، فقد أمر النبيﷺ عمارا أن يعود إلى مجاراة المشركين في القول إن عادوا إلى إكراهه ، لكن عدم المجاراة أفضل.

أ ـ قال العلماء : إن الأمر في الحديث للإباحة ، والصارف له عن الوجوب إليها : ما روي عن خبيب بن عدي لما أراد أهل مكة أن يقتلوه أنه لم يعطهم التقية ، بل صبر حتى قتل ، فكان عند النبي ﷺ خيرا من عمار في إعطائه التقية. ثم إن في الصبر على المكروه إعزازا للدين والإسلام وغيظا للمشركين ، فهو بمنزلة من قاتل المشركين حتى قتل ، فتأثير الإكراه حينئذ إنما هو إسقاط المأثم فقط ، كما قال ﷺ فيما رواه الطبراني عن ثوبان ، وهو صحيح : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» فألحق المكره بالمخطئ والناسي ، وفي رواية أخرى لابن ماجه عن أبي ذر : «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان ..» إلخ.

وكذلك بلال الحبشي أبى على المشركين المجاراة في القول ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم ، وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه.

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدا رسول الله؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله؟ فيقول : لا أسمع ، فلم يزل يقطعه إربا إربا وهو ثابت على ذلك.

ورواية القصة هي : «أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول في محمد؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول فيّ؟ قال : أنت أيضا ، فخلّاه ، وقال

للآخر : ما تقول في محمد؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول فيّ؟ قال : أنا أصم ، فأعاد عليه ثلاثا ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ رسول الله ﷺ فقال : أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئا له» (١).

والخلاصة : أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر ، فاختار القتل ، أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة.

ب ـ لما سمح الله عَزَّوَجَلَّ بالكفر به ـ وهو أصل الشريعة ـ عند الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها ، فإذا أكره الإنسان عليها لم يؤاخذ بما قال أو فعل ، ولم يترتب عليه حكم.

ج ـ قال القرطبي : أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل : أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولا تبين منه زوجته ، ولا يحكم عليه بحكم الكفر ، هذا قول مالك والكوفيين والشافعي ، غير محمد بن الحسن ، فإنه قال : إذا أظهر الشرك كان مرتدا في الظاهر ، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام ، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ، ولا يرث أباه إن مات مسلما. وهذا قول يرده الكتاب والسنة ، فإنه مخالف لهذه الآية : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾.

د ـ اختلف الفقهاء في طلاق المكره وعتاقه ونكاحه ، فذهب الحنفية إلى أن الطلاق ونحوه يلزمه ؛ لأن الطلاق يعتمد الاختيار ، والإكراه ينفي الرضا ويحقق الاختيار.

وغير الحنفية ذهبوا إلى عدم لزومه ، استدلالا بالحديث المتقدم : «رفع عن أمتي» وحمله الحنفية على رفع الحكم الأخروي وهو الإثم.

---

(١) الكشاف : ٢ / ٢١٩ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٨٨ ، تفسير القرطبي : ١٠ / ١٨٨ وما بعدها.

هـ . وأما بيع المكره والمضطر فله حالتان :

الأولى . أن يبيع ماله في حق وجب عليه : فذلك نافذ لازم لا رجوع فيه ؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى صاحبه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك ، كان بيعه اختيارا منه ، فلزمه.

الثانية . بيع المكره ظلما أو قهرا : فهو بيع غير لازم ، وهو أولى بمتاعه ، يأخذه بلا ثمن ، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم ؛ فإن تلف المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك ، على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه.

و . للإكراه مراتب :

الأولى . أن يجب الفعل المكره عليه ، مثل الإكراه على شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة ، هنا يجب الأكل ؛ لأن صون الروح عن الهلاك واجب ؛ لقوله تعالى : ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة ٢ / ١٩٥].

الثانية . أن يصير ذلك الفعل مباحا لا واجبا ، كالإكراه على التلفظ بكلمة الكفر ، يباح ولا يجب.

الثالثة . ألا يجب ولا يباح بل يحرم ، كالإكراه على قتل إنسان أو قطع عضو آخر ، يبقى الفعل على الحرمة الأصلية. أما القصاص فيسقط في رأي ، ويجب في رأي آخر [١].

قال القرطبي : أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ، ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره ، ويصبر على البلاء الذي نزل به ، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة [٢].

---

(١) تفسير الرازي : ٢٠ / ١٢٢

(٢) تفسير القرطبي : ١٠ / ١٨٣

والخلاصة : ثلاثة أمور لا تباح بحال هي الكفر والقتل والزنى. ويرخص في إجراء كلمة الكفر على اللسان فقط دون استباحة ذلك.

ز ـ هل يحد الزاني مكرها؟ فيه رأيان : قال بعضهم : عليه الحد ؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره ، وقال الأكثرون : لا حد عليه ، وهو الصحيح. وإذا استكرهت المرأة على الزنى ، فلا حد عليها ؛ لقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ وقوله ﷺ : «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ولقول الله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور ٢٤ / ٣٣] يريد الفتيات. والعلماء متفقون على أنه لا حد على امرأة مستكرهة.

ح ـ هل يجب الصداق (المهر) للمستكرهة؟ قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور : لها صداق مثلها. وقال الحنفية والثوري وأصحاب مالك : إذا أقيم الحد على الذي زنى بها ، بطل الصداق. قال ابن المنذر : القول الأول صحيح.

ط ـ إذا أكره إنسان على إسلام (تسليم) أهله (زوجته) لما لم يحلّ ، أسلمها فيما ذكر القرطبي ، ولم يقتل نفسه دونها ، ولا احتمل أذية في تخليصها. وإن أمكنه الدفاع عن عرضه وجب ذلك.

ي ـ يمين المكره غير لازمة عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء ؛ لأن نيته مخالفة لقوله. وقال الحنفية : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنث ؛ لأن المكره له أن يورّي في يمينه كلها ، فلما لم يورّ ، فقد قصد إلى اليمين.

ك ـ إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال ، كأصحاب المكس (الجمارك) وظلمة السعاة وأهل الاعتداء ، فقال مالك : لا تقيّة له في ذلك ، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه ، لا ماله. وقال ابن الماجشون : لا يحنث ، وإن درأ عن ماله ، ولم يخف على بدنه.

ل ـ قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر ، فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض ، فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، ومتى لم يكن كذلك ، كان كافرا ؛ لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها ، مثل أن يقول : أكفر باللاهي ، بزيادة الياء ، وكافر بالنبيّ بالتشديد ، أي المكان المرتفع من الأرض ، أو بالنبيء أي المخبر.

م ـ حد الإكراه : عند مالك والشافعي وأحمد وأبي ثور وأكثر العلماء هو الوعيد المخوف ، والسجن ، والضرب ، والإخافة ، والإيثاق ، والقيد ونحو ذلك. ونقل عن الحنفية أنهم لم يجعلوا السجن والقيد إكراها على شرب الخمر وأكل الميتة ؛ لأنه لا يخاف منهما التلف ، وجعلوهما إكراها في إقرار الشخص : لفلان عندي ألف درهم.

٣ ـ المرتدون استوجبوا غضب الله وعذابه ؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وحرموا من هداية الله ، وطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وجعلوا من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

٤ ـ كتب الله المغفرة والرحمة للذين هاجروا من بعد ما فتنوا أي قبلوا فتنة مشركي مكة ، ثم جاهدوا مع المؤمنين ، وصبروا على الجهاد ، وهؤلاء هم المستضعفون ، مثل عمار بن ياسر ، وجبر مولى الحضرمي الذي أكرهه سيده ، فكفر ، ثم أسلم مولاه ، وأسلم ، وحسن إسلامهما ، وهاجرا ، ومثل المذكورين في سبب النزول : عياش وأبي جندل وسلمة بن هشام وعبد الله بن سلمة ، ومثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ارتد ولحق بالمشركين ، فأمر النبي ﷺ بقتله يوم فتح مكة ، فاستجار بعثمان ، فأجاره النبي ﷺ ، ثم صار واليا على مصر. وقد ذكرت قصة عمّار ، وأشير للمعذبين المستضعفين بإيجاز.

قال مجاهد : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وخبّاب ، وصهيب ، وبلال ، وعمار ، وسمية.

أما الرسول فحماه أبو طالب ، وأما أبو بكر فحماه قومه ، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم أجلسوا في الشمس ، فبلغ منهم الجهد بحرّ الشمس والحديد ، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ، ويشتم سمية ، ثم طعنها بحربة في ملمس العفة.

عاقبة كفران النّعم في الدنيا

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (١١٣)﴾

الإعراب :

﴿قَرْيَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلاً﴾.

﴿وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ الجملة حال.

البلاغة :

﴿قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً﴾ المراد أهلها على سبيل المجاز المرسل ، لأجل أنها مكان الأمن وظرف له ، والظروف توصف بما حل فيها.

﴿فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ استعارة مكنية في أذاقها ، حذف منها المشبه به ، شبه ذلك اللباس لكراهته بالطعام المرّ ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الإذاقة ، على طريق الاستعارة المكنية ، أي أنه استعار الذوق لإدراك أثر الضرر ، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف ، وأوقع الإذاقة عليه ، نظرا إلى المستعار له.

المفردات اللغوية :

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ أي وجعلها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة ، فكفروا ، فأنزل الله بهم النقمة ، أو لمكة ﴿قَرْيَةً﴾ هي مكة ، والمراد أهلها ، وقال الرازي : والأقرب أنها غير مكة ؛ لأنها ضربت مثلا لمكة ، وهو غير مكة. ﴿آمِنَةً﴾ من الغارات ، لا تهاج. ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾

لا يحتاج إلى الانتقال عنها لضيق أو خوف. ﴿رِزْقُها﴾ قوتها. ﴿رَغَداً﴾ واسعا. ﴿مِنْ كُلِّ مَكانٍ﴾ من نواحيها. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ﴾ أي بنعمه ، جمع نعمة ، كدرع وأدرع ، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس ، وكفرانها بتكذيب النبي ﷺ. ﴿فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوعِ﴾ فقحطوا سبع سنين. ﴿وَالْخَوْفِ﴾ بتهديدهم بسرايا النبي ﷺ. ﴿بِما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بصنعهم.

﴿وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ محمد ﷺ. ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ﴾ الجوع والخوف. ﴿وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ حال التباسهم بالظلم.

المناسبة :

بعد أن هدد الله تعالى الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة ، هددهم أيضا بآفات الدنيا وهو الوقوع في الجوع والخوف.

التفسير والبيان :

ذكر الله صفة قرية للعبرة ، كانت بأهلها آمنة من العدو ، مطمئنة لا يزعجها خوف ، يأتيها رزقها الوافر رغدا أي هنيئا سهلا واسعا من سائر البلاد ، فكفر أهلها بنعم الله ، أي جحدوا بها ، فعمّهم الله بالجوع والخوف ، وبدلوا بأمنهم خوفا ، وبغناهم جوعا وفقرا ، وبسرورهم ألما وحزنا ، وذاقوا مرارة العيش بعد سعته ، بسبب أفعالهم المنكرة.

وجاءهم رسول من جنسهم ، فكذبوه فيما أخبرهم به من أنه رسول إليهم ، مبلّغ عن ربه بأن يعبدوه ويطيعوه ويشكروه على النعمة ، وتمادوا في كفرهم وعنادهم ، فعذبوا بعذاب الاستئصال الشامل ، حال كونهم ظالمين أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسل ، متلبسين بالظلم : وهو الكفر والمعاصي ، وما ظلمهم الله أبدا.

والمثل : قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة ، سواء كان ذلك الشيء موجودا أو لم يكن موجودا ، وقد يضرب بشيء موجود معين ، فهذه القرية يحتمل أن تكون شيئا مفروضا ، ويحتمل أن تكون قرية معينة ، وهذه القرية إما مكة

أو غيرها ، وأكثر المفسرين على أنها مكة وأهلها ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمنا لا يخاف ، فجحدت بآلاء الله ، وأعظمها بعثة محمدﷺ ، فأذاقها الله شدة الجوع والخوف ، بعد الرفاه والأمن ، وأبوا إلا معاندة الرسول ﷺ ، فدعا عليهم بقوله : «اللهم اشدد ووطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف» فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء وابتلوا بالقحط ، فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة ، والعلهز : وهو وبر البعير المخلوط بدمه إذا نحروه. ثم قتل رؤساؤهم في بدر.

وقال الرازي : والأقرب أنها غير مكة ، لأنها ضربت مثلا لمكة ، ومثل مكة يكون غير مكة. أي أن هذا المثل عبرة لكل قرية ، وعلى التخصيص مكة إنذارا من مثل عاقبتها ، وهي مثل لكل قوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نقمته.

وقوله : ﴿آمِنَةً﴾ إشارة إلى الأمن ، وقوله : ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الصحة بسبب طيب الهواء والمناخ ، وقوله : ﴿يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ﴾ إشارة إلى الكفاية [1]. وبعد أن وصفت القرية بهذه الصفات الثلاثة قال : ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ﴾ والأنعام جمع نعمة ، وهو جمع قلة ، أي أنها كفرت بأنواع قليلة من النعم ، فعذبها الله. والمقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فإذا كان كفران النعم القليلة موجبا العذاب ، فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب.

وهذه الصفات ، وإن وصفت بها القرية ، إلا أن المراد في الحقيقة أهلها ،

---

(١) قال بعضهم مبينا أهمية هذه العناصر الثلاثة للحياة :

ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية

لذا قال في آخر الآية : ﴿بِما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وسماه الله لباس الجوع والخوف ؛ لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى وجوب الإيمان بالله وبالرسل ، وإلى عبادة الله وحده ، وشكره على نعمه وآلائه الكثيرة ، وإلى أن العذاب الإلهي لا حق بكل من كفر بالله وعصاه ، وجحد نعمة الله عليه.

وهذا إنذار ووعيد لأهل كل قرية اتصفوا بالظلم أي بالكفر والمعاصي ؛ إذ لا ظلم أشد من ظلم الكفر والمعصية ، في حق الله تعالى.

والعذاب أو العقاب من جنس العمل ، فإن أهل هذه القرية لما بطروا بالنعمة ، بدلوا بنقيضها ، وهو محقها وسلبها ، ووقعوا في شدة الجوع بعد الشبع ، وفي الخوف والهلع بعد الأمن والاطمئنان ، وفي انعدام موارد العيش بعد الكفاية.

الحلال الطيب والحرام الخبيث من المأكولات

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)﴾

الإعراب :

﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ : ما مع الفعل بعدها : في تأويل المصدر. ﴿الْكَذِبَ﴾ مفعول ﴿تَصِفُ﴾. ومن قرأه بالجر كان بدلا مجرورا من ﴿لِما﴾ أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

البلاغة :

﴿حَلالٌ حَرامٌ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فَكُلُوا﴾ أيها المؤمنون ، أمرهم تعالى بأكل ما أحل الله لهم ، وشكر ما أنعم عليهم ، بعد ما زجرهم عن الكفر ، وهددهم عليه.

﴿لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ أي لوصف ألسنتكم ، والمراد : لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول من غير دليل ، فمن قال : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، أراد أنه جميل ، وأن عينه فتانة ، وهنا جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة ، وكذبهم يشرح تلك الحقيقة .. ﴿هذا حَلالٌ ، وَهذا حَرامٌ﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه. ﴿مَتاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي لهم متاع في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا﴾ أي اليهود. ﴿ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ في آية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ الآية [الأنعام ٦ / ١٤٦]. ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ﴾ بتحريم ذلك. ﴿وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب المعاصي الموجبة لذلك. ﴿السُّوءَ﴾ الشرك. ﴿ثُمَّ تابُوا﴾ رجعوا. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم. ﴿مِنْ بَعْدِها﴾ الجهالة أو التوبة. ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم. ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

المناسبة :

بعد أن هدد الله تعالى الكفار على كفران النعم ، وزجرهم عن الكفر بضرب المثل ، أمر المؤمنين بأكل ما أحل الله لهم ، وشكر ما أنعم عليهم ، والمعنى : أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر ، فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة ، واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم ونحوهما ، ثم أوضح لهم أن التحليل والتحريم ليسا بالهوى والشهوة

ومحض العقل ، وإنما لا بد من دليل أو نص شرعي ، وأن ما حرّم على اليهود هو ما ذكر سابقا في سورة الأنعام ، وأن من يعمل السوء (وهو كل ما لا ينبغي من الكفر والمعاصي) بجهالة أي بطيش وعدم تدبر العواقب (وكل من عمل السوء ، فإنما يفعله بالجهالة) ثم يتوب بعدئذ ، فإن الله يغفر له معصيته ويرحمه.

التفسير والبيان :

هذا انتقال من الإنذار والتخويف إلى الاطمئنان ، وتهدئة الخواطر ، وتطييب النفوس المؤمنة ، والإذن بمتاع الحياة الحلال ، لا الخبيثة الحرام كالميتة والدم ، فكلوا أيها المؤمنون من رزق الله الحلال الطيب ، واشكروه على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، إن كنتم تعبدونه حقا ، فتطيعونه فيما أمر ، وتنتهون عما نهى ، والمراد بالجملة الأخيرة التحريض على العبادة والاستمرار عليها.

والحلال أكثر بكثير من الحرام ، ولكنه على وفق ما أذن الله به ، لا على النحو الذي كان عليه عرب الجاهلية من تحريم ما أحل الله ، لذا ناسب ذلك بيان المحرّمات القليلة أمام الحلال الكثير الواسع ، فقال تعالى : ﴿**إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ..**﴾ أي إنما حرّم عليكم ربكم محرّمات أربعة فقط ؛ لأن لفظة ﴿**إِنَّما**﴾ تفيد الحصر ، وهي أكل الميتة والدم ، ولحم الخنزير ، وما ذبح على النصب للأصنام ، وهو داخل تحت قوله : ﴿**وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ**﴾ أي ذبح على غير اسم الله ، جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عباس : «ملعون من ذبح لغير الله» فلا تحرموا شيئا مما أحله الله لكم.

وقد ذكرت هذه الأنواع الأربعة في سور ثلاث سابقة هي سورة البقرة المدنية : ﴿**إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ..**﴾ [الآية : ١٧٣] وسورة المائدة المدنية أيضا : ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ..**﴾ [الآية : ٣] وسورة الأنعام المكية كهذه السورة :

﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً ..﴾ [الآية : ١٤٥]. وأما المذكور في سورة المائدة من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكي (ذبح حيا) فهو داخل في الميتة.

ثم استثنى تعالى حالة الضرورة فقال : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ ..﴾ أي فمن دعته الضرورة وألجأته،واحتاج من غير بغي ولا عدوان إلى تناول شيء من هذه المحرّمات ، لمجاعة غلب على ظنه الهلاك فيها ، غير باغ على مضطر آخر ، بأن ينفرد بتناوله ، فيهلك الآخر ، ولا عاد أي متجاوز ما يسد الرمق والجوع أي قدر الضرورة ، مما يدل على تحريم الشبع وهو مذهب الأكثرين ، فإن الله غفور ستار لذنبه أو هفوته ، لا يؤاخذه على ذلك ، رحيم به أن يعاقبه على مثل ذلك. وفي هذا تيسير وتوسعة على هذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر.

ثم نهى الله تعالى عن سلوك سبيل المشركين بالتحليل والتحريم بآرائهم ، وما ابتدعوه شرعا في جاهليتهم من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك ، وتحليل الميتة والدم وغيرهما ، فقال : ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ..﴾ أي ولا تحللوا وتحرموا بالرأي والهوى والجهالة ، دون اتباع شرع الله ، ولمجرد وصف ألسنتكم الكذب دون دليل. وهذه مبالغة في تأكيد حصر المحرمات في الأربع السابقة.

﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ أي لتصير عاقبة أمركم إسناد التحليل والتحريم إلى الله كذبا ، من غير إنزال شيء فيه ، فإن من حلل أو حرم شيئا برأيه دون دليل أو وحي من الله ، كان من الكاذبين على الله تعالى.

فيدخل في هذا النهي كل من حلل شيئا مما حرم الله ، أو حرم شيئا مما أباح الله بمجرد رأيه وهواه ، وكل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي.

ثم توعد على ذلك فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ،

مَتاعٌ قَلِيلٌ ..﴾. أي إن الذين يختلقون الكذب على الله ، لا يفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فلهم متاع قليل زائل وعرض زائل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم جدا ، كما قال : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٤].

والآية في الأصل خطاب للكفار الذين حرموا البحائر والسوائب ، وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتة.

وبعد بيان الحلال والحرام والمباح للضرورة لهذه الأمة ، ذكر تعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل نسخها ، فقال : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ..﴾ أي وقد حرمنا على اليهود ما أخبرناك به أيها الرسول في سورة الأنعام : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما ، إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٦] فلا يصح لكم أيها العرب التحريم والتحليل من عند أنفسكم ، ولا تقليد اليهود فيما حرمنا عليهم ، فلم نحرم عليهم إلا ما ذكر.

وسبب التحريم هو : ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ ..﴾ أي وما كان التحريم بظلم منا ، ولكن كان بسبب ظلم ارتكبوه ، فإنهم ظلموا أنفسهم بعصيان ربهم ومعاندة رسلهم ، وتجاوز حدودهم ، فاستحقوا ذلك ، وعوقبوا بما حرمناه عليهم ، كما قال تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ..﴾ [النساء ٤ / ١٦٠]. وهو صريح في أن التحريم كان بسبب الظلم والبغي ، عقوبة وتشديدا.

ثم أبان الله تعالى إمكان قبول التوبة تكرما وامتنانا على العصاة والمفترين على الله ، والمنتهكين حرماته ، فقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ أي إن الافتراء على الله ومخالفة أمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة ، فإن

ربك غفور ستار رحيم بالذين افتروا عليه بالتحليل والتحريم ، وعملوا السوء : وهو كل ما لا ينبغي من الكفر والمعاصي ، بسبب الجهالة ؛ لأن كل من عمل السوء ، فإنما يفعله بالجهالة ، فلا يرضى أحد بالكفر مع العلم بكونه كفرا ، ولا تصدر المعصية عنه إلا إذا غلبت الشهوة على العقل والعلم.

لكن المغفرة والرحمة مرتبطان بالتوبة والإنابة ، والندم على ما فعلوا ، وإصلاح الأعمال على وفق مراد الله ورسوله ، فمن تاب من بعد ذلك ، أي من بعد تلك السيئة أو الجهلة ، وأصلح عمله ، فآمن بالله ورسوله وأطاع الله ورسوله ، فإن الله يغفر ذنبه ، ويرحمه في الآخرة والدنيا.

وقد أعاد قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها﴾ على سبيل التأكيد ، ثم قال ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لذلك السوء الذي صدر عنهم بسبب الجهالة.

وهذا يدل على أن ارتكاب الذنب يكون غالبا بسبب غلبة الشهوة على ميزان العقل والعلم ، أو بسبب جهالة الشاب وطيشه. ويدل أيضا على أن من أقدم على الكفر والمعاصي ولو دهرا طويلا ، ثم تاب وآمن وعمل صالحا ، فإن الله يقبل توبته ، ويخلصه من العذاب.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام التالية :

١ ـ إباحة الحلال الطيب الذي لا ضرر فيه ، وتحريم الخبيث الضار الذي يؤدي إلى الأذى والشر ، وذلك بحق يقتضي شكر النّعمة.

٢ ـ المحرمات الأساسية في الشريعة أربعة : هي الميتة والدم ولحم الخنزير ، والمذبوح لغير الله من الأصنام وغيرها.

٣ ـ يباح للضرورة التي يترتب على مخالفتها غلبة الظن بالوقوع في الهلاك تناول شيء من الأطعمة المحرمة المذكورة آنفا.

٤ ـ تحذير المؤمنين من التشبه بالكفار في تحليل الحرام وتحريم الحلال ، دون دليل أو برهان من المشرع الحقيقي وهو الله ، فذلك افتراء على الله الكذب ، والمفترون لا يفلحون في الدنيا والآخرة. فمتاعهم في الدنيا متاع قليل ، ونعيمها يزول عن قريب ، ولهم استمتاع بمتاع قليل ، ثم يردون إلى عذاب أليم.

٥ ـ التحليل والتحريم إنما هو لله عَزَّوَجَلَّ ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يخبر الله تعالى بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول المجتهد فيه : إني أكره كذا ، وهكذا كان يفعل مالك وأحمد وغيرهما من أهل الفتوى من السلف الصالح. فإذا قوي دليل التحريم فلا بأس بالقول بأنه حرام ، كتحريم الربا في غير الأصناف الستة الواردة في تحريم الربا بنوعيه : ربا الفضل وربا النسيئة.

٦ ـ الأنعام والحرث (الزروع والثمار) حلال لهذه الأمة ، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء ، وما ظلمهم الله بتحريم ما حرم عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم ، فحرم عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم.

٧ ـ اقتضت رحمة الله وفضله وكرمه أن يقبل توبة عباده الذين يعملون السوء من الكفر والمعاصي ، ثم يتوبون بعد فعلها ، ويصلحون أعمالهم ، فيغفر الله لهم.

إبراهيم عليه السلام واتباع ملته وتعظيم اليهود السبت

﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)﴾

الإعراب :

﴿حَنِيفاً﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿اتَّبِعْ﴾ ولا يحسن أن يكون حالا من ﴿إِبْراهِيمَ﴾ لأنه مضاف إليه.

البلاغة :

﴿كانَ أُمَّةً﴾ أي كان رجلا جامعا للخير ، كالأمة والجماعة ؛ لا تصافه بأوصاف كثيرة.

﴿وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً﴾ التفات عن الغيبة إلى التكلم ، زيادة في تعظيم أمره.

المفردات اللغوية :

﴿أُمَّةً﴾ إماما قدوة جامعا لخصال الخير ، والأصل في الأمة : الجماعة الكثيرة ، وسمي إبراهيم بذلك ؛ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرقة في أشخاص كثيرة ، كما قال أبو نواس مادحا الرشيد :

ولـــــيس علـــــى الله بمســـــتنكر أن يجمـــــع العـــــالم في واحـــــد

ولأنه عليه السلام كان وحده مؤمنا ، وكان سائر الناس كفارا.

﴿قانِتاً﴾ مطيعا لله قائما بأمره. ﴿حَنِيفاً﴾ مائلا عن الدين الباطل إلى الدين الحق القيم.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا ، فإن قريشا كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام. ﴿شاكِراً لِأَنْعُمِهِ﴾ ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة ، فكيف بالكثيرة؟ ﴿اجْتَباهُ﴾ اصطفاه للنبوة. ﴿وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة

إلى الله. ﴿وَآتَيْناهُ﴾ فيه التفات عن الغيبة. ﴿حَسَنَةً﴾ هي الثناء الحسن ومحبة أهل الأديان جميعا له. ﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العلى ، من أهل الجنة ، كما سأله بقوله : ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ، و ﴿ثُمَّ﴾ : إما لتعظيمه والتنبيه على أن أجل ما أوتي إبراهيم اتباع الرسول ﷺ ملته ، أو لتراخي أيامه. ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾ أن اتبع دين إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه بالرفق ، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى ، والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه. ﴿وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوة الموحدين. وكرر ردا على زعم اليهود والنصارى أنهم كانوا على دينه.

﴿إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ﴾ فرض تعظيمه ، والتخلي فيه للعبادة ، وترك الصيد فيه. ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي على نبيهم ، وهم اليهود ، أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة ، فقالوا : لا نريده ، وإنما نريد يوم السبت ؛ لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض ، فشدّد الله عليهم ، وألزمهم السبت. وقيل : معناه إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة ، وحرموه أخرى ، واحتالوا له الحيل. وذكر ذلك هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمجازاة على الاختلاف ، أو بمجازاة كل فريق من الآبين السبت والمعظمين له بما يستحقه ، من إثابة الطائع ، وتعذيب العاصي بانتهاك حرمته.

المناسبة :

بعد أن أبطل الله تعالى مذاهب المشركين من إثبات الشركاء لله ، والطعن في نبوة الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وتحليل أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أباحها الله ، وكانوا مفتخرين بجدهم إبراهيم عليه السلام ، مقرين بحسن طريقته ووجوب الاقتداء به ، بعد إبطال ذلك كله ، ختم تعالى هذه السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين ، وقدرة الأصوليين ، ليتأسوا به إن كانوا صادقين في اتباع ملته ، ولحمل المشركين على الإقرار بالتوحيد ، والرجوع عن الشرك ، والاقتداء به لاتصافه بصفات تسع.

وبعد وصف إبراهيم بهذه الصفات العالية ، أمر الله نبيه محمدا ﷺ باتباع ملة إبراهيم. ملة التوحيد.

وبما أن محمدا ﷺ اختار يوم الجمعة ، فذلك يدل على أن إبراهيم عليه‌السلام كان قد اختار في شرعه يوم الجمعة ، وهذا يستدعي السؤال : لم اختار اليهود يوم السبت؟ فأجاب الله تعالى بأن تعظيم السبت واتخاذه للعبادة لم يكن من شرع إبراهيم ولا دينه ، وإنما كان مفروضا على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم موسى عليه‌السلام في شأن تعظيمه ، حيث أمرهم بالجمعة ، فاختاروا السبت ، فاختلافهم في السبت كان اختلافا على نبيهم في ذلك اليوم ، وليس اختلافهم في أن منهم من قال بالسبت ، ومنهم من لم يقل به ؛ لأن اليهود اتفقوا على ذلك ، وهذا هو ما صححه الرازي [١].

التفسير والبيان :

يمدح الله تعالى إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ، ومن اليهودية والنصرانية ، فيقول : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ ..﴾.

أي إنه تعالى وصف إبراهيم عليه‌السلام بتسع صفات هي :

١ ـ إنه كان أمة ، أي كان وحده أمة من الأمم ، لكماله في صفات الخير. والمعنى : أنه الإمام الذي يقتدى به.

٢ ـ كونه قانتا لله ، أي خاشعا مطيعا لله قائما بأمره.

٣ ـ كونه حنيفا ، أي مائلا عن الشرك والباطل قصدا إلى التوحيد.

٤ ـ إنه ما كان من المشركين ، بل كان من الموحدين في الصغر والكبر ، فهو الذي قال لملك زمانه : ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٨] وهو الذي أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : ﴿لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٧٦] ثم كسر الأصنام حتى ألقوه في النار.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٠ / ١٣٧

ونظير الآية قوله : ﴿ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا ، وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٦٧].

٥ ـ شاكرا لأنعم الله عليه ، والأنعام وإن كان جمع قلة إلا أن المراد به أنه كان شاكرا لجميع نعم الله إن كانت قليلة ، فبالأولى الكثيرة ، وهذا كما قال تعالى : ﴿وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم ٥٣ / ٣٧] أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وهذا تعريض بكل من جحد بأنعم الله مثل قريش وغيرهم.

٦ ـ إنه اجتباه ربه ، أي اختاره واصطفاه للنبوة ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٥١].

٧ ـ إنه هداه إلى صراط مستقيم ، أي في الدعوة إلى الله والترغيب في الدين الحق ، والتنفير عن الدين الباطل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٣].

٨ ـ وآتاه الله في الدنيا حسنة ، أي إن الله حببه إلى جميع الخلق ، فكل أهل الأديان يقرّون به ، سواء المسلمون واليهود والنصارى ، أما كفار قريش وسائر العرب ، فلا فخر لهم إلا به ، وهذا إجابة لدعائه إذ قال : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٤].

٩ ـ وإنه في الآخرة لمن الصالحين أي في زمرتهم ، تحقيقا لدعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٣] وكونه مع الصالحين لا ينفي أن يكون من أعلى مقامات الصالحين ؛ لقوله سبحانه : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ﴾ [الأنعام ٦ / ٨٣].

وبعد تعداد هذه الصفات العالية لإبراهيم عليه السلام ، أمر الله نبيه باتباعه ، فقال : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ..﴾ وبناء على كماله وصحة توحيده

وطريقته ، أوحينا إليك أيها الرسول أن اتبع ملة إبراهيم الحنيف المائل عن كل الأديان والشرك والباطل إلى دين التوحيد ، وما كان مشركا ، وذكر ذلك لزيادة التأكيد ، وهو يدل على أن اتباع ملة إبراهيم إنما هو في الأصول أي الدعوة إلى التوحيد وفضائل الأخلاق والأعمال. أما الفروع فقد تختلف ؛ لقوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ [المائدة ٥ / ٤٨] وذلك حسب تطور الأزمنة واكتمال العقل والنضج الإنساني ، ومراعاة أحوال الأمم والشعوب. وذكر ﴿ثُمَّ﴾ في قوله : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ يدل على تعظيم منزلة رسول الله ﷺ ، والدلالة على أن أشرف كرامة وأجل نعمة لإبراهيم الخليل اتباع الرسول ﷺ ملته.

ومتابعة إبراهيم تقتضي كونه اختار يوم الجمعة للعبادة ، كما اختاره النبي محمد ﷺ ؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة وتمت النعمة فيه على عباده ، أما تعظيم السبت عند اليهود فأجاب تعالى عنه بقوله : ﴿إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وقد اختاروه لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئا من المخلوقات التي كمل خلقها يوم الجمعة ، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة.

أي إنما جعل تعظيم السبت مفروضا على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم موسى في شأن تعظيمه ، حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت ، فكان اختلافهم في السبت اختلافا على نبيهم في ذلك اليوم ، أي لأجله ، وليس اختلافهم فيه في أن منهم من قال بالسبت ، ومنهم من لم يقل به ؛ لأن اليهود اتفقوا على ذلك ، كما صحح الرازي [١].

وقال الزمخشري : المعنى إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على اليهود المختلفين فيه ، وهو أنهم أحلوا الصيد فيه تارة ، وحرّموه تارة ، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة ، بعد أن حتم الله عليهم الصبر عن

---

(١) تفسير الرازي : ٢٠ / ١٣٧

الصيد فيه وتعظيمه. والمقصود هو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره ، والخالعين ربقة طاعته ، فالله يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلّين تارة ، ومحرّمين أخرى[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ..﴾ أي وإن الله ليفصل بين الفريقين فيما اختلفوا فيه ، ويجازي كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب.

والظاهر لدي هو التأويل الأول ، قال مجاهد في قوله : ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ ..﴾ : اتبعوه وتركوا الجمعة. والمراد بقوله : ﴿اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يوم الجمعة ، اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى.

وظل اليهود متمسكين بتعظيم السبت حتى بعث الله عيسى ابن مريم فيقال : إنه حوّلهم إلى يوم الأحد. ويقال : إنه ظل معظما السبت ، ولكن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد ، مخالفة لليهود ، كما تحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ إن وصف إبراهيم عليه السلام بتسع صفات عالية وشريفة ، يقتضي الاقتداء به ، والقصد من ذلك دعوة مشركي العرب إلى ملة إبراهيم الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع الإلهية ؛ إذ كان إبراهيم أباهم الذي يفتخرون به ، ويعترفون بحسن طريقته ، ويقرون بوجوب الاقتداء به ، وهو باني البيت الذي به عزهم.

٢ ـ أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم في عقائد الشرع وأصوله من الدعوة إلى

---

(١) تفسير الكشاف : ٢ / ٢٢١

توحيد الله والتحلي بفضائل الأخلاق ، لا اتباعه في الفروع ؛ لقوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ [المائدة ٥ / ٤٨].

٣ ـ الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول ؛ لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء عليهم السلام ، وقد أمر بالاقتداء بهم ، فقال : ﴿فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام ٦ / ٩٠] وقال هنا : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ﴾.

٤ ـ لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه تعظيم السبت ، وإنما كان السبت تغليظا على اليهود في رفض الأعمال ، وترك التبسط في المعاش ، بسبب اختلافهم فيه.

٥ ـ إن الله تعالى لم يعين يوما للتفرغ فيه للعبادة ، وإنما أمر بتعظيم يوم في الأسبوع ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق ، وعينت النصارى يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه الخلق ، فألزم كل منهم ما أداه إليه اجتهاده. وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة ، من غير تفويض إلى اجتهادهم ، فضلا منه ونعمة ، فكانت خير الأمم أمة محمد ﷺ. ثبت في الصحيحين ، واللفظ للبخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «نحن الآخرون ، السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا ، والنصارى بعد غد».

ولفظ مسلم عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما : «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا ، فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، والمقضي بينهم يوم القيامة».

٦ ـ إن المقصود من آية السبت أن النبي ﷺ أمر باتباع الحق ، وحذر الله الأمة من الاختلاف فيه ، فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود.

أسس الدعوة إلى الدين وجعل العقاب بالمثل والصبر على المصاب

﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)﴾

الإعراب :

﴿فِي ضَيْقٍ﴾ قرئ بفتح الضاد وكسرها ، والضّيق بالفتح : المصدر ، والضّيق بالكسر : الاسم.

المفردات اللغوية :

﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ادع يا محمد الناس إلى دين الله ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ المواعظ والعبر النافعة والقول الرقيق. قال البيضاوي : والأولى ـ أي الحكمة ـ لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق ، والثانية ـ أي الموعظة ـ لدعوة عوامهم ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار أيسر الوجوه وأقوم الأدلة وأشهر المقدمات ، فإن ذلك أنفع في تسكين ثورتهم وتبيين شغبهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ ..﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة ، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما ، فليس إليك ، بل الله عالم بالضالين والمهتدين ، وهو المجازي لهم.

﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فيه دليل على أن للمقتص أن يماثل الجاني ، وليس له أن يجاوزه ، وفيه أيضا الحث على العفو تعريضا بقوله : ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ﴾ وتصريحا على الوجه الآكد بقوله : ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ لهو ، أي الصبر خير كله من الانتقام.

﴿وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ أي واصبر يا محمد وما صبرك إلا بتوفيق الله ، وتثبيته ، وهذا

تصريح بالأمر به لرسول الله ﷺ ؛ لأنه أولى الناس به ، لزيادة علمه بالله ، ووثوقه عليه ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين إن لم يؤمنوا ، لحرصك على إيمانهم ، أو على المؤمنين وما فعل بهم يوم أحد ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لا تك في ضيق صدر من مكرهم ، أي لا تهتم بمكرهم ، فأنا ناصرك عليهم ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم من طاعة وصبر ، بالعون والنصر ، والولاية والفضل.

سبب النزول :

نزول الآية (١٢٦):

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ : أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والبزار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة ، حين استشهد ، وقد مثّل به فقال : لأمثّلنّ بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل ، والنبي ﷺ واقف ، بخواتيم سورة النحل : ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة ، فكفّ رسول الله ﷺ ، وأمسك عما أراد.

وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم عن أبي بن كعب قال : لما كان أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة ، ومنهم حمزة ، فمثلوا بهم ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربينّ عليهم ، فما كان فتح مكة ، أنزل الله : ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية. قال السيوطي : وظاهر هذا تأخير نزولها ـ أي السورة ـ إلى الفتح ، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد ، وجمع ابن الحصار بأنها نزلت أولا بمكة ، ثم ثانيا بأحد ، وثالثا يوم الفتح ، تذكيرا من الله لعباده.

والخلاصة : إن هذه الآية مدنية في رأي جمهور المفسرين ، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد ، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السّير.

فضيلة هذه الآيات :

قيل لهرم بن حبّان حين احتضر : أوص ، فقال : إنما الوصية من المال ، ولا مال لي ، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ ..﴾.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى محمدا ﷺ باتباع إبراهيم عليه السلام ، بيّن الشيء الذي أمره بمتابعته ، وهو دعوة الناس إلى الدين بأحد طرق ثلاث : وهي الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالطريق الأحسن. والدعوة إلى دين الله وشرعه تكون بتلطف ، وهو أن يسمع المدعو الحكمة : وهو الكلام الصواب القريب ، الواقع من النفس أجمل موقع.

فالآية متصلة بما قبلها اتصالا حسنا ، لتدرج الآيات من الذي يدعى ويوعظ ، إلى الذي يجادل ، إلى الذي يجازى على فعله.

ثم أمر الله تعالى برعاية العدل والإنصاف ، وجعل القصاص بالمثل ، ثم صرح تعالى بالأمر بالصبر على المشاق والمصائب ، والصبر بتوفيق الله ومعونته ، هو مفتاح الفرج.

التفسير والبيان :

الدعوة إلى دين الله وتوحيده أو الاعلام بها أمر ضروري للعلم بها ، لذا كانت هي المهمة الأساسية للرسل عليهم السلام ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو الناس إلى الله بالحكمة قائلا : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ ..﴾ أي ادع أيها الرسول الناس إلى شريعة ربك ، وهي الإسلام بالحكمة ، أي بالقول المحكم ، والموعظة الحسنة ، أي بالعبر والزواجر التي تؤثر بها في قلوبهم ، ذكّرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى.

﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من

غيرها ، ومن احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، واصفح عمن أساء في القول ، وترفّق بهم في الخطاب ، وقابل السوء بالحسنى ، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق ، دون رفع الصوت ، وسب الخصم أو الأذى ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الآية [العنكبوت ٢٩ / ٤٦].

فهذا أمر للنبي ﷺ بلين الجانب ولطف الخطاب ، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ [طه ٢٠ / ٤٤] فعلى كل داعية امتثال هذا الأمر الإلهي في دعوته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي قد علم الله الشقيّ منهم والسعيد ، ومن حاد عن منهج الحق ، ومن اهتدى إليه ، وهو مجازيهم على ضلالهم واهتدائهم حين لقاء ربهم ، فله الجزاء ، لا إليك يا محمد ولا إلى غيرك ، وليس عليك هداهم ، إنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٦] وقال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ ، وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٧٢]. والآية مشتملة على وعد ووعيد.

ومن رفق النبي ﷺ في الدعوة ما رواه أبو أمامة : أن غلاما شابا أتى النبي ﷺ ، فقال : يا نبي الله ، أتأذن لي في الزنى؟ فصاح الناس به ، فقال النبي ﷺ : قربوه إذن ، فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبي ﷺ : أتحبه لأمك؟ قال : لا ، جعلني الله فداك. قال : وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أتحبّه لابنتك؟ قال : لا ، جعلني الله فداك ، قال : وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبّه لأختك؟ قال : لا ، جعلني الله فداك ، قال : كذلك الناس لا يحبّونه لأخواتهم.

فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصّن فرجه ، فلم يكن شيء أبغض إليه منه.

وبعد أن أمر سبحانه وتعالى بالرفق في الدعوة والخطاب ، أمر بالعدل والإنصاف في العقاب ، والمماثلة في استيفاء الحق ؛ إذ قد تكون الدعوة سببا في إغاظة الآخرين ، وإقدامهم على القتل أو الضرب أو الشتم ، فقال سبحانه : ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا ..﴾.

أي وإن عاقبتم المسيء أيها المؤمنون ، فعاقبوه بمثل جرمه ، بلا زيادة ولا تجاوز للحدود. وإن أخذ رجل منكم شيئا ، فخذوا مثله ، فإن الزيادة ظلم ، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به.

وقوله : ﴿عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إنما سماه الله عقابا على سبيل المشاكلة ؛ لأن أصل العقاب المجازاة على الفعل ، فالفعل في ابتداء الأمر ليس عقابا.

ثم دعا تعالى إلى الترفع عن العقاب والتسامي عن المقابلة والجزاء بالمثل ، فقال : ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

أي ولئن صبرتم عن المقابلة بالمثل ، وتجاوزتم عن الإساءة ، وصفحتم ، واحتسبتم الثواب والأجر على ما نالكم من ظلم ، فالله يتولى عقابه ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ؛ لأن انتقام الله أشد. فقوله ﴿لَهُوَ﴾ يعود الضمير إلى المصدر في قوله : ﴿صَبَرْتُمْ﴾. والمراد بالمصدر : إما الجنس أي جنس الصبر خير ، وإما صبركم ، أي لصبركم خير لكم ، فوضع ﴿لِلصَّابِرِينَ﴾ موضع لكم ثناء عليهم.

ثم أمر الله نبيه صراحة بالصبر بصفة عامة بعد أن ذكر حسن عاقبته ، فقال : ﴿وَاصْبِرْ ، وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ أي واصبر على ما أصابك من أذى في

سبيل الدعوة ، وما صبرك إلا بعون الله وحسن توفيقه ومشيئته ، أي لما كان الصبر شاقا ، ذكر ما يعين عليه ، فالجأ إلى الله في طلب الصبر ، والتثبيت في الأمر.

وقوله : ﴿وَاصْبِرْ ..﴾ تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته. وهو تسلية للنبي ﷺ عما ناله من أذى قومه ، وتثبيت له.

﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ولا تجزع على إعراض المشركين وكل من خالفك ، فإن الله قدّر ذلك ، أو لا تحزن على قتلى أحد ، فترك الحزن مما يستعان به على الصبر.

﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي لا تكن في غم وضيق صدر من مكرهم وتدبيرهم الكيد لك ، وإجهاد أنفسهم في عداوتك ، وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ، كما قال تعالى : ﴿فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ، لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف ٧ / ٢] وقال : ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ ، وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ، أَنْ يَقُولُوا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود ١١ / ١٢].

﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ..﴾ أي إن الله مع المتقين الذين تركوا محارمه ، المجتنبين معاصيه بالنصر والمعونة والتأييد ، ومع المحسنين أعمالهم برعاية الفرائض ، والتزام الطاعة ، وأداء الحقوق. والصبر : من التقوى والإحسان. فقوله : ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي تركوا محارمه ، وقوله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي فعلوا الطاعات.

وهذه معيّة خاصة ، يراد بها الإعانة والتأييد والهداية ، كقوله تعالى : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ، فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال ٨ / ١٢] وقوله لموسى وهرون : ﴿لا تَخافا ، إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ [طه ٢٠ / ٤٦] وقول النبي ﷺ للصديق ، وهما في الغار : ﴿لا تَحْزَنْ ، إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾ [التوبة ٩ / ٤٠].

وهناك معيّة عامة بالسمع والبصر والعلم ، كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ ، وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد ٥٧ / ٤] وقوله : ﴿وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا﴾ [المجادلة ٥٨ / ٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام التالية :

١ ـ على من يدعو الناس إلى دين الله اتباع أحد هذه الطرق الثلاث : وهي الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالطريق الأحسن.

وعلى الداعية أيضا أن يكون شجاعا في الحق ، فلا يهن ، صارما في الصدق ، فلا يضعف ، مخلصا متفانيا في مبدئه ، فلا يبيعه بزخارف الدنيا وزينتها ، ولا يتطلع إلى ما في أيدي الناس. وأن يصبر في دعوته ؛ جاءت قريش إلى أبي طالب عم النبي ﷺ ، وعرضوا عليه أن يأخذ محمدﷺ ما شاء من مال ، ويترك ما يدعو إليه ، فذكر أبو طالب للنبي ﷺ ذلك ، فبكى وقال:

«يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه».

٢ ـ لا يتعلق حصول الهداية بالداعية ، فهو تعالى أعلم بالضالين ، وأعلم بالمهتدين.

٣ ـ العقاب يكون بالمثل دون زيادة ، فالمظلوم منهي عن استيفاء الزيادة من الظالم.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ، ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال ، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه ، فقالت فرقة : له ذلك ، محتجين بهذه الآية وعموم لفظها : ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾.

وقال مالك وجماعة معه : لا يجوز له ذلك ؛ لقول رسول الله ﷺ . فيما رواه الدار قطني . «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك». ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بامرأة آخر ، ثم تمكّن الآخر من زوجة الثاني ، بأن تركها عنده وسافر ؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر ، فقال له : «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك».

٤ . دلت آية : ﴿بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ على جواز التماثل في القصاص ، فمن قتل بحديدة قتل بها ، ومن قتل بحجر قتل به ، ولا يتعدى قدر الواجب.

٥ . سمّى الله تعالى الأذى في هذه الآية عقوبة ، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية ، وإنما فعل ذلك من طريق المشاكلة ، ليستوي اللفظان ، وتتجانس ديباجة القول ، فالأول مجاز والثاني حقيقة.

هذا بعكس قوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٤] وقوله : ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة ٢ / ١٥] فإن الفعل الثاني أي من الله هو المجاز هنا ، والأول هو الحقيقة ، كما قال ابن عطية.

٦ . التحلي بالصبر فضيلة أمر الله بها. قال ابن زيد عن آية : ﴿وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ : هي منسوخة بآية القتال. ولكن جمهور الناس على أنها محكمة ، أي اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عوقبوا به من المثلة.

٧ . إن الله نصير المتقين الذين تركوا الفواحش والمعاصي ومؤيدهم ومعينهم ، وهو أيضا نصير المحسنين الذين فعلوا الطاعات.

تم هذا الجزء ولله الحمد

فهرس

الجزء الرابع عشر

الموضوع	الصفحة
سورة الحجر	٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٥
ما اشتملت عليه السورة	٦
وصف القرآن وتهديد الكافرين والعصاة	٨
بعض مقالات المشركين في النبي ﷺ والرد القاطع عليها	١٣
بعض مظاهر قدرة الله تعالى ـ خلق السموات والأرض وإرسال الرياح لواقح والإحياء والأمانة والعلم الشامل والحشر	١٩
بدء خلق الإنسان وأمر الملائكة بالسجود له وإباء إبليس وعداوة البشر	٢٨
جزاء المتقين يوم القيامة	٣٧
المغفرة والعذاب	٤١
قصة ضيف إبراهيم وإخبارهم بإهلام قوم لوط	٤٥
قصة أصحاب الإيكة (قوم شعيب) وأصحاب الحجر (ثمود)	٥٨
أفضال الله تعالى على نبيه المصطفى ﷺ	٦٦
سورة النحل	٧٩
تسميتها وارتباطها بالسورة التي قبلها	٧٩
ما اشتملت عليه السورة	٨٠
إثبات البعث والوحي	٨٢

أدلة وجود الله ووحدانيته ٨٧
أدلة أخرى لإثبات الألوهية والوحدانية ٩٦
خواص الألوهية ـ الخلق وعلم السر والعلم والحياة الأبدية ١٠٤
صفات المستكبرين ـ إنكار المشركين الوحي المنزّل والنَبوة وجزاؤهم ١١٠
صفات المتقين ـ ؛يمان المتقين بالوحى المنزل وجزاؤهم ١١٨
تهديد المشركين على تماديهم في الباطل ١٢٤
احتجاج الكفار بالقدر وإنكارهم البعث وتشابه مهمة الرسل ١٢٧
جزاء المهاجرين ، وبشرية الرسل ومهمة النّبي ﷺ في بيان القرآن ١٢٧
وتهديد الكافرين
مناقشة عقائد المشركين وأعمالهم القبيحة ١٤٩
عادة الأمم في تكذيب الرسل ومهمة النّبي ﷺ فى تبيان القرن وجعله ١٦٣
هدى ورحمة
من دلائل القدرة الإلهية والتوحيد ومظاهر النعم على الناس ١٦٦
بعض عجائب أحوال الناس الدالة على قدرة الله وتوحيده ١٧٦
مثلان للأصنام والأوثان ١٨٤
علم الله الغيب وخلقه الإنسان والطير ١٩٠
بعض دلائل التوحيد وأنواع النعم والفضل الألهي ١٩٦
وعيد المشركين وأحوالهم يوم القيامة ٢٠٢
بعث الشاهد عليهم وعلى المؤمنين وعدم تخفيف العذاب ومضاعفته عليهم ٢٠٢
وتكذيب المعبودات لهم
أجمع آية في القرآن للخير والشر والوفاء بالعهد والهداية والإضلال ٢١٠
أجمع آية للرجال والنساء في الترغيب بالعمل الصالح ٢٢٧
ما يتعلق بالقرآن ـ الاستعاذة والنسخ وعربية القرآن ٢٢١

المرتدون عن الإسلام والمهاجرين بعدما فتنوا ٢٣٨
أحكام المستكرة ومراتب الإكراه..... ٢٤٥
عاقبة كفران النّعم في الدنيار ٢٥٠
الحلال الطيب والحرام الخبيث من المأكولات ٢٥٠
إبراهيم عليه السلام واتباع ملته ونعظيم اليهود السبت ٢٦٠
أسس الدعوة إلى الدين وجعل العقاب بالمثل والصبر على المصاب ٢٦٧